

تأسيس عقلية الطفل

د. عبد الكريم بكار



بسم الله الرحمن الرحيم

تأسيس عقلية الطفل



الإدارة العامة

الجمهورية العربية السورية
دمشق -ص.ب9184
هاتف : 6119361

الطبعة الأولى : 1428 هـ
2007 م

وكلاء التوزيع

مكتبة مركز الراية للمعرفة الفكرية
شارع التحلية - مركز التحلية التجاري
الدور الأرضي - بوابة رقم4
ص.ب41547 الرمز البريدي 21531

عنوان الكتاب : **تأسيس عقلية الطفل**
الناشـــــر : **مركز الراية للتنمية الفكرية**
مكان الطباعة : **جدة - المملكة العربية السعودية**
تاريخ النشر : **1428 هجرية - 2007 ميلادية**

تأسيس عقلية الطفل

د. عبد الكريم بكار

مركز الراية المعرفية

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الله ـ عز وجل ـ جعل هذه الدنيا داراً للابتلاء والاختبار، وإن من أشد ما ابتلينا به القيام بحقوق الأهل والأبناء، وتوجيههم، والأخذ بأيديهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم. والحقيقة أنه لا يوازي العمل الشاق الذي يقوم به المربون إلا ذلك النبل الذي تنطوي عليه نفوس المعلمين والآباء الناصحين. ولا يخفف من الشعور بأثقال التربية إلا ما ينتظره المربون المخلصون من مثوبة الله ـ تعالى ـ وحسن جزائه ومعروفه؛ ولهذا فإن إرهاق النفس واستنفاد الطاقة الروحية في التربية والتعليم، من أعظم ما يتقرَّب به إلى الله ـ سبحانه ـ، ولم لا والمربي يقوم بتربية شخصيات من يربيهم، ويترك بصماته القوية على اتجاهاتهم الفكرية والشعورية. ولا بد من القول: إن كثيراً من الآباء والأمهات، يعوِّلون على المدرسة في تربية أبنائهم بوصفها المؤسسة الأفضل تأهيلاً لمعالجة مسائل التربية، وهذا يدفع الأبوين إلى التراخي في القيام بواجبهما، وتأجيل ما عليهما القيام به أملاً في توليه من قبل المعلمين بعد حين.

وأعتقد أن هذا المفهوم المستبطن لدى كثير من الناس ترك آثاراً سلبية وسيئة على اهتمام المربين في البيوت، وأضعف من الدور الرئيس الذي كان عليهم في تهذيب أبنائهم.

إن هناك سناً مثالية لزراعة بعض القيم والمفاهيم في نفوس الأطفال وعقولهم، وإن إلقاء عبء التربية على المدرسة سيعني ضياع كثير من الفرص الذهبية من أيدي الأبوين. أضف إلى هذا أن كثيراً من المدرسين ليس لديهم الوقت ولا الرغبة في القيام بدور المربي الجيد، لأنهم يعتقدون أن واجبهم الأساسي هو التعليم، وليس التربية؛ ومهما يكن هذا المعتقد خاطئاً، فإنه لا بد للأسر من أن تعمل على استعادة دورها الريادي في تنشئة أبنائها.

إن الهدف من التربية هو تنشئة جيل ملتزم بتعاليم دينه، قادر على التعامل مع معطيات زمانه، منضبط ذاتياً، ومقدّر للمسؤوليات الملقاة على عاتقه؛ وهذا لن يتم إلا من خلال وجود مربين، يملكون ثقافة تربوية جيدة، ولهم وضعية سلوكية قويمة. والحقيقة أن الطفل الجيد هو الذي يتعرض لتربية جيدة، والتربية الجيدة تحتاج إلى اهتمام وعناية ومتابعة، كما تحتاج إلى معرفة وممارسة. وفي ظني أن المربين يحتاجون اليوم إلى أمرين مهمين:

١ ـ تعلم الأساليب والممارسات الصحيحة في تربية الأبناء، وأن يسلكوا المسالك، ويقفوا المواقف التي تساعد الصغار على الاستقامة وتمثل القيم والأفكار والمفاهيم الصحيحة. والشيء الذي يجب التركيز عليه هنا، هو أن ما يجب إيصاله للأطفال عن طريق الرؤية والمشاهدة والموقف، سيكون قليل الجدوى إذا وصل إليهم عن طريق الأذن والخطاب والعتاب..، حيث إن أفضل طريقة لجعل الأبناء يحترموننا، ويحترمون أنفسهم أيضاً هي أن نعاملهم باحترام، كما أن أفضل طريقة لجعلهم عطوفين ومدركين لمشاعر الآخرين، هي أن نعاملهم بعطف وحب، وأن يرونا نتعاطف مع الضعيف والمسكين والمظلوم..

٢ ـ معرفة عدد جيد من المفاهيم والرؤى التي تتصل بجوانب الحياة

المختلفة، مما يوجه السلوك، وينظم ردود الأفعال، ويصوغ التوجهات العامة للأبناء. وربما كانت المدارس ووسائل الإعلام، وحلقات التوجيه والإرشاد المختلفة، أقدر على امتلاك هذه المفاهيم والرؤى وإيصالها على النحو المناسب، ولكن من المأمول مع انتشار التعليم وتقدم الوعي أن يصبح في إمكان الكثير من الأسر المسلمة القيام بذلك.

وقد قمت بتأليف هذا الكتاب من أجل تلبية هذين الأمرين معاً وشرحهما على أفضل وجه ممكن.

العقل....

إن الدماغ نعمة من أجلّ النعم التي أسبغها البارئ ـ سبحانه ـ على بني الإنسان، فهو مع حجمه الصغير، يقوم بعمليات معقدة جداً، يعجز عنها أي حاسب آلي مهما كان عملاقاً وبسرعة فائقة ومدهشة.

إن الحيوان يتحرك وفق غرائزه، ولهذا فإن قدرته على التعلم محدودة جداً، ووعيه بذاته محدود أيضاً، وليس كذلك الإنسان.

العقل يقابل الغريزة، والإنسان حين يتصرف تبعاً لغرائزه، فإنه يسير على طريق الحيوان، وحين يفكر ويحلل ويقدّر، فإنه يتجاوب مع الخصوصية التي ميَّزه الله ـ تعالى ـ بها على سائر المخلوقات، ويعمق بالتالي معنى وجوده، كما يحسّن وضعيته في الكون.

الحاسب (كراي) حاسب عملاق يزن سبعة أطنان، فإذا عمل بطاقة ٤٠٠مليون معادلة في الثانية، مدة مائة عام، فإنه لن ينجز سوى ما يمكن للدماغ البشري إنجازه في دقيقة واحدة.!

الدماغ ليس هو العقل، لكنه يشكل الوعاء الذي يسكن فيه العقل. أما العقل فإنه مكون من مجموعة الإمكانات والمبادئ التي نستخدمها في تصورنا للوجود، وفي فهمنا للمحيط، كما نستخدمها في التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح...

ولا بد من القول: إن في إمكاننا أن ننظر إلى العقل ـ على مستوى من المستويات ـ على أنه عضو من أعضاء الجسم، نستخدمه في تدبير أمور معاشنا وتنظيم ردود أفعالنا، كما نستخدم اليد والرجل. وأحياناً نعرض عنه، ولا نستخدمه، وذلك حين نتبع أهواءنا وشهواتنا، وحين نستسلم لعواطفنا وانفعالاتنا بعيداً عن المسلّمات والآداب والتعليمات التي نؤمن بها. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا حين قال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1].

إن أولئك الضالين لهم قلوب وعقول وأعين وآذان، لكنهم لا يستخدمونها في التفكر في وحدانية الله ـ تعالى ـ ولا في النظر إلى الآيات والدلائل على وجوده؛ ولهذا فإنهم مثل الأنعام في عدم التفريق بين الخير والشر والنفع والضرر، بل هم أضل لأنهم لم ينتفعوا بما ميزهم الله به عن الحيوان من القدرة على الفهم والإدراك.

إن الإمكانات الذهنية التي تشكل (العقل الوهبي) موحدة على مستوى العالم، حيث لا نعرف شعباً يملك سعة في الخيال أو قوة في الذاكرة أو قدرة على الربط بين الأشياء.. أكثر مما يملكه غيره من الشعوب، لكن تلك الإمكانات، تتفاوت

---

(1) سورة الأعراف: (١٧٩).

تفاوتاً عظيماً بين الأفراد حيث نجد من يملك المقدرة العقلية للعباقرة والأذكياء العظام، كما نجد من يمكن تصنيفه في جملة الأغبياء. هذه الحقيقة تجعلنا نطرح على أنفسنا السؤال التالي: لماذا نجد أمماً تبدع وتخترع وتنتج، ونجد أمماً تستهلك وتشتري، وتقف مشدوهة تجاه فنون الآخرين وعلومهم وإبداعاتهم؟

الجواب هو: أن الإبداعات والإنجازات، لا يمكن أن تنشأ، وتنتعش في بيئات يسيطر عليها الجهل والكسل والفوضى والظلم والاستبداد والانغلاق والإهمال. إن الإبداع يحتاج إلى مؤسسات تعليمية ممتازة، وإلى أسر مهتمة، وإلى حكومات وشركات تنفق على البحث العلمي بسخاء.

العقلية:

التربية التي نتلقاها والخبرات المتنوعة التي نمر بها، والمعارف التي نهضمها ونتمثلها ـ تعمل على صياغة كل واحد منا صياغة خاصة ليكون في النهاية شخصاً فريداً ومتميزاً، حيث إن من المشاهد أن لكل واحد منا مزاجه الخاص وميوله وطرق تفكيره وأسلوبه في رؤية الأشياء، كما أن له أمنياته وتطلعاته وحساسياته الخاصة نحو ما يؤلمه ويزعجه. ويظهر كل هذا في سلوك الإنسان وفي علاقاته مع الناس، وفي طريقة تناوله لشأنه الخاص وتخطيطه لمستقبله..

> **ما نكتسبه من علوم ومفاهيم وأساليب أهم بكثير مما نرثه عن الآباء والأجداد من تفوق ذهني.**

وهذا يشكل في الحقيقة معظم ملامح شخصية الإنسان. وإن التعبير عن هذه

الشخصية يتم بواسطة شيء، يمكن أن نسميه (**العقلية**) إذ إن عقلية الواحد منا ليست ما لديه من أفكار ومعلومات وإنما هي أعم من ذلك، إنها تشمل المصطلحات والتعريفات التي نعتمدها في التعامل مع الأشياء، إلى جانب شمولها للطرق والأساليب التي نفكر من خلالها، ولا ننسى في هذا الشأن قوة المشاعر التي لدينا؛ حيث إن من الثابت والواضح أنه كما تكون الأفكار والمعتقدات سبيلاً لتوليد المشاعر، فإن المشاعر والعواطف، تملك قدرة كبيرة على توجيه العقل وجعله ينتج الأفكار التي تنسجم معها، أو تسوّغها، أو توفر تغطية ثقافية لها. وأعتقد أن هذه النظرة لـ(**العقلية**) هي النظرة التي تتلاءم مع ما نعرفه عن الطبيعة البشرية. ونحن في هذا الكتاب سنمضي وفق هذه الرؤية للعقلية، وسأبذل جهدي في سبيل توفير الأفكار والأساليب والأدوات التي تساعدنا على تأسيس عقلية الطفل المسلم على نحو يمكنه من فهم زمانه ومواجهة تحدياته والاستفادة من الهدي الرباني الأقوم في شأنه كله.

إن المرء حين يتحدث وهو غاضب فإن من المتوقع أن يفقد شيئاً من توازنه، وأن ينساق وراء انفعالاته.

و قد رأيت تقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وقد تناولت فيه سمات البيئة التربوية الجيدة، وبعض الأساليب والوسائل التربوية.

القسم الثاني: وقد تضمن توطئة حول استجابة الدماغ للتدريب والتعليم وحول

أهمية القراءة في ذلك، كما تضمَّن كلاماً موجزاً عن وعي الطفل بذاته وعن بعض المبادئ الحياتية العامة.

> إن كل ما نتحدث عنه من المؤثرات في تأسيس عقلية الطفل هو من باب الظن العلمي، وعند الخوض في التفاصيل قد نجد أشياء كثيرة نختلف فيها.

القسم الثالث: وقد تحدثت فيه عن الطفل المفكر وأنواع التفكير وتكوين المفاهيم.

وإني لأدعو الله - تباركت أسماؤه - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به إخواني المربين وأخواتي المربيات، إنه سميع مجيب.

د. عبد الكريم بن محمد بكار

الرياض ١٤٢٧/٩/٢٣هـ.

القسم الأول

١. سمات البيئة التربوية الجيدة

٢. أساليب وأدوات تربوية

١. سمات البيئة التربوية الجيدة

حين نتحدث عن البيئة التربوية، فإننا في الحقيقة نتحدث عن شيء بالغ التعقيد، إنها نسيج من مورثات الماضي وتحديات الحاضر، نسيج من تأثير العقائد والأفكار والرؤى والأهواء وأشكال القصور وشتى العادات والتقاليد. الأسرة بيئة، والمدرسة بيئة، والشارع بيئة، والإعلام يصنع بيئة، وفي كل بيئة أفراد ذوو تأثير، ولهم خلفيات واتجاهات متباينة.. والطفل يتأثر كل ذلك، ويستنشق عبيره وغباره على نحو غير مرئي وغير متساوٍ، بمعنى أننا لا نعرف على وجه التحديد هل هذا الطفل تأثر في أخلاقه وسلوكاته على نحو رئيس أسرته أو مدرسته أو أصدقاءه وزملاءه، وكل ما يقال في هذا لا يعدو أن يكون ضرباً من التخمين، لكن مع هذا، فإن هناك خطوطاً عريضة ورؤى ومنهجيات، يوافق عليها تربويون كبار، ويؤكدون على ضرورة أخذ المربين لها بعين الاعتبار.

إن العمل الأساسي للأجداد والجدات هو تدليل الأطفال، فدعهم يمارسون عملهم..

ويعطي الباحثون في علوم التربية أهمية خاصة للأسرة في صياغة شخصية الطفل، وتلك الأهمية ، لا تنبع من المورثات الجينية فحسب، وإنما من كون الأسرة تحتضن الطفل في المرحلة الحاسمة من حياته أيضاً، وهي مرحلة ما قبل المدرسة، إذ إن لدى خبراء التربية اعتقاداً قوياً بأن الخطوط العميقة في شخصية الطفل ترسم قبل سن السادسة أو السابعة. نعم قد يكون للمدرسة تأثير

واضح في صياغة الجانب الفكري، أو لنقل في صياغة رؤية الناشئة للواقع وللعالم، ولما هو من قبيل المفاهيم المعقدة، لكن هذا ليس إلا جزءاً صغيراً من شخصية الطفل.

وسأتحدث أولاً عن سمات البيئة التربوية الجيدة، ثم أتبع ذلك ـ بعون الله ـ بالحديث عن بعض الأساليب التي ينبغي اتباعها في تربية الناشئة وبعض الأدوات التي يمكن استخدامها فيها؛ وهذا الفصل بين البيئة وبين الأساليب التربوية، لا يخلو من شيء من التعسف، وسنجد التداخل بين هذه وتلك وقد فرض نفسه علينا، لكن سأحاول هنا التركيز على ما يمكن أن نسميه خصائص شخصية للمربين على حين أنني عند الحديث عن الأساليب التربوية سأحاول التركيز على ما هو من قبيل الخبرات التربوية المكتسبة؛ والله المستعان في كل حال. ولعل الحديث عن البيئة التربوية عبر مفردات ونقاط محدَّدة أعون للقارئ على الاستيعاب، وهذا ما سأفعله:

طريق التربية مليء بالعقبات والإحباطات، ولهذا فإن سالكه يحتاج إلى وقود روحي متجدد؛ والإيمان هو الذي يوفر ذلك الوقود.

١ ـ الوعي بخصائص البيئة الجيدة:

نحن في تشكيل البيئة الجيدة في حاجة إلى (**الوعي**) وأعني بالوعي هنا الإدراك العميق لملامح البيئة التربوية السائدة في بيوتنا ومدارسنا، وملامح البيئة التربوية التي ينبغي أن تسود، أي ما نفعله الآن على الصعيد التربوي وما يجب أن نفعله. وهذا يتطلب أساساً وإطاراً لرؤانا التربوية. ولا يجد المسلم ـ على

الأقل - خيراً من الإيمان والالتزام للعثور على ذلك، والإيمان بالله - تعالى - يمنح جهودنا التربوية المعنى والهدف، إنه يجعلنا نمضي نحن وأبناؤنا في مسيرة واحدة ولغاية واحدة، كما أنه يشجعنا على البذل والتضحية، بما يوفره من معنى الاحتساب وطلب الأجر من الله - تعالى - وهذا شيء مهم جداً إذا عرفنا أن التربية الجيدة تعني عطاء للأسرة غير محدود وصبراً لا ينفد، وعزيمة لا تفتر... أما الالتزام فإنه يساعد المربين مساعدة لا نظير لها على انسجام أوضاعهم وأحوالهم السلوكية مع جوهر ما يقولونه لأبنائهم، وما يحثونهم على فعله وتركه. وهذه نقطة أساسية، حيث إن في الإمكان أن نعزو الكثير من إخفاق المربين إلى وجود فجوة كبيرة بين ما يطلبونه من أبنائهم، وبين ما يقومون بممارسته. هذا أب لا يصلي، لكنه يُسرّ حين يرى أبناءه يصلون، وقد يحثهم على حضور حلقة قرآنية في المسجد، لكنه لا يحاول أن يعرف نظرة أبنائه إليه وتقويمهم له حين يذهبون إلى المسجد وهو جالس يلعب بالورق مع أصدقائه!.
وهذا أب آخر يتلفظ بكلمات بذيئة في الوقت الذي ينهي فيه أبناءه عن ذلك! ولا يواجه المربي الملتزم مثل هذا المأزق.

لم نقم بما ينبغي القيام به تجاه تربية أبنائنا، ولن نقوم، ولهذا فإنه ينبغي أن نعتقد أن هناك دائماً أشياء جيدة يمكن القيام بها.

كم هو رائع أن نعزز الوحدة الفكرية والشعورية في بيوتنا ومدارسنا من خلال نظرة الكبار والصغار إلى الحاضر والمستقبل بمنظار واحد، ومن خلال ضوابط والتزامات واحدة؟!. لدينا أشخاص كثيرون يسعون إلى جعل أولادهم قمة في كل شيء، لكنهم - مع الأسف - لا يعرفون الطريق الموصل إلى هذا، ولا

الكيفية التي يحققون بها ذلك. أنا أعرف أن بعض الناس قد يجادل في بعض فرعيات التدين، وقد ينسب بعض الملتزمين إلى الغلو والتزمت، وهذا لا يشكل أزمة إذا اتبع صاحبه المنهج الصحيح فيما سوى ذلك، وهذا مهم حيث لا يصح أن يصرفنا ما نراه من أخطاء لدى بعض الملتزمين عن التمسك بأهداب الدين، وإلا كنا كمن يعاقب نفسه على أخطاء غيره!.

٢ ـ الدستور التربوي:

إن كل أسرة وكل مدرسة تحتاج إلى ما يمكن أن نسميه (**الدستور التربوي**) والذي يعني إيمان الأسرة أو المدرسة بمجموعة من المبادئ والأخلاقيات والمقولات والشعارات التي توضح التوجه العام لها، كما توضح بعض الأمور الجوهرية التي تحاول اجتنابها. وهذا يعني أن الدستور التربوي لا ينص على كل شيء ـ كما هو شأن كل دستور ـ وإنما ينص على بعض الواجبات التي تخشى الأسرة أو المدرسة التقصير فيها، وبعض المحظورات التي تخشى ارتكابها. ولا شك في أن قيمة الدستور التربوي، تنبع من معرفة الكبار والصغار به، ومن حرصهم على العمل في هديه، مما يوجب بلورته على نحو واضح، ودوام مذاكرته. وأنا هنا سأذكر نموذجين مصغرين للدستور التربوي: واحداً للأسرة وآخر للمدرسة بغية توضيح ما أريده، وبعث الهمة في اتجاه العناية به:

أتح للصغير فرصة ـ ولو مرة واحدة ـ للتميز على من حوله، وذلك كأن يكون أول من دخل دورة في فن من الفنون، أو أول من امتلك حاسباً آلياً من طراز كذا.

أ ـ نموذج دستور تربوي للأسرة:

- نحن أسرة مسلمة، ونسعى جهدنا لأن نكون ملتزمين بتعاليم الدين الحنيف.
- أسرتنا أسرة متضامنة ومتكاتفة، ونسعى إلى تطويق أي خلاف ينشب بيننا.
- الهدوء وعدم رفع الصوت وتحاشي الإزعاج، سمة من سمات منزلنا.
- لصلاة الفجر في موعدها أولوية مطلقة عند تحديد أوقات نومنا.
- قراءة القرآن وذكر الله ـ تعالى ـ وقيام الليل شيء مألوف في بيتنا.
- لا يرضى أحد من أبناء هذه الأسرة بغير النجاح والتفوق.
- على كل فتى أو فتاة في المنزل ترتيب غرفته قبل مغادرتها.
- الاستفادة القصوى من الوقت ومساعدة بعضنا على كل ذلك شيء نحرص عليه.
- نحن لا نذكر الآخرين إلا بخير، ونحاول الابتعاد عن التدخل في شؤونهم.
- لا مكان في بيتنا للعبارات النابية والألفاظ البذيئة.
- الإحسان إلى جيراننا وتحمل أذاهم جزء من مساعينا في التقرب إلى الله ـ تعالى ـ.
- نظافة المنزل والمحافظة على أثاثه مسؤولية الجميع.

- نذكر الله ـ تعالى ـ عند بداية الطعام والفراغ منه، كما ندعو بالأدعية الواردة عند دخول المنزل والخروج منه.
- نحرص على جلسة أسبوعية مختصرة وحسب الأصول للتذاكر في شؤون الأسرة.
- يحاول كل من في الأسرة أن يفاجأها ببعض الأشياء السارة.

ب ـ نموذج الدستور التربوي للمدرسة:

- نحاول دائماً أن نعمل بما تعلمناه.
- نسعى جميعاً إلى جعل مدرستنا متميزة.
- نحن في مكان محترم، ونتصرف دائماً بطريقة محترمة.
- تعاوننا هو السبيل إلى تفوقنا.
- أحافظ على أثاث مدرستي كما أحافظ على أثاث بيتي.
- ليست المدرسة ميداناً للتنافس في إظهار الغنى.
- الالتزام بالنظام هو الشيء الذي لا نتنازل عنه.
- نؤدي واجباتنا المدرسية بأفضل طريقة ممكنة.
- علاقتنا مع أساتذتنا ترجمة لعلاقتنا مع آبائنا.
- لكل جهد مضاعف ثمرة مضاعفة.
- نبرهن من خلال سلوكنا في المدرسة على الجهد الذي بذله أهلنا في تربيتنا.

- من خلال المشاركة والمحاورة في قاعات الدرس نحصل على أفضل ما لدى أساتذتنا.

حاول دائماً أن تمنح ابنك فرصة ثانية..

- نسعى إلى جعل المدرسة مصدراً لكثير من المسرات.
- مثابرتنا في طلب العلم، هي هديتنا لبلادنا وأمتنا.
- نبحث عن الحقيقة بكل ما أوتينا من قوة.
- نكبر من خلال مدرستنا، وتكبر مدرستنا من خلالنا.

هذه المقولات والمفاهيم والشعارات، يمكن أن تكتب على لوحات وبأشكال جميلة، وتعلق في أماكن مختلفة في المدارس والبيوت، ويمكن طبعها على بعض الصحون والكؤوس في المنازل، كما يمكن طبعها على الحقائب والدفاتر المدرسية. وهذه الخطوة هي الخطوة الأولى، أما الخطوة الثانية والمهمة، فتتمثل في وجود أنشطة وبرامج ومشروعات يتم من خلالها تنفيذ هذه المفردات الجميلة.

٣ ـ طبيعة الطفل والتعامل معها:

إن كل المعارف التي تراكمت لدى البشرية حول الطفل ليست كافية إلى الدرجة التي تسمح لنا بالقول: إن خبرتنا بطبيعة الطفل وحاجاته، باتت كاملة، وليس علينا سوى التطبيق؛ كما أننا لا نستطيع أن نقول: إن أي جيل في أي زمان وفي أي مكان قد ربّى صغاره على نحو مثالي حتى نسير على خطاه. هذا

يدفعنا إلى القول: إن علينا ألا نكف عن التزود بالجديد من الثقافة التربوية، وأن نسعى باستمرار إلى اكتشاف طبيعة الطفل وحاجاته.

المطلوب من الجهد في تربية الأبناء، هو دائماً أكبر من المبذول

في الماضي كانت الأسر تهتم كثيراً بتربية أبناء، يكملون مسيرة عائلاتهم وقبائلهم، ويدافعون عنها، ويتمسكون بعاداتها وتقاليدها، وكانت المدارس تبذل معظم جهودها في حشو أدمغة الطلاب بأكبر قدر ممكن من المعلومات؛ لأنها تعتقد أن ذلك هو أفضل ما يمكن أن تفعله. هذا كله تغير اليوم، حيث بات التربويون يرون أن الطفل ينتمي إلى عالم مستقل متنوع وغني ومتغير، ومن ثم فإن التأثير في الأطفال، يحتاج إلى الدخول إلى عالمهم، وذلك الدخول يحتاج إلى تحديث معارفنا وإغناء ملاحظاتنا التربوية. وسأذكر هنا بعض الأفكار والمفاهيم الموجزة جداً والتي تشكل نموذجاً للثقافة التربوية التي نحث على اكتسابها ووعيها:

* لاينبغي للوالد أن يقلق إذا وجد لدى ابنه بعض التصرفات التي يعد وجودها عادياً لدى الأطفال في مثل سنه، فذاك من أعراض المرحلة العمرية التي يمر بها الصغير؛ وعلى سبيل المثال فإن ابن الخامسة كثيراً ما يكذب، وذلك لأن الخيال لديه يختلط بالحقيقة، ولأنه لا يعرف أن المرء حتى يكون صادقاً، فإن عليه أن يتأكد من وجود ما يخبر عنه في الواقع.

* شيء جيد أن نتحدث مع الآخرين حول أساليبهم في تربية أبنائهم وحول المشكلات التي يواجهونها أثناء تلك التربية؛ لأن ذلك يساعدنا كثيراً في وعي

طبيعة الأطفال وفي اكتشاف جدوى الطرق التي نتبعها في تنشئتهم. وكم أود أن يكون لدينا موقع عملاق على الإنترنت، يخصص لتبادل الخبرات التربوية بين الآباء والمعلمين.

لنمنح الأطفال فترة راحة من بعض ما ألزمناهم به مرة كل مدة، إذ إن هذا ما دام مهماً لدى الكبار فهو أيضاً مهم لدى الصغار.

* يتداول الناس الكثير من الأفكار ويتحدثون عن الكثير من الأساليب التربوية، كما أن الذين يفتون في الشأن التربوي باتوا كثيرين جداً، وهذا ينبغي أن يحملنا على شيء من الحذر، حيث إن التاريخ يخبرنا أن هناك دائماً من يتحدث بغير علم، كما يحدثنا أنه لم يخل أي زمان من الأفكار التربوية الخاطئة والمشوبة بالأوهام. لنحرص دائماً على الرجوع إلى الخبراء والمتخصصين، وهم موجودون اليوم والكتب الموثوقة أيضاً كثيرة.

* لايصح أن نعامل كل الأطفال بأسلوب تربوي واحد، لأن حاجاتهم التربوية ليست موحدة. والملاحظ أن معظم الآباء والأمهات يتبعون منهجاً واحداً في تربية أبنائهم بطريقة لا شعورية، مع أن بعض الأبناء يتسم بالعناد، وبعضهم مرهف الإحساس، كما أن بعضهم قد يمر بظروف تجعله في حاجة إلى المواساة، وبعضهم يحتاج إلى شيء من الحزم والصرامة.. وهذا التعامل يفسر - جزئياً - نجاح بعض الآباء في تربية أبنائهم وإخفاقهم في تربية البعض الآخر.

*الرضوض والكدمات النفسية، لا تظهر دائماً لدى الأبناء، حيث تعوَّد الناس في بلادنا أن يخفوا مشاعرهم ومصادر إزعاجهم، وهذا يجعل المربي في

حاجة إلى التدقيق في أحوال الذين يربيهم وإلى تحسس الأشياء التي يشكون منها، بالإضافة إلى إكثار الحديث معهم عن أمزجتهم، وما يمكن أن يكون مصدر قلق بالنسبة إليهم. وقد يكون من الملائم أن يسأل الأب الأمَّ عن أحوال البنات، وأن يسأل أبناءه الكبار عن أبنائه الصغار.

وجود نظام للحركة اليومية في المنزل يُشعر الطفل بالأمان

* مع إيماننا بأهمية تبادل الخبرات التربوية إلا أن علينا أن نحذر من تقديس بعض الأساليب التربوية بسبب احترامنا لمن يمارسها من الأقرباء والزملاء والأصدقاء.. فالأشخاص المحترمون والمحترمون جداً، قد لا يُوفَّقون لاتباع الأساليب التربوية التي ينبغي اتباعها؛ وقد شاهدنا الكثير من الفضلاء الذين يمكن أن نسجل العديد من الملاحظات على طريقة تعاملهم مع أبنائهم وطلابهم. الخطأ خطأ، والصواب صواب بقطع النظر عن فاعل هذا ومرتكب ذاك.

* كثيراً ما نختلف مع أبنائنا في تقدير أهمية العديد من الأشياء، وكثيراً ما تكون نظرتنا هي الأصح، لكن النجاح في التربية يتطلب في بعض الأحيان أن نوافق الصغير على نظرته، ونهتم بما يعده مهماً، فذاك أفضل من بذل الجهد في إقناعه بأمر لا يمكن الاقتناع به. الطفل يتعلق بلعبة، والبنت تتعلق بثوب. الطفل يتعلق بدراجة من نوع معين، والبنت تريد ساعة أو حلية من طراز محدد، أما نحن فننظر إلى كل ذلك نظرة استخفاف واستغراب. علينا أن نتراجع، ونوافق على رغباتهم، ونقول كما قالوا قديماً «فيلٌ ولو طار » !.

* ليس من الصواب أن يحدد الأب ملامح شخصية ابنه أو ملامح قدراته

العقلية من خلال اختبارات الذكاء أو الامتحانات في المدرسة، فتلك الامتحانات لا تعبر عن الحقيقة على نحو دقيق، كما أنها لا تعبر عن كل الحقائق الكامنة في شخصية الطفل، وسيكون من السيئ أن نُعرض عن الاهتمام بالطفل ومساندته حين تكون مؤشرات تلك الاختبارات سلبية، لأن كثيراً من الناجحين في الحياة ليسوا أذكياء، والعكس صحيح.

حين يتقبل الأب حقيقة أنه ليس مربياً مثالياً، فإنه يخفف الضغط عنه وعن ابنه.

*الأطفال يحتاجون إلى التدليل وإلى التعاطف، ويحتاجون مع ذلك إلى شيء آخر، هو سلطة ضابطة، ومعايير واضحة للسلوك، فالطفل في حاجة إلى من يوقفه عند حدود معينه، ومن يمنعه من ممارسة بعض الأشياء، كما أنه في حاجة إلى من يرشده إلى السلوكات الصحيحة. ويحذره من السلوكات السيئة، وهذه الحاجة ليست مصلحة فحسب، وإنما هي حاجة نفسية موضوعية، لكن من المهم في ذلك أن تكون معاييرنا مريحة ومحفزة وغير حرفية، وتراعي وضعية الطفل.

*لا يستغني أي معلم أو والد عن استخدام التأديب وإنزال العقوبة في بعض الأحيان، لكن لا بد لكل واحد منهما أن يقف على كل الحقائق قبل إنزال العقوبة، فقد يكون خطأ الطفل نتيجة خطأ من غيره أو تآمر عليه أو استفزاز له، وقد يكون ما نسب إليه من خطأ من قبيل الافتراء. وإذا لم نتحرَّ، وندقق، فقد نخطئ، ونترك في نفس الطفل ندوباً، تدوم طويلاً.

/|

٤ ـ القدوة الحسنة:

الأبوان بأخلاقهما ومداركهما واتجاهاتهما واهتمامهما... يشكلان عماد الأسرة، ويصنعان البيئة الأسرية على نحو جوهري، كما أن المعلمين والمعلمات في المدارس، يشكلون عماد البيئة المدرسية، ومن ثم فلا بد من أن نخص هؤلاء بكلام، يوضح بعض صفاتهم ومسؤولياتهم وأدوارهم. مع أن كل الكتاب موجه إليهم في الحقيقة، لكن التنظيم الفني للكتابة يقتضي مثل هذا، فأنا هنا أحاول جهدي أن أضع النقاط على الحروف، وأسعى إلى أعلى درجة ممكنة من الوضوح، وهذه بعض الملاحظات السريعة في هذا الشأن:

لا ينبغي أن نتوقع من الطفل استيعاب ما نلقنه إياه من أول مرة

*أن نكون قدوة حسنة لأولادنا، هذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه كل المربين في كل زمان ومكان؛ والله ـ تعالى ـ عصم الرسل من الوقوع في المعاصي، وزيّنهم بأحسن الصفات والأخلاق كي يكونوا منارة لأتباعهم في شؤونهم كافة؛ ونحن معاشر الآباء والمعلمين على هديهم نسير، وبهم نقتدي. إن من طبيعة الإنسان أن يصدِّق ما يراه، ويتأثره أكثر من تصديقه وتأثره ما يسمعه، ومن هنا فإن الأطفال، يتفاعلون في الحقيقة مع اتجاهات آبائهم وأمهاتهم ومع سلوكاتهم ووضعياتهم العامة، بقطع النظر عن المعلومات التربوية التي في حوزتهم أو الكلمات الجميلة التي يتحدثون فيها عن القيم والأخلاق، تماماً كما نفعل نحن الكبار تجاه (القضاة) حيث لانهتم بفقههم وخبرتهم في الفصل بين الخصوم، وإنما باستهدافهم للعدل، وعملهم على إحقاق الحق. وقد دلَّ بعض الدراسات على أن الأطفال يقلدون سلوك الكبار الذين يحترمونهم، ويهتمون بهم،

كما يقلدون سلوك الذين يعاملونهم بعطف ودفء وحنان؛ والواقع يشهد بهذا. فإذا أردنا للصغار أن يتشربوا المبادئ والقيم والاتجاهات التي نحملها، فينبغي أن نعاملهم بحب غير مشروط، كما ينبغي أن نكون في نظرهم أشخاصاً محترمين من خلال تطابق أفعالنا مع أقوالنا.

لا تندهش عند سماع أطفالك يتفوهون بنفس الألفاظ التي يسمعونها منك.

*كثير من الآباء يحملون عاطفة جياشة نحو أبنائهم، وينظرون إلى استقامتهم ومصالحهم باهتمام بالغ، وهذه المشاعر كثيراً ما تكون موجودة قبل الزواج، ولطالما سمعنا من يقول: سأكون خير قدوة لأبنائي، ومن يقول: سأربي أولادي أفضل تربية، ومن يقول: هناك أشياء كثيرة سأتركها عندما أتزوج، ويصبح عندي أولاد.. إنها نوايا حميدة ومقاصد حسنة؛ وأنا الآن أود أن أذكّر أولئك بأهمية الالتزام بما كانوا يقولونه، حيث إن منهم من كان يقول: إنه سيترك التدخين في المستقبل حتى لا يؤذي زوجته وأولاده، ومنهم من كان يقول سأداوم على صلاة الجماعة حتى أصحب أولادي معي إلى المسجد، ومنهم من كان يقول: سأترك السهر خارج المنزل، وأجلس مع أسرتي.. كلام كثير، لكن الذي يتم تنفيذه فعلاً قليل جداً، وهذا غير مستغرب، فالتربية الجيدة، تحتاج إلى استقامة المربين، والاستقامة تحتاج إلى مجاهدة، والمجاهدة تحتاج إلى عزيمة ومثابرة، وهذا ما نفقده في كثير من الأحيان!.

٥ ـ المربي الواقعي:

الواقعية سمة من سمات المربي الجيد، سواء أكان أباً أو معلماً، ولا نعني بالواقعية الرضوخ للواقع السيئ والاستسلام له، وإنما نعني بها أخذ المعطيات الناجزة بعين الاعتبار، وعدم القفز عليها. إن ثوابتنا معروفة، وإن ما هو واجب، وما هو مباح ومحرم واضح ـ بحمد الله ـ في كل مجالات الحياة، والذي سيظل مجال نزاع وخلاف، أمور هي من قبيل اللائق وغير اللائق، والمناسب وغير المناسب، وما هو من قبيل الخطر والآمن في الحال أو المآل.. وهذه الأمور تتغير بتغير الأزمنة، وتختلف باختلاف الأمكنة، وينبغي أن نكون متسامحين فيها. وهذه بعض الإشارات في واقعية المربي:

لكل مرحلة عمرية تصرفات تناسبها فإذا أردنا للصغار أن يتصرفوا وفق مرحلتهم، فعلينا أن نتصرف وفق مراحلنا.

*من واقعية المربي ألا يحاول أن يُفهم ابنه أنه كان مثالياً حين كان في سنه، أو أنه كان يقوم بالكثير من الأعمال الجيدة أو البطولية، حيث إن كثيراً من الأخطاء والتقصيرات التي يقع فيها أطفال اليوم وقعنا فيها حين كنا صغاراً، وقد يقع بعض الصغار في أخطاء لم يقع فيها آباؤهم، لكنهم وقعوا فيما يماثلها، أو يكبرها. بعض المربين يتناسى هذا، ويصبح شغله الشاغل بيان حسناته وحسنات جيله، والتحدث عن المواقف الفذة التي كانوا يقفونها، بالإضافة إلى التحدث عن سلبيات أبنائه وأصدقائهم وزملائهم، مع أن من المتفق عليه أن لدى كل جيل شيئاً من الإيجابيات وشيئاً من السلبيات التي قد لا تكون موجودة لدى الأجيال الأخرى.

*يجب أن نعلّم الطفل قوانين الحياة، ومن قوانينها وجود الربح والخسارة، حيث لا يمكن لأيٍ كان أن يربح دائماً دون أن يعرف معنى الغبن في موقف من المواقف أو صفقة من الصفقات، كما أن الخاسرين لا يخسرون بصورة مستمرة. ونحن نعرف هذه الحقيقة، ولكن عند الممارسة يكون الأمر مختلفاً، فكم من أب أقام الدنيا، ولم يقعدها لأن ابنه رسب في مادة من المواد، أو حصل على مجموع لا يؤهله لدخول كلية معينة، أو كان يتوقع له أن يكون الأول بين زملائه، فكان ترتيبه الرابع.. إن احتجاج الأب على ذلك يعني أنه ليس واقعياً، ولا منسجماً مع سنة الله ـ تعالى ـ في خلقه. إن الذي علينا أن نؤكد عليه باستمرار، هو أنه لا بد للأبناء من أن يحرزوا قدراً من النجاح والتفوق؛ لأن هذا يظل ممكناً، لكن ليس عليهم أن يصلوا إلى الكمال الذي نتخيله. إن آلية الانضباط الشخصي لدى الأطفال غير ناضجة ولا مكتملة، كما أن قدرتهم على التمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر محدودة. ولهذا فإننا مهما بذلنا من جهد في تربية الطفل، فليس لنا أن نتوقع أن يكون دائم الاستقامة متعقلاً ملتزماً، وقد ورد في بعض الآثار ما يشير إلى هذا على نحو ما نجده في قوله ﷺ : «**سبعة يظلهم الله في ظله**... » حيث ذكر من بين السبعة شاباً نشأ في عبادة الله ـ تعالى ـ [1] وورد أيضاً عنه أنه قال: «**إن الله ليعجب لشاب ليس له صبوة** » [2] ولهذا فلا بد من استيعاب طيش الأطفال والمراهقين، والتعامل مع فلتاتهم بتسامح وتفهم.

يجب أن نعرف متى يكون الصمت هو أفضل شيء نفعله..

---

(1) رواه الشيخان.

(2) رواه أحمد.

*من الواقعية أن نتقبل الطفل كما هو من غير شروط ولا مواصفات خاصة، وهذا هو اللائق بالمؤمن الموحد الذي ينظر إلى أبنائه على أنهم نعمة وهدية من الله ـ تعالى ـ والموقف منها هو الحمد والشكر والثناء على المنعم، وليس التسخط والشكوى. إن لكل طفل من الأطفال إمكانات ورغبات وميولاً فطرية خاصة، وليس من الصواب أن نطلب منه أن يتجاوز إمكاناته، ويكبت رغباته، ولا أن ينسلخ بالكلية عن ميوله، لأننا نحن الكبار، لم ولن نفعل ذلك، فكيف نطلبه من الصغار؟! هذا طفل يحب شكلاً معيناً من الثياب، أو يحب لوناً معيناً من ألوان الطعام، لكننا نرى أن ذلك الطعام غير صحي، أو غيره أنفع منه، ونرى أن تلك الثياب غير ملائمة، فينشأ صراع طويل عريض داخل الأسرة، حول ما أشرنا إليه، ويحدث النفور والتباعد. طبعاً ليس مطلوباً منا أن نوافق الصغار على كل ما يفعلونه، لكن أيضاً ليس من المناسب أن نحملهم على رغباتنا، ونتجاهل رغباتهم؛ إن الذي أقوله دائماً: لنحارب دون الأصل والجوهر والمضمون، ولنظهر التصلب تجاه الالتزام بهذه الأمور، ولنتساهل تجاه الأشكال والرغبات المباحة والأمور الطارئة والفرعية، وإن كانت غير مستساغة في ذوق أهل عصرنا.

إن أفضل طريقة للدفاع عن الأخلاق هي أن نتمثلها في سلوكنا اليومي..

٦ ـ المربي الإيجابي:

نحن في أسرنا وفي مدارسنا في أمس الحاجة إلى نشر روح التفاؤل والعمل والتطلع إلى المستقبل، حيث يشعر كثير من المربين باليأس والانكسار بسبب سوء الأحوال التي يعيش فيها كثير من المسلمين اليوم، إنه يتبين لنا يوماً بعد يوم

أن السلبية والتشاؤم، لا يحلان أي مشكلة من المشكلات، وإنما يبعثان على القعود والتهميش، على حين أن التفاؤل والإيجابية، يدفعان دفعاً في طريق العمل واكتشاف الإمكانات الكامنة.

إن أول سمة من سمات المربي الإيجابي، هي امتلاك القدرة على السماع: سماع مقترحات الصغار وأحاديثهم عن أحلامهم وهمومهم وآلامهم.. إن كثيرين منا لا يجدون اليوم الطاقة الروحية للقيام بذلك، وبعضنا يزعم أنه لا يجد الوقت للجلوس مع أولاده، ربع ساعة في اليوم، والنتيجة هي انعدام التواصل الحيوي المطلوب؛ وسوف نشير إلى هذه المسألة بتوسع فيما بعد. المهم أن ندرك بعمق أن كل الأشياء وكل الأحداث، يمكن أن تقرأ بطرق مختلفة، وكما يقولون: يمكن أن نركز على النصف الملآن من الكأس فنستبشر، ويمكن أن نركز على النصف الفارغ، فنيأس. ولنا مصلحة كبرى في أن نكون دائماً متفائلين، وأن نزرع التفاؤل أيضاً في بيوتنا ومدارسنا.

اختر لابنك قدوة من عظماء الرجال، وأطلعه على سيرته، وساعده على اكتشاف خصائصه ومزاياه..

من معاني الإيجابية التقليل من الشكوى والتقليل من اللوم؛ ولنا في نبينا ﷺ أسوة وقدوة؛ حيث حدثنا أنس ﷺ قائلاً: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي في شيء فعلته لم فعلتَه؟ ولا شيء تركتُه لم تركتَه »[1] وما زال نبلاء الناس في كل زمان ومكان يتخلقون بهذا الخلق العظيم، لكن من الذي يستطيع

(1) أخرجه الشيخان.

غير المعصوم ﷺ أن يداوم على ذلك عشر سنين؟! اللوم سهل لكنه لا يأتي بفائدة تذكر. لا شك أن من الضروري أن يعرف الطفل أنه أخطأ، لكن من المهم أيضاً ألا نجعل الجو العام في البيت والمدرسة ملوثاً بالتأنيب المستمر، كما أن المهم البحث عن الحلول. طفل يرسب في مادة، أو يخطئ في التعامل مع زميل، أو يقترض مبلغاً كبيراً من المال، أو يكلم عمه بأسلوب غير لائق... إن هذا الطفل يحتاج إلى أن نوضح له لماذا أخطأ وما الذي كان عليه أن يفعله حتى لا يقع في الخطأ، ثم يحتاج إلى من يقف إلى جواره بقوة كي يتجاوز الآثار التي ترتبت على الخطأ الذي وقع فيه؛ وليس كالأبوين من يستطيع فعل ذلك.

لندرب الطفل منذ سن الثالثة على القيام ببعض الأعمال المنزلية، وينبغي أن يتم ذلك في إطار مبدأ: مساعدة الآخرين هو الشيء الصحيح الذي ينبغي أن نقوم به.

شيء آخر يستحق الاهتمام على صعيد الإيجابية، هو عدم جعل المنزل ساحة مفتوحة لنقد السلطات ورجالات الحكومة، ونقد المدرسين وموظفي البلديات.. كما يجري الآن في كثير من البيوت! إن هذه الوضعية تحمِّل الصغار هموماً لا يقوون على حملها، وتنتزع منهم براءتهم ومسرات طفولتهم في وقت مبكر، كما أنها تولد لديهم الإحباط والشعور بانسداد الآفاق. إذا كان الأبوان لا يثقان بجهة أو شخص أو هيئة.. فليس من الضروري أن ينقلا ذلك إلى أبنائهما، فقد تتغير الأمور، وتتبدل الأحوال، ويقولان لأبنائهما شيئاً معاكساً، فيحدث اضطراب هما في غنى عنه. والعجيب أن كثيراً من النقد السائد في البيوت، يتوجه إلى مسائل كبرى وقضايا معقدة وذات امتدادات واسعة، وبالتالي فإن ما

يقال يتحول إلى نوع من اللغو الضار، كما أن الوعي ينصرف بسبب الانشغال بذلك عن الاهتمام بالكثير من الأمور الجوهرية.

بعض الآباء يكثر من كلمة (مستحيل) وكلمة (غير ممكن) وكلمات: (بعيد) و (عسير) و (صعب) وغيرها.. والمشكل أن هذه الكلمات، لا تستند إلى تمحيص للواقع أو رؤية دقيقة للأشياء، بل تعبر عن معلومات أولية أوانطباعات شخصية؛ وتأثير هذه الكلمات في تشكيل عقليات الصغار وأمزجتهم أكبر مما نظن، وهو تأثير سلبي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. لنتحدث أمام الأطفال عن آفاق الممكن وعن الفرص السانحة والإمكانات الكامنة، ولا مانع من أن نقول: إن هناك مشاق وصعوبات، وأزمات تعترض سبيلنا، لكن لنوضح أيضاً أن وجود المشكلات هو شيء طبيعي، ومفيد لأنه يصلب روح المقاومة لدينا، كما يشحذ هممنا وعزائمنا. إن الإيجابية تخفف التوتر، وتزيد في الهدوء والسكينة، وهذا مطلب عام ومهم.

> **ليس من الملائم أن تلبس الأم أو تبدو وكأنها قريبة مما عليه ابنتها المراهقة**

٧ ـ سمات البيئة الملتزمة:

العاقل يحاول أن يكون منسجماً في كل أنشطته مع رؤيته العامة للحياة، ومع الأهداف الكبرى التي يسعى إلى تحقيقها؛ ونحن المسلمين نعتقد أن ما نبذله من جهد في تربية أبنائنا، وما ننفقه من مال في سبيل إسعادهم وتعليمهم، هو نوع من أنواع التقرب إلى الله ـ تعالى ـ ولا حاجة بنا هنا إلى ذكر النصوص التي

تشير إلى ذلك، لكن أقول: إن الذي يريد التقرب إلى الله ـ تعالى ـ من خلال تربية أبنائه، يرغب ولا شك في تنشئة أبناء صالحين، يعبدون الله ـ سبحانه ـ ويعملون الصالحات، وهذا يتطلب بالضرورة توفير بيئة تساعد على ذلك. وإذا وصلنا إلى هذا الحد من القول، فإن الأمر سيكون واضحاً حيث إن الطفل حتى يصبح شاباً ملتزماً، يحتاج إلى بيئة ملتزمة، ومواصفات البيئة الملتزمة بسيطة ومعروفة، يمكن أن نشير إليها بإيجاز شديد على النحو الآتي:

* في البيئة الملتزمة يحرص الكبار على أداء الفرائض والواجبات، كما يحرصون على ترك المنكرات والمحرمات.

* تشاهد في البيئة الملتزمة حرصاً على تطبيق السنة والابتعاد عن البدعة.

* يتواصى الناس فيها بالخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

* تحسّ في البيئة الملتزمة بوجود اجتهاد واضح من أجل الحصول على كل ما يرضي الله؛ تعالى.

الأب المتفائل يجذب أطفاله إليه، على حين يبعدهم الأب المتشائم عنه.

* يقدر الناس فيها النوايا الطيبة والخيرة.

* من يقع من الناس في البيئة الملتزمة في محظور شرعي، يعترف به، ويبدي الاستعداد للرجوع عنه.

* فيها يستحي العاصي من معصيته، ويكتمها، ويحترم أهل الخير والفضل.

إن الأسرة والمدرسة، هما المرشحتان لتوفير هذه البيئة، وذلك بما تملكانه من وعي واهتمام بالصغار، وبما تملكانه من عطف وحنان عليهم. ولا أريد أن أتحدث الآن عن أوضاع أسرنا ومدارسنا، فكثير من شؤونها معروف للقاصي والداني، لكن أود أن أنبه إلى أن المعرفة بالحلال والحرام ـ تحديداً ـ تتراجع لدى كثير من الناشئة، بسبب انصراف اهتمام كثير منهم إلى تعلم اللغات الأجنبية والحاسوب والعديد من المهارات الجديدة، وهذا حين يتعمق أكثر فأكثر، يؤدي إلى ترهل شعور أبنائنا تجاه المعاصي والمنكرات وشتى أنواع الانحرافات، ولا بد من تدارك هذا الأمر على وجه السرعة.

٨ ـ تخفيف التوتر:

ليس عصرنا هو عصر السرعة وعصر الإدارة والتنظيم والاتصال فحسب، ولكنه أيضاً عصر الضجيج والتوتر والضغوط. ونحن نفترض أن تقوم الأسرة ـ وكذلك المدرسة ـ بمساعدة الصغار على مكافحة أوبئة العصر والنجاة من تياراته الجارفة، وإن كثيراً من الأسر ينجح فعلاً في ذلك. البيئة الجيدة بيئة هادئة آمنة ومستقرة، وهذا لا يتوفر اليوم إلا عن طريق الوعي والعمل والمجاهدة؛ وهذه بعض الأفكار في ذلك:

على المربي ان يتذكر دائماً أنه الطرف الناضج..

* الآباء والأمهات والمعلمون، هم المسؤولون عن تخفيف التوتر والتنافس والصدام داخل الأسر والمدارس، وحتى يتمكنوا من ذلك فينبغي أن يتخلصوا هم

أولاً من التوتر، وذلك عن طريق نشدان الراحة قدر الإمكان، فالتعب يحد من قدرة الآباء والمعلمين على التحمل، والآباء المجهَدون، يميلون في معظم الأحيان إلى الحذر والتحفظ والتشدد والمشاكسة، لأنهم في وضع مزاجي غير جيد. ليحاول الإنسان دائماً أن يتجنب الأعمال العضلية الشاقة، وإذا لم يتمكن، فليأخذ ما يحتاجه من الراحة والاستجمام والاسترخاء.

* شيء من التوتر، ينشأ في المنزل بسبب ما يبديه الأب أو الأم من الحرص على أن يحقق من خلال أبنائه الأحلامَ التي عجز عن تحقيقها في طفولته وشبابه، هذا رجل كان يتمنى أن يكون مهندساً، لكن الظروف لم تساعده على ذلك، فصار يلحّ على ابنه أن يدرس الهندسة، مع أن الولد، لا يحب دراسة الهندسة. وهذه أم تصر على أن تكون ابنتها معلمة، لأنها كانت تتمنى أن تكون معلمة، لكن لم تتمكن من ذلك، والبنت ترفض ذلك، وترغب في أن تكون طبيبة وهكذا ينشأ التوتر والخصام، والذي قد يدوم سنوات! وإذا أردنا أن نسمي الأشياء بأسمائها، فلا بد من أن نقول: إن هذين الأبوين أنانيان؛ ولا يصح أبداً أن يُكره أي ابن على دراسة علم لا يحبه، وإذا أجبر على ذلك، فإنه لن يتفوق، ولن يبدع، وسيظل يشعر أن أباه كسر إرادته في يوم من الأيام، ومارس معه نوعاً من التعسف والاستبداد!.

تصحيح الصغار لأخطائهم يحتاج إلى وقت، ويجب أن نمنحهم ذلك الوقت..

* كثير من صخب المنزل ينشأ من التنافس بين الإخوة؛ ومن المألوف أن يحاول الابن الأكبر السيطرة على إخوته الصغار، وأن يحاول الذكور السيطرة على الإناث؛ ومن المألوف كذلك التنازع على استخدام بعض الأجهزة في المنزل، والتنافس على تقاسم الغرف والأماكن، لكن كل هذا يهون أمام شعور بعضهم بالظلم أو الإهانة من قبل الأهل، على حين يتوجه الاهتمام والتدليل إلى البعض الآخر.

لا بد للأبوين من العمل على إزالة أسباب النزاع بين الإخوة من خلال النصح والتوجيه والعدل في توزيع الاهتمام، والعمل على قسمة الأماكن والأشياء بطريقة مفهومة وملائمة. إن الدور الأساسي للأخ الأكبر هو مساعدة الأب في خدمة الأسرة، وليس السيطرة على الصغار، كما أن دور الصبيان هو رحمة البنات وتدليلهن وحمايتهن، وليس تأديبهن وفرض الحصار عليهنّ. إن قيام الأسرة على الأسس الصحيحة، وإن الجو الأخلاقي الذي يصنعه الأبوان في المنزل، هو الضمانة الأساسية لتحقيق الهدوء والسلام والتكاتف داخل الأسرة، وإذا لم يقوما بذلك، فقد لا تجدي أي وسيلة أخرى.

* في بعض الأحيان يكون الأبوان هما السبب في إيجاد التوتر والانقسام داخل الأسرة، وذلك بسبب الحرب الباردة التي يخوضها كل منهما ضد الآخر، والتي قد تستمر ثلاثين أو أربعين سنة، إنها مثل حرب داحس والغبراء، لكن من غير سيوف ولا دماء، لكنها تخلف جروحاً وكدمات نفسية وشعورية وعقلية بالغة الخطورة. المشكل في هذا الشأن، هو زج الأبناء في تلك الحرب وتقسيمهم

إلى فريقين متناحرين: فريق يقف إلى جانب الأب، وفريق يقف إلى جانب الأم. الأب يضغط على الأم عادة من خلال الذكور، والأم تضغط على الأب من خلال البنات، وهكذا يصبح الأولاد أدوات صراع بين الأبوين، والنتيجة معروفة، هي تهشم أدوات القتال وتكسرها!.

ليس من الصواب أن يختار الأب لابنه مستقبله وتخصصه الدراسي، ولكنه يرشده، ويشجعه ويدعم اختياره.

إن من المهم دائماً أن تظل الخلافات بين الأبوين سرية وفي أضيق نطاق، ومن المهم أن يبرزا للأبناء دائماً أوجه الاتفاق والوئام والتفاهم، وهذا ليس بالأمر السهل، لكن مع الوعي والصبر والمجاهدة، يتحقق الكثير الكثير. إن علينا أن ندرك أن علاقة الأبوين ببعضها، لا تقل أهمية عن علاقة كل منهما بالطفل؛ وذلك لأن الطفل يتعلم من أبويه كيف ينبغي أن تكون علاقته بإخوته وزملائه وأصدقائه..

* ينشأ الكثير من التوتر والهيجان داخل الأسرة بسبب حدة مزاج بعض الأبناء وسوء ردود أفعالهم على توجيهات الأبوين ومبادرتهما. وكثيراً ما سمعنا من الآباء والأمهات مرَّ الشكوى من عدم استخدام الأبناء المراهقين الألفاظ المهذبة والملائمة عند مخاطبة الأبوين، وهذا لا شك لا يعبر عن شيء جيد، لكن الخبر السار.فيه، هو أنه لا يعبر عن شيء دائم، أو عن خلق مستمر.

اصحب الأبناء إلى المسجد، ودرِّبهم على المشاركة في الأعمال التطوعية والإغاثية..

إن على الأب ـ وكذلك الأم ـ أن يكون دقيقاً في التعامل مع الأبناء والبنات والمراهقين والمراهقات، فقد يسمع مالا يرضيه بسبب لفظ قاسٍ وجَّهه لابنه أو بسبب تهديد، أو بسبب حرمانه من شيء يعدّه حقاً بدهياً له. ومن جهة أخرى فإن علينا أن ننظر إلى ما يصدر عن المراهق من ألفاظ لا تتلاءم مع مقام الأبوة والأمومة على أنه بحث عن الاستقلال من جهة، كما أنه محاولة اكتشاف لوضع الشباب والرجولة الذي سيكون عليه في المستقبل من جهة ثانية. المراهق يتصرف في بعض الأحيان كما يتصرف الطفل، لكنه في كل الأحيان يريد منا أن نتعامل معه على أنه رجل! إن استيعابنا لكل هذا سوف يدفعنا إلى الهدوء في ردود أفعالنا على الإساءة التي قد نجدها من أولئك الذين نربيهم.

* من حق الطفل أن يشعر بأن بيته هو واحة أمان وأمن واستقرار وسكينة؛ والأبوان هما المسؤولان عن تحقيق ذلك. ودور الأب في هذه المسألة أكبر من دور الأم. الأب مطالب بأن ينشئ جداراً قوياً، يصدّ الرياح والعواصف التي تثور خارج المنزل، إذ من المألوف أن يتشاجر الأب ـ إذا كان موظفاً ـ مع مديره أو بعض زملائه، أو يفقد عمله، أو يخفق في مشروع يتحمل مسؤوليته، كما أن من المألوف أن يختلف الأب مع عملائه أو شركائه، أو تتراكم عليه الديون.. كل هذا كثير الوقوع في كل زمان ومكان، وإن مهمة الأب أن يبعد تأثيرات كل ذلك عن بيته.

الأطفال حين يرون أباهم يشكو أو يبكي، أو يقف في موقف المحبط والمهزوم ـ تنتابهم حالة شديدة من الهلع والخوف وفقدان الثقة، ومن الواجب تجنيبهم كل ذلك. وعلى الأم مساعدة الأب في هذا الأمر.

أشعِرْ الطفل أن من الطبيعي أن يمر عليه بعض الأيام العصيبة، فنحن في دار ابتلاء..

٩ ـ بيئة منظمة:

البيئة حتى تكون جيدة، فيجب أن تكون منظمة، بمعنى أن فيها بعض القوانين والأعراف التي توجه سلوك الصغار، وتضع الحدود لممارسة حرياتهم داخل المنزل. صلاة الفجر هي بداية النشاط اليومي للأسرة ـ ما عدا من هم دون سن المدرسة طبعاً ـ والأسرة المسلمة تحرص حرصاً شديداً على هذا الأمر، لأن صلاة الفجر في وقتها تشكل أحد الفوارق الأساسية بين الأسرة الملتزمة والأسرة غير الملتزمة. ومن المهم أن يكون في المنزل توقيت لنهاية اليوم، ففي ساعة محددة، يتم إطفاء الأنوار، ويخلد الجميع إلى الراحة. في المنزل أيضاً وقت لتناول وجبة الغداء والعشاء حتى يحاول كل من تسمح له ظروفه وأوقات عمله من أبناء الأسرة الحضور للجلوس مع أسرته، ولو على وجبة واحدة، وهذا ضروري، لأنه يترك أجمل الآثار في النفوس، حيث يشعر الجميع بالسعادة والتضامن.

ولا بد أن يشمل النظام مسألة العبادة، فإذا أذّن المؤذن ذهب الأب وأبناؤه ـ الذين في سن المدرسة ـ إلى المسجد، وقامت الأم والبنات أيضاً إلى الصلاة. وإن عدم الحرص على الصلاة في أول الوقت، قد يجعل من في البيت ينشغلون عنها إلى أن يفوت وقتها.

إذا اقترض المرء من ابنه شيئاً فلا بد أن يرده إليه.

في البيت المنظم توضع الأشياء في مكانها الصحيح، حتى لا تسود الفوضى، ويصبح المشهد مقززاً، كما أن كل واحد من أفراد الأسرة، يعرف واجبه في قضاء حاجات المنزل وفي التنظيف والرعاية. ومن المهم دائماً أن يطبق النظام على الجميع، وإلا تحول إلى أداة لتوليد الشعور بالظلم. بعض الآباء والأمهات يتهاونون في هذا الأمر، فينصاع بعض الأبناء للنظام، وفي أفواههم مرارة الغبن والظلم، ويتحول بعضهم إلى طغاة، يتمادون كما شاؤوا دون أن يوقفهم شيء، وهذا ما لا يصح القبول به في أي حال من الأحوال. وينبغي أن يكون في المنزل أيضاً نظام للعقوبة، فمن يتأخر في واجباته الأسرية، أو يقع في شيء خاطئ على نحو واضح، فإن عليه أن يدفع ثمن ذلك، وعلى سبيل المثال فإن البنت التي تقوم بواجبها بغسل الصحون في أحد أيام الأسبوع، يمكن أن تكلف بيوم إضافي إذا قصرت بواجبها. والولد الذي يخرج من المنزل بغير إذن أحد والديه، يمكن أن يحرم من المصروف الأسبوعي، وهكذا.. لكن أود أن أشير إلى أن النظام مع ما له من أهمية، ينبغي أن لا يرسخ معاني الرتابة في نفوس الأبناء، لأن النظام الدقيق والصارم، يقتل روح الإبداع والمبادرة والاختيار، ولهذا فإن النظام الجيد هو نظام يراعي اختلاف أحوال من بداخل المنزل، فطعام الغداء - مثلاً - يمكن أن يكون بين الساعة الثانية والثانية والنصف، ووقت النوم يمكن أن يكون بين التاسعة والعاشرة، حتى العقوبات التي تقرر على الصغار في سياق تأديبهم، ينبغي أن يكون فيها مجال للاختيار، فيقال للطفل إذا تأخر عن الذهاب للمدرسة - مثلاً - عليك أن تختار بين أن يخصم من

مصروفك الأسبوعي كذا وكذا وبين أن تنظف سيارة الأسرة أو حديقة المنزل، وإما أن تذهب إلى البقالة، وتحضر حاجات الأسرة لمدة أسبوعين..

علّم الطفل الفرق بين القول: أنا أولاً والقول: هذا دوري

١٠ ـ بيئة تشجع الإبداع:

نحن في حاجة إلى بيئات تشجع الصغار على الإبداع، وتحتفل بالنجاح، وتقدر الجهد الذي بُذل ولو كانت ثماره ضئيلة، وذلك بسبب الضعف الذي تعاني منه الأمة في مختلف مجالات الحياة. ومن الثابت أن الأطفال يولدون وهم يتمتعون بإمكانات كبيرة، تؤهلهم لأن ينجزوا الكثير من الأعمال العظيمة، لكن أنماط التربية والتعليم السائدة في كثير من مدارسنا وبيوتنا، تئد تلك الإمكانات، أو توهنها. وعلينا منذ اليوم أن نحاول استدراك ما يمكن استدراكه من ذلك. وهذا وصف مقارن للبيئة التي تشجع على الإبداع والنجاح والبيئة التي تدفع في اتجاه التقليد والخمول والهشاشة:

البيئة المشجّعة	البيئة المحبطة
ـ إن فكرتك مدهشة.	من أين لك بهذه الفكرة السخيفة؟
ـ حدثني كثيراً عن تلك الفكرة.	لا فائدة من كثرة الشرح.
ـ كيف توصلت إلى هذه النتيجة.	من البعيد أن تصل إلى رأي جيد

ـ أنا واثق أنك إذا حاولت فلن تقع في الخطأ مرة ثانية.	لماذا لا تفكر قبل أن تتكلم؟
ـ إن لديك جرأة كبيرة.	لا تفعل ما هو أكبر من سنك.
ـ البدائل أمامك قليلة.	ليس الأمر سهلاً كما تعتقد.
ـ جرِّب ما تقول أولاً، وإذا احتجت إلى مساعدة، فأخبرني.	هل هذا كل ما تستطيع قوله أو عمله؟.
ـ تحتاج إلى أن تفكر بعمق.	أخبرتك مراراً، ولكنك لا تفهم.

لا ينبغي أن يكون هناك فرق شاسع بين معاملة الطفل داخل المنزل ومعاملته على الملأ.

نحن حتى نضع الصغار على عتبة الإبداع والابتكار نحتاج إلى أن نكون كرماء في فهمهم وتقديرهم؛ وقد أظهر بعض البحوث والدراسات أن هناك قيمة كبرى لتوقعات الكبار لما يمكن أن يكون عليه الصغار في المستقبل، فإذا كانت تلك التوقعات متفائلة ومستبشرة، فإنها تدفع الأطفال في اتجاه التفكير والتعلم والعمل، كما أنها تدفعهم في اتجاه اليأس والخمول إذا كانت شحيحة ومتشائمة.

لا تكثر من قول أنت صغير جداً على هذا الأمر

والآن هذه مقارنة سريعة لخصائص الكبار الذين يساعدون الأطفال على الابتكار، وخصائص الكبار الذين يدفعونهم في طريق الإحباط.

خصائص الكبار في البيئة المعينة على الإبداع	خصائص الكبار في البيئة غير المعينة على الإبداع
ـ يملكون القدرة على سماع الطفل.	لا يعتقدون أن في الاستماع إلى الأطفال أي فائدة.
ـ يسألون الأطفال أسئلة مفتوحة[1]	يسألون الأطفال أسئلة مغلقة.
ـ يظنون أن لدى الأطفال المقدرة على الإنجاز الجيد.	يتصفون بالتعالي.
ـ يشجعون على الاجتهاد.	يفضلون التقليد.
ـ يقدِّرون المحاولة والجهد.	ينظرون إلى الثمار والنتائج.
ـ يشجعون اللعب والنشاط.	يحبون الطفل الهادئ المستكين.
ـ يقدمون المساعدة.	لا يبالون بالصغار.
ـ يقدمون الحلول والأفكار الإيجابية.	يلومون وينقدون.

(1) السؤال المفتوح هو الذي لا يكتفى في جوابه بـ (نعم) أو (لا) وعكسه السؤال المغلق.

شجع روح الدعابة والمرح لدى الطفل

هذه الملاحظات التي قدمتها حول البيئة التربوية الجيدة تتصل بالبيئة التربوية في البيوت أولاً، وبالبيئة التربوية في المدارس ثانياً، وسوف نرى المزيد منها عند الحديث عن الأساليب والأدوات التربوية بحول الله وطوله.

نقاط للتذكر

- ✓ لا يقل تأثير البيئة في صياغة شخصية الطفل عن تأثير المورثات الجينية، وللبيئة المنزلية النصيب الأكبر من ذلك.
- ✓ نحن في حاجة إلى الوعي بخصائص البيئة التربوية الجيدة من خلال إدراك المسافة بين ما هو سائد وبين المطلوب.
- ✓ الإيمان بالله - تعالى - يمنح جهودنا التربوية المعنى والهدف. أما الالتزام، فإنه يساعد على انسجام سلوك المربي مع ما يقوله.
- ✓ كل أسرة تحتاج إلى بلورة دستورها التربوي، والذي يعني إيمان الأسرة بمجموعة من المبادئ والمقولات التي توضح التوجه العام لديها.
- ✓ الطفل ينتمي إلى عالم مستقل ومتنوع، والتأثير فيه يحتاج إلى دخول ذلك العالم والوقوف على أسراره.
- ✓ الأطفال يحتاجون إلى سلطة ضابطة مثل حاجتهم إلى التدليل والتعاطف.
- ✓ التربية بالاقتداء، شديدة الفاعلية، لأن الأطفال يتفاعلون مع اتجاهات من يربونهم وسلوكاتهم، وليس مع كلامهم ومعلوماتهم.
- ✓ على المربي أن يراعي ما يستحسنه الأطفال في زمانه، وأن يصغي إلى متطلبات الواقع، ما دام كل ذلك في إطار المباح والمشروع.

- ✓ علينا أن نزرع في بيوتنا روح التفاؤل مع الاستبشار والأمل.
- ✓ لا يصح أن نكثر من نقد الآخرين أمام الأطفال فننتزع منهم براءة الطفولة في وقت مبكر.
- ✓ لا تكون البيئة جيدة إلا إذا كانت ملتزمة بتعاليم الإسلام وآدابه.
- ✓ إذا أراد الآباء والأمهات تخفيف التوتر داخل الأسرة، فإن عليهم هم أن يتخلصوا من التوتر أولاً.
- ✓ لا يجوز استخدام الأطفال أدوات للصراع بين الأبوين.
- ✓ النظام أساس في البيئة الجيدة، لأن البديل هو الفوضى، والتي تحرم الأسرة من كثير من الخصائص والمميزات المهمة.
- ✓ إذا أردنا للأطفال أن يبدعوا، فعلينا أن نشجعهم، ونقلل من لومهم وعتابهم.
- ✓ للتوقعات تأثير كبير في دفع الأطفال في اتجاه الإنجازات الكبيرة، ولذا فإن علينا أن نرفع سقف توقعاتنا منهم.

٢ـ أساليب وأدوات تربوية

من المؤكد أنني لن أفلح في الفصل التام بين الأساليب والبيئة التربوية وبين المفاهيم والمضامين والقيم التي سنجعلها جزءاً من عقلية الناشئة، وذلك بسبب التداخل الشديد بينها لكن ـ كما قالوا ـ ما لا يدرك كله لا يترك جله. ولعل من المهم أن أشير هنا إلى أن هناك مشتركاً إنسانياً ضخماً على مستوى المضامين التربوية، أي على مستوى ما يجب أن نقوله للأطفال. وتاريخنا التربوي الإسلامي ثري جداً بالأفكار والمقولات التي تتصل بالمحتوى الفكري والقيمي الذي يجب إيصاله للصغار. أما الأساليب والوسائل، فنحن نعاني في التعامل معها على مستويين:

الأول: عدم اهتمام جمهور واسع من الآباء والأمهات بالتعرف عليها والقراءة حولها ظناً منهم أن السبل التي سلكها أهلوهم في تربيتهم، ستظل صالحة لأن يسلكوها مع أبنائهم وبناتهم؛ وكأن الآباء والأجداد قد قرؤوا ودرسوا وبحثوا حتى حصلوا على أفضل الأساليب التربوية، ثم قدموها لنا على طبق من فضة!.

لا تجعل ابنك يشعر أنك تراقبه طول الوقت

الثاني: معرفة المربين من آباء ومعلمين للأسلوب التربوي الذي يناسب طفلاً دون طفل، ومراهقاً دون مراهق، إذ إن طبائع الأطفال وأمزجتهم والظروف المختلفة التي يمرون بها، توجب علينا أن نبحث عن الطرق والوسائل التي تتلاءم معها، فما قد يصلح مع طفل قد لا يصلح مع طفل آخر؛

وهذا يعني أن على كل مربٍ أن يجتهد ويقدِّر الموقف حسب خبرته الشخصية؛ وهنا يحدث الكثير من الارتباك والكثير من سوء الإدراك. ومهما يكن من أمر، فليس أمامنا سوى أن نبذل كل ما في وسعنا من أجل نشر الثقافة التربوية الصحيحة بين الناس، وأن نسلط المزيد من الأضواء على كيفية استخدام الأساليب التربوية. وأعتقد أن استيفاء الحديث عن الطرق التربوية سيكون صعباً جداً في مثل هذا الكتاب، ومن ثم فسأحاول التحدث عن أهمها عبر الصفحات الآتية:

١ ـ التواصل:

أشرنا من قبل إلى أن التربية هي عملية تفاعلية تجري بين المربين وبين الذين يقومون على تربيتهم، ويفهم من هذا ضمناً أن التفاعل كلما كان كبيراً وقوياً، أمكن للتربية أن تؤتى أكلها وفق درجة كمال المربين وصحة ما هم عليه، كما يفهم منه أن كثيراً من عقم التربية، يعود إلى انعدام التفاعل أو ضعفه، ومن هنا فإننا سنؤكد على موضوع (**التواصل**) ونشرح أبعاده وشروطه بوصفه الأداة الأساسية لإيصال ما لدينا إلى الصغار، والأداة الأساسية لمعرفتهم وفهم متطلباتهم.

لا تفترض أن ابنك سيسير دوماً على خطاك

ما الذي نعنيه بالتواصل في هذا المقام؟

التواصل مع أبنائنا وطلابنا، يعني التحدث إليهم والثقة بهم، ومحاولة فهم مشاعرهم وظروفهم، والإنصات إليهم والاهتمام بنموهم ومصالحهم. والتواصل

بهذا المعنى يعني أن نبحث باستمرار عن الطرق التي تجعلنا نفهمهم، كما تجعلهم يفهموننا، ويقتضي أيضاً أن يحرص المربون على درجة عالية من الحضور العقلي والشعوري. وتكتسب مسألة الحضور هذه أهمية خاصة بسبب المؤثرات السلبية التي يتعرض لها المراهقون اليوم. ولو أننا نظرنا إلى ما يأتي عن طريق الإنترنت والبث الفضائي، لوجدنا أن ضعف التواصل مع الأبناء سيعني تركهم يسبحون في بحر عميق دون طوق نجاة، ودون وجود منقذ. التحدث الواعي والهادف هو أساس التواصل، ومما يروى في هذا السياق أن امرأة في الثامنة عشرة من عمرها، أنجبت طفلاً، فزارتها جارتها والتي تقارب الثمانين، فسألتها إن كان لديها نصيحة تساعدها على تربية ذلك الصغير، فقالت بصوتها المتهدج المرتفع: «تحدثي إليه، هذا ما يجب أن تفعليه» .

على المربي أن يكون على سجيته مع من يربيهم، فكونه مربياً لا يعني أن يدعي ما ليس فيه.

وإليك بعض الملاحظات السريعة حول أسلوب التواصل:

أ ـ موقف المربي هو موقف العطاء والاستيعاب وتحمل المسؤولية. وموقف الأطفال هو موقف ضعف الإدراك وضعف السيطرة على الذات، هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نتذكرها دائماً حتى لا تكون أخطاء صغارنا سبباً في قطع جسور التواصل معهم؛ يقول أحد المربين: قد حاولت منذ مدة ألا أقع في الأخطاء التي وقع فيها كثير من الآباء والأمهات، وهو ألا آخذ تصرفات أبنائي على أنها موجهة لي شخصياً، بمعنى أنني لا أنظر إلى انزعاجهم وإلى

تصرفاتهم غير الموزونة على أنها نوع من المعاداة لي أو نوع من الاستفزاز أو اللامبالاة، وإنما أنظر إليها على أنها تصرفات عادية، سببها عدم اكتمال النمو؛ ويذكر لنا ذلك الأب الحصيف مثالاً على ذلك حين يقول: كان ابن يشب طولاً على نحو عجيب وسريع، وكانت هذه السرعة في النمو كثيراً ما تجعله يشعر بالجوع، وقد دخل ذات يوم من الباب وهو عابس، وقد قلب شفتيه، فقلت لأمه: تجاهليه، وبعد مدة صار يتمتم بكلام غير مفهوم، لكنه يعبر عن الانزعاج، فلم نلتفت إليه، ووضعت له أمه الطعام وانصرفت، وبعد ذلك عاد إلى وضعه العادي: شخص هادئ ودود. ولو أن ذلك الأب أراد أن يعرف بماذا يتمتم ابنه، أو أظهر له الاستياء لزاد الطين بلة، لكنه وقف موقف المستوعب والمتفهم...

ب ـ التواصل مع الأبناء يجب أن يكون هادفاً، وذلك بأن نسعى إلى أن نعبر لهم عن مشاعرنا وأفكارنا بالأسلوب الملائم، وأن نسعى كذلك لفهم تطلعات الأبناء ورؤاهم وتحليلاتهم وهمومهم. التواصل إذن يجب أن يدور حول ما لدينا ولديهم، ويجب أن يتم كل ذلك في أجواء مريحة وهادئة. أما إذا تم في أجواء الشك أو الاستخفاف أو اللوم والنقد أو الاتهام.. فالنتيجة لذلك التواصل ستكون سيئة جداً، وقد يكون عدمه خيراً من وجوده.

لنتعامل مع أخطاء الصغار على أنها زلات من أشخاص طيبين...

ج ـ كثير من الآباء والأمهات، يقولون: نحن نتواصل مع أبنائنا على نحو جيد، والأمور بيننا على ما يرام، لكن الواقع ليس كذلك، فهناك أشياء كثيرة، لا يعرفونها عن أبنائهم، كما أن لدى الأبناء اعتراضات وملاحظات كثيرة، لا يعرفون كيف يوصلونها إليهم. للتواصل الجيد مواصفات محدودة، وقد يكون

أفضل طريقة لاكتشافها والتأكد من توفرها، هو أن نلقي على أنفسنا الأسئلة الآتية:

ـ هل نحن قادرون فعلاً على سماع الولد والنظر إليه حين يتحدث سواء أكان في الخامسة أو الخامسة عشرة، أو أننا مشغولون بأشياء أخرى؟ وإذا نظرنا وسمعنا، فهل نحن متأكدون من قدرتنا على إدراك المعنى الذي يقصده الصغير من وراء كلماته، هذه بنت تقول ـ مثلاً ـ: زميلتي فلانة تشتري كل يوم من مقصف المدرسة، وتوزع علينا. وهذا طفل يقول: ابن جيراننا اشترى دراجة جديدة، وقد طلبت منه أن يسمح لي بركوبها، فرفض. هل تريد هذه البنت الشكوى من قلة المصروف الذي تأخذه معها إلى المدرسة؟ وهل يريد الطفل أن يشكو من أنه ليس لديه دراجة أو أن دراجته قديمة؟

ـ السؤال الثاني الذي يجب أن نطرحه من أجل معرفة جودة تواصلنا مع الصغار هو: هل نستطيع التخلي عن أفكارنا المسبقة حول ما يعنيه الابن من كلامه، أو حول ما ينبغي أن يعنيه؟ من المعروف أن كل واحد منا قام بتكوين خبرات وخلفيات عن أبنائه، وهو يفسر كل ما يراه، ويسمعه منهم في ضوئها، فإذا شكا أحد الأولاد من الإرهاق، قيل له: هذا نوع من الدلال من أجل كسب العطف. وإذا قالت إحدى البنات: إن مدرِّستها قاسية، أو غير منطقية في طلباتها، فإننا عوضاً عن أن نقوم ببحث الأمر، فإننا نقول لها: إنك تريدين تغيير فصلك الدراسي، أو الانتقال من مدرستك، أو أنك تريدين مدرِّسة خاصة. هذا الأسلوب يسيء إلى التواصل، ويترك انطباعات سلبية لدى الأبناء.

أجب على أسئلة ابنك بأجوبة تتصف بالحكمة، ولا تشعره أنه غير مهم..

ـ على الأب خاصة أن يتساءل: هل ابنته تستطيع شرح حالتها أو معاناتها له بطلاقة ودون خوف؟ وهل يشعر الولد بأن له الحق في أن يقول لأبويه ما يريد قوله؟ وهل يشعر بارتياح وهو يفعل ذلك؟ حتى يتفاعل الأبناء مع أهليهم على الوجه المطلوب، فإنهم يحتاجون إلى الجوّ الذي يسمح لهم بإبداء ما لديهم من ملاحظات حول وضع الأسرة أو وضع أحد الأبوين، وذلك في حدود الاحترام وحدود الأدب الإسلامي.

ـ السؤال الأخير الذي علينا معاشر المربين طرحه هو: هل تطور التواصل داخل الأسرة إلى الحد الذي يشعر معه الأبوان والأبناء بأنهم يملكون الثقة الكافية لأن يعبر كل واحد منهم بصدق عن آماله وأسراره وأحزانه؟ أو أن هناك من يتحفظ خشية سوء الظن أو النقد الشديد أو الفهم الخاطئ؟.

د ـ يرسل المربون أثناء ممارستهم للتربية رسائل متتابعة لمن يربونهم، وذلك من أجل بناء عقولهم ونفوسهم وعواطفهم، ومن المهم دائماً أن نتمكن من إرسال ما نريد إرساله، ونحن في حالة جيدة من الصفاء والتوازن، وذلك لأن الذهينة المشوشة للمربي وسيطرة القلق والتشاؤم عليه أو شعوره بالقهر.. إن كل هذه الأمور، تجعل المعاني التي يوصلها للصغار ممزوجة بشوائب ضارة، كما أن المربي يجد نفسه عاجزاً عن فهم الصغار على الوجه الصحيح. نحن لا نستطيع أن نتجاهل استفزاز كثير من الأبناء لآبائهم بطرق مختلفة، وذلك بعصيان الأوامر، أو بارتكاب خطأ سلوكي شنيع أو بالإهمال في الدراسة، أو بمصاحبة أشخاص يعتقد الأهل بأنهم سيئون.. وهذا يُحدث لدى الأب والأم نوعاً من الانفجار العاطفي، فنجد من الآباء من يطرد ابنه من البيت، أو يقول له: أنت

أبله (وكلمات أخرى من العيار الثقيل) أو يقول لـه: لـيس فيك خير، أو لا يمكن أن يكون لك مستقبل...

حين يغض المربي الطرف عن بعض أخطاء من يربيه، فإنه يكسب تعاطفه، ويترك في نفسه نوعاً من المهابة له...

وتمتلئ نفوس الصغار بالغيظ، وتنتابهم مشاعر الإحباط، حيث الإحساس بأنهم لم يرزقوا بأسر جيدة، تستحقهم وتفهمهم. هذا كله يجعل التواصل الجيد في مهب الريح.

نحن من أجل تحقيق التواصل الجيد وحمايته نحتاج إلى قائمة بعدد من (اللاءات) والتي يمكن أن تشتمل على الآتي: **لا** للصراخ ورفع الصوت من قبل الكبار والصغار، **لا** للنقد السلبي القاسي والقائم على التشهير، **لا** للاتهام، **لا** للنبذ بالألقاب، **لا** للوصف بالصفات الرديئة، واستخدام الألفاظ البذيئة. إن حرص كل أفراد الأسرة على الابتعاد عن هذه الأمور، سوف يولّد الدفء والتعاطف، ويجعل إمكانية التفاهم والتواصل أكبر.

هـ - أود أن أشير في سياق الحديث عن التواصل إلى ثلاثة أمور سلبية، تشوب طرائقنا التربوية بكثرة، وهذه الأمور هي:

شيء جيد أن نعبر لأبنائنا عن عواطفنا نحوهم حتى بعد أن يصبحوا كباراً.

١ ـ **التحذير:** وذلك كأن يقول الأب: أحذِّرك من أن تمضي في صحبة فلان، وأحذرك من التأخر في الذهاب إلى الفراش.. إن الأب حين يحذر ابنه المراهق، يضع نفسه في موقف محرج، لأنه إذا لم يتابع الأمر، فإنه يظهر بمظهر المتراخي أو غير المهتم، أو الذي لا يفعل ما يقول، وفي غالب الأحيان، لا تتم المتابعة، ويترسب في نفس الطفل شيء سلبي عن أبيه.

٢ ـ **الاستجواب والتحقيق:** هذا أب يقول لابنه: أريد أن أعرف أين كنت طوال هذا اليوم؟ وهذه أم تقول لابنتها: ماذا كنت تفعلين في غرفتك من العصر إلى المغرب وأنت مقفلة الباب؟ وذاك أب يقول لابنه: اكتب لي على ورقة أسماء أصدقائك وأرقام هواتفهم.. أنا لا أقول: إن الأب والأم لا يحتاجان إلى مساءلة الأبناء على نحو مطلق، كما لا أقول: إن المتابعة الدقيقة لشأن الأولاد، هي دائماً شيء خاطئ، ولكن أقول: لنجعل من المودة والثقة والمكاشفة والمشاورة والتواصل الحميم ـ القاعدة المطردة، ولنجعل من التحقيق والاستجواب الشيء الشاذ الذي لا نلجأ إليه إلا عند الضرورة، وإن كثيراً من الآباء ـ مع الأسف ـ يفعلون العكس! إن الإكثار من مساءلة الأولاد، يشحنهم بالتوتر، ويشعرهم بشدة الضغط عليهم، كما أنه يدفعهم إلى طريق الكذب والتزوير وحياكة المؤامرات.

٣ ـ **التهديد:** أب يقول لابنه الطالب في المتوسط: أنت محروم من المصروف اليومي لمدة شهر إذا لم تحسِّن مستواك الدراسي، وأب آخر يقول لابنه: إذا لم تساعد أخاك في حل واجباته فأنت محروم من اللعب بالكرة مع أبناء الحي مدة أسبوع.. نتيجة التهديد تكون في الغالب سلبية، حيث يتراجع المستوى الدراسي للابن، ويصبح أكثر سلبية في مساعدة أخيه؛ والأهم من هذا هو فتور عواطف الأبناء تجاه آبائهم.

بعض الآباء يوجهون النصائح لأبنائهم، وهم غاضبون، فيكونون كمن يرسم خطاً في الرمل!

و - لدينا عدد من الأمور التي تحسّن سوية الاتصال بالأبناء، يمكن أن نعرض لاثنين منها على نحو موجز عبر الحروف الصغيرة الآتية:

- يمكن للأبوين جعل جو الأسرة فياضاً بالرحمة والعطف والحنان ومملوءاً بالهناء والسرور، وهذا أمر مجاني، وقد نتعب في ترسيخه في البداية، لكن بعد مدة يصبح جزءاً من أسلوب معيشتنا. وقد كان ﷺ يمازح الأطفال، كما كان يلاعب أولاده وأسباطه، وهو إلى جانب ذلك كثير التبسم، حلو المعشر، شديد الإصغاء لمن له حاجة عنده من عظماء الناس وضعفائهم.

- مما يعمق التواصل الأسري مع الأطفال شعورهم بأن الأب حاضر في البيت ومتيقظ لحاجاتهم النفسية والمادية، ولا يكفي حضور البدن وحده. ومن الملاحظ في هذا السياق أن بعض الآباء يأتي منهكاً من العمل، فيجلس أمام التلفاز ويحتسي القهوة والشاي، وفي الصباح يقرأ الجريدة. وبعضهم يأتي ببعض أعماله إلى البيت، وكثيرون أولئك الذين يقضون نصف وقتهم في المنزل في الحديث مع العملاء والموظفين.. ولا وقت لدى كل هؤلاء للتفاعل والتواصل مع الأطفال. إن الطفل حين يكون صغيراً، قد لا يحتاج إلى أكثر من ابتسامة وحضن دافئ، ولكنه حين يكبر، فإنه يحتاج إلى الشعور بأن أهله معه، ويهتمون بتطلعاته ومشكلاته الدراسية والعاطفية.. إنه لمن الصعب أن يشعر الأبناء أن أباهم هو الشخص الوحيد الذي يحتاجون إلى الحديث المطول والمكرر معه، لكنهم لا يجدونه لأنه ذهنه مشغول بأشياء أخرى! إن أي أب يستطيع أن يجد وقتاً للجلوس مع أبنائه، لكن بشرط أن يكون ذلك ضمن اهتماماته وأولوياته.

حين تخالف أفعالنا عقائدنا، فإننا نصاب بشرذمة الذات، ونعطي إشارة للأوضاع السيئة بأن تتجذر وتستمر..

٢ ـ الاستماع للأطفال:

كما أن الأطفال يحتاجون إلى من يحدثهم بحنان وعطف، يحتاجون أيضاً إلى من يستمع إليهم بحرص واهتمام. سوف نخطئ إذا تعاملنا مع الطفل على أنه إناء فارغ، علينا أن نملأه بالحكمة والموعظة الحسنة والنصائح القيمة... إن الطفل هو أحد طرفي العملية التربوية، وهو كما يكبر وينضج من خلال تحدثنا إليه، يكبر وينضج، ويشعر بالامتلاء الشعوري والنمو الفكري من خلال تحدثه إلينا. إن كثيراً من الأبناء ـ ولا سيما المراهقين منهم ـ يشكون من أن أهليهم لا يستمعون إليهم على نحو جيد، ومن ثم فإنهم كثيراً ما يفهمونهم على نحو خاطئ؛ وهذه الشكوى ليست بعيدة عن الواقع، فنحن نتحدث أكثر من المطلوب، وحين نطالب بالسماع من الأولاد، فإننا نظهر بمظهر الشحيح، وذلك ـ على ما يبدو ـ لعدد من الأسباب، منها اعتقادنا بأنه لا وقت لدينا للسماع ومنها اعتقادنا بأننا نفهم الأطفال على نحو جيد، ومن ثم فإنه لا داعي إلى هدر المزيد من الوقت.

حين نسمح للطفل أن يدافع عن آرائه، فإننا نحسِّن مستوى المحاكمة العقلية لديه.

وقد ننصرف عن السماع بحجة أن كلام الأطفال كثيراً ما يكون غير عقلاني، أو لا معنى له.. وشيء من هذا كله قد يكون صحيحاً، لكن ليس في كل الحالات. الشيء الذي كثيراً ما نغفل عنه، هو أن الطفل حين يتحدث إلينا لا

يحتاج دائماً إلى إجابات، إنه يتحدث من أجل تنفيس الكروب التي تراكمت بداخله، وحين لا نبدي الاستعداد لسماعه، فإننا نكون كمن أغلق الصمام الذي يوضع على غطاء (قدر البخار) إنه يدفعه في اتجاه الانفجار. إننا في واقع الأمر نبذل الكثير من الجهد والوقت في سبيل تعلم أسلوب الكلام المؤثر والمقنع، لكننا لا نبذل أي جهد يذكر في تعلم الإنصات الجيد، مع أنهم يقولون: إن المتحدث الجيد هو في الأصل مستمع جيد. وإليك بعض ما علينا أن نفعله حتى يكون استماعنا جيداً:

أ - علينا أن نفرق بين الاستماع الجيد وبين السكوت، فقد يكون الطفل متحدثاً ونحن صامتون، لكننا في حالة شرود أو اعتراض أو استخفاف، فهذا ليس باستماع، إنما الاستماع ما كان مصحوباً بإقبال واهتمام وحرص على الفهم وإرسال رسائل تشجيعية للمتحدث بأن يستمر في كلامه حتى يشعر بأنه قال كل ما يجب أن يقوله.

ب - من المهم عدم إشعار الطفل بالسطوة والفوقية، كما يفعل بعض الآباء حين يجلس على كرسي، ويقول لابنه اجلس على الأرض وتحدث!. إن هذا الطفل لا يتحدث أمام قاض، كما أنه ليس في قفص الاتهام.

ج - حين نستمع إلى الأطفال فإن علينا أن نستمع إليهم بذهن مفتوح، وأن نتعامل مع ما يقولونه بجدية، لنترك الطفل يتكلم دون مقاطعة، ولنشجعه على أن يدلي برأيه حتى لو كان لا يتفق مع آرائنا الخاصة.

خلق الله - تعالى - للإنسان لساناً واحداً وأذنين اثنتين حين يسمع ضعف ما يتكلم..

د ـ كما أننا نحب ممن نحدثه أن يتجاوب معنا، فإن الأطفال يحبون منا أن نشعرهم بالتجاوب، وذلك من خلال هز الرأس، أو قول (تمام) أو (جيد) أو (صحيح) أو (ماذا بعد)..

٣ ـ الاحترام:

احترامنا لشخص يعني أننا نكرمه، ونقدره، ونثني عليه. والحقيقة أننا حين نتعامل مع الطفل باحترام، فإننا ندفعه في اتجاه أمرين.

الأول هو: احترامه لذاته، لأننا من خلال احترامنا له نشعره بكرامته وأهميته، وهذا شيء ضروري جداً لنموه على نحو سوي.

الثاني: احترام الآخرين، لأن لدى الصغار والكبار من النبل ما يجعلهم يقابلون التقدير بتقدير والأريحية بمثلها.

أود قبل أن أتحدث عن موضوع معاملة الطفل باحترام أن أتحدث عن بعض الأمور التي تنافي أسلوب التعامل المحترم حتى نتجنبها، وهي أمور عديدة، لعل من أهمها الآتي:

* إشعار الطفل بصفة مستمرة بأنه مذنب ومقصر، وتذكيره بأخطائه السابقة، مما يولد لديه صورة ذهنية سلبية عن نفسه، ومما يشعره بالعجز والوقوع في الأخطاء المتكررة.

* عدم مراعاة مشاعره، حيث لا يعبأ أفراد أسرته بأفراحه وأحزانه، ولا يهتمون بما يشكل له مصدراً للراحة والإزعاج.

إذا كنا معاشر الآباء نخطئ في فهم بعضنا بعضاً، فإن وقوع الخطأ في التفاهم مع الصغار يكون من باب أولى..

* ضعف الثقة بالصغير، وهذا يتجلى في الكثير من المواقف والتصرفات، وعلى سبيل المثال، فإن الأب الذي لا يكلف ابنه بأي شيء من حاجات الأسرة، والأب الذي يفرض على ابنه رقابة مشددة، والأب الذي يغلب عليه تكذيب ابنه والتشكيك فيما يقول، والأب الذي لا يتوقع لابنه إلا الإخفاق.. إن كل هؤلاء يعبرون عن عدم الثقة بأبنائهم، ويلقون في روعهم بالتالي بأنهم أشخاص غير محترمين على النحو اللائق.

* مقارنة الصغير بغيره من الإخوة والزملاء والأصدقاء والجيران.. على نحو سلبي: انظر إلى أخيك كيف يتفوق في دراسته وأنت تقضي زهرة أوقاتك في النوم. ابن جيراننا يقبّل يد أمه عند القدوم من المدرسة، وأنت لا تفعل ذلك. ابن صديقنا فلان، يحافظ على نظافة ثيابه، وأنت تحتاج إلى تغيير ثيابك في اليوم مرتين. إن المقارنة على هذا النحو تولد لدى الصغار نوعاً من احتقار الذات والشعور بالضآلة. إن من الممكن لفت نظر الطفل وإثارة انتباهه إلى بعض الأمور الحسنة والسيئة بعيداً عن المقارنة، وفي سياق التحفيز، وذلك مثل القول: نحن نأمل أن تكون من الثلاثة الأوائل على مدرستك في هذا الفصل، ومثل: على كل واحد من أفراد أسرتنا أن يحافظ على نظافة ثيابه حتى لا تكثر أعمال الغسيل والكيّ لدينا وهكذا..

كن حازماً في تعليم ابنك الصواب من الخطأ، لكن لا تكن متجهماً..

* إصدار الأحكام القاسية والنقد اللاذع، وذلك مثل قول الأب لابنه ـ وكذلك طبعاً الأم والأخ الكبير والمعلم ـ إنني لا أتوقع لك أي مستقبل، أو لا خير يرتجى من ورائك، أو أنت غير قابل للتعلم، أو لا تفكر في التفوق، أو أنك تجلب

لنا المشكلات مع الناس.. إن كل هذه المعاني، يمكن إيصالها للصغير على نحو لطيف وإيجابي لو فكرنا قليلاً في العواقب السيئة للنقد اللاذع.

*العقاب البدني: وهو شديد التعبير عن الاستخفاف بالطفل وقلة احترامه. إن ضرب الطفل أو ركله أو فرك أذنه بشدة أو جذبه بقوة أو حبسه في غرفة مظلمة أو منع الطعام عنه.. إن استخدام مثل هذه الوسائل يحطم معنويات الطفل، ويشعره بالدونية ويوغر صدره على أبويه، ويدفع به بعيداً عنهما. إن علينا أن نتذكر الآلام الكبرى التي كان يسببها لنا العقاب البدني حين كنا صغاراً، لعل تلك الذكرى تنفعنا في التعامل مع أبنائنا عند محاولتنا تصحيح أخطائهم.

لا تتوقع من ابنك أن يجد حلاً لكل مشاكله، فالكبار أنفسهم كثيراً ما يعجزون عن ذلك فضلاً عن الصغار..

والآن ننتقل إلى الحديث عن الأسلوب التربوي الذي يقوم على احترام الطفل والاعتراف بكرامته ومواهبه ومشاعره، وذلك عبر المفردات الآتية:

أ ـ النظر بعين التقدير إلى أي جهد يبذله الأبناء في الدراسة، أو في اكتساب مهارة أو مساعدة قريب أو دخول مسابقة من المسابقات... المهم أن نقدر الجهد الذي بذل بقطع النظر عن النتائج التي يفضي إليها. إن الذي نقدره ليس الفوز ولا النجاح والتفوق، وإنما المحاولة الصادقة وتذوق طعم العناء. بعض الآباء يفعلون الشيء المعاكس. إنهم يتجاهلون كل جهود أبنائهم فلا يُسمعونهم أي كلمة تشجيع أو ثناء، ويمارسون عوضاً عن ذلك مزيداً من الضغط عليهم، حين يقولون لهم: المهم النتائج، العبرة بما سيكون في اليد.. وحين يخفق الصغير يُظهرون نوعاً

من الشماتة به، وهذا هو السبب الكامن وراء موت روح المبادرة والمخاطرة والإقدام لدى كثير من فتياننا وشبابنا!.

الإسراف في منح الثناء، يُفقِده المعنى، ويُفرغه من قوة الإثارة، ولهذا فالاعتدال دائماً مطلوب..

ب - الاحترام يعني المراعاة للحقوق مع التوجيه المطلوب، حيث إن من حق الطفل - مثلاً - أن يلعب مع ابن عمته أو خالته، أو مع ابن جيرانه، كما أن من حقه أن يختار لون ملابسه وحقيبته، ومن حقه أن يغلق باب غرفته عليه متى شاء.. هذا هو الأصل، ولا يصح استخدام الضغط والإكراه حتى يفعل الطفل ما نحبه، ونعتقد أنه الأفضل. نعم من حقنا أن نتدخل لكن بالحكمة والروية والإقناع.

ج - لا ينسجم مع احترام آدمية الطفل، ما يفعله بعض المربين من تلقيبه بالألقاب المرتبطة بالإخفاق أو السوء أو الدناءة. إن المربي الذي يحترم آدمية من يربيه لا يستخدم أثناء تربيته كلمة (حقير) أو (تافه) أو (غبيّ) أو (متخلف) أو (حمار).. إن هذه الألفاظ تحطم الصغار، وتشعرهم بالكثير منم المهانة. ولنتذكر دائماً أن كثيراً من الحسرات تتلجج في صدور الصغار حين يقارنون مستوى الخطاب السائد لدى أسر بعض زملائهم وأقرانهم بالخطاب الذي يوجه إليهم، حيث يشعرون بالحرمان من اللطف والتقدير.

لنتذكر دائماً أن التربية عمل شاق ومعقد، لكن ما يحملنا على الصبر والمثابرة هو ما نرجوه من ثواب الله - تعالى - ومجازاته..

د - يقتضي الاحترام الاهتمام بآلام الطفل ومشكلاته ومساعدته على تجاوزها. الطفل قد يعاني من عاهة دائمة، وقد يعاني من نقص في بعض المواهب والقدرات، كما أنه قد يعاني بسبب سوء معاملة بعض زملائه أو أبناء حيه.. إن حبنا للأطفال وتقديرنا لما يترتب على ضعفهم من مشكلات وأزمات، يدفعنا دفعاً إلى الوقوف إلى جانبهم والأخذ بأيديهم، وإن تجاهل الأهل لذلك يجعل الطفل يشعر بنوع من اليتم، حيث الحرمان من المساعدة الحانية والحنونة.

ليست التربية عملية تعليمية، وإنما هي عملية تفاعلية فلننظر مع مكونات أي بيئة يتفاعل الأبناء.

هـ - تلبية رغبات الطفل وطموحاته وتطلعاته في حدود الممكن وفي حدود الاعتدال والتوسط. إن شعوره بأنه موضع عطفنا وشعوره بعدم قدرته على القيام بشؤونه وتحقيق مرغوباته، يدفعانه دفعاً إلى الطمع فينا والالتجاء إلينا، وينبغي أن نكون عند حسن ظنه.

٤ ـ الحب غير المشروط:

إن الله ـ تعالى ـ قذف في قلوبنا حب أبنائنا حتى نكون قادرين على تحمل أعباء تربيتهم دون أن نشعر بالإرهاق والضيق. والأطفال من جهتهم يعرفون مكانتهم في قلوبنا، فيتصرفون وهم واثقون من عفونا إذا ما أخطأوا، ومن تعاطفنا إذا مروا بشدة، ومن تدليلنا في كل الأحوال. ومن الملاحظ أن ارتباط معظم الأولاد بأمهاتهم يكون أشد من ارتباطهم بآبائهم، وذلك لأنهم يشعرون بقدرتهن الهائلة على العطاء المستمر دون منة أو انتظار مكافأة من أحد، وذلك

الارتباط الروحي الفريد يشكل بالنسبة إلى الصغار مصدرا للتهذيب والسمو ومصدرا لتعلم البذل والتضحية.

حب الأبوين للطفل يدفعه نحو حب الآخرين، وبذلك يكون إحسانهما مضاعفاً..

وأعتقد أننا منذ البداية نحتاج إلى أن نعتمد في تربيتنا لأبنائنا أسلوب (**الحب غير المشروط**) وهذا الاعتماد يعد منطقياً حيث إن ما ننتظره من وراء جهدنا في تربية الأبناء قد تكفل به الله ـ سبحانه ـ فهو الذي يجزينا على ما ننفقه على عيالنا، كما يجزينا على صبرنا عليهم ورحمتنا بهم. الحب المجاني أو غير المشروط يتجلى في العديد من المواقف والمسالك التربوية والتي من أهمها الآتي:

أ ـ التعبير بين الفينة والفينة من قبل الأبوين عن السعادة والسرور لوجود الطفل بينهما، وإشعاره دائماً بأنه موضع ترحيب، وأنهما يحمدان الله ـ تعالى ـ على أن كان ابناً لهما، وينبغي أن يتم هذا مع جميع الأبناء دون تمييز، وإلا لما كان حباً غير مشروط.

ب ـ الحب غير المشروط يعني العفو عن زلات الطفل وأخطائه ولا سيما تلك الأخطاء التي تترتب عليها بعض الخسائر المادية، إذ إن الطفل قد يكسر شيئاً من نفيس أثاث المنزل وتحفه، وقد يركب سيارة أبيه من غير إذنه فيصدم بها جدارا، أو يحدث فيها خللاً؛ يقول أحد المراهقين: قدت سيارة أبي من غير إذنه، وارتكبت أثناء قيادتها بعض الرعونات، فأدى ذلك إلى انقلابها، ولحقت بالسيارة أضرار فادحة، وقد كان أبي فقيرا، وقد كانت المفاجأة أن والدي لم يتكلم بأي

كلمة تجاه غلطتي الشنيعة، ولم يصدر عسنه أي تعليق، وإنما أرسلها إلى الورشة لإصلاحها، وأخذ في المساء يحدثني على نحو طبيعي، وقد ترك ذلك في نفسي شعوراً عظيماً بالندم على ما فعلت، كما ترك فيها مشاعر الولاء والحب والتقدير لأبوي.

ليس من الصواب إطلاق صفة (الولد) أو (الصغير) على الابن بصورة دائمة..

ج - لا يكون حبنا لأولادنا غير مشروط إذا لم نمتلك قدراً من نكران الذات، وإذا لم نقم ببعض الأشياء التي لا نجد لدينا أي ميل للقيام بها. والحقيقة أن هذا هو المعنى العميق للتضحية. وفي هذا الإطار فإن الأب قد يجد صغاره متلهفين إلى الذهاب للحديقة أو القيام برحلة أو أكل شيء معين أو الجلوس معه للحديث في أمر من الأمور.. ويجد الأب نفسه عازفة عن ذلك، وفي هذه الحال فإن الحب غير المشروط يلزمه أن يستجيب لطلباتهم ما دام ذلك ممكناً، وإن لم يكن ممتعاً. إن الاستجابة لمثل ما ذكرناه، تبرهن مرة أخرى على التعاطف مع الصغار، وعلى تقديم رغباتهم ومصالحهم على الاعتبارات الشخصية للأب والأم، مما يزيد في استعداد الأبناء لتشرب القيم والمفاهيم التي يؤمن بها الأبوان، ويجعل تفاعلهم معها أعظم ثمرة وفائدة.

د - الاستعداد للوقوف إلى جانب الطفل في الظروف الصعبة، فقد يرسب الطفل في مادة أو سنة دراسية كاملة، وقد يدخل في شجار مع أحد أبناء الجيران، ويكون هو المعتدي، وقد يضيع مبلغاً كبيراً من المال.. إنه في هذه الحالات يشعر بالخوف الشديد، كما يشعر بالضعف والإحباط. رد الفعل الأولي لدى كثيرين منا كثيراً ما يتمثل في الضرب والتأنيب والتهديد فيزيدون الطين بلة،

على حين أن المربي المحب والمدرك لأبعاد الموقف الصحيح، يقف إلى جانب الطفل عند الصدمة الأولى، ويحاول مواساته والتخفيف من آلام ما تعرض له، وبعد أن تهدأ العاصفة يصير إلى المفاتحة الهادئة ووضع النقاط على الحروف واستخلاص العبر، وإيجاد الحلول. هذا شيء صعب جداً طبعاً، لكنه هو الصحيح، وبين الخطأ والصواب مسافة وعرة، لكن لا بد من قطعها من أجل الصلاح والإصلاح.

لا يكفي أن نهتم بنوعية ما نقوله للطفل بل لا بد من الاهتمام بتوقيته وكيفية قوله...

هـ - إدراك الطفل محدود ورؤيته للأشياء ناقصة، وقد كان علي ﷺ يقول: «رأي الشيخ ولا رؤية الصبي» . أي أن أقوال الشيخ المبنية على ظن واجتهاد أوثق وأقرب إلى الحق من أقوال الصبي، ولو كانت مبنية على رؤية ومشاهدة. هذه المحدودية تتطلب من الأب المحب والأم المحبة النزول إلى مستوى الصغار ومحاولة تفهم وجهات نظرهم ومحاولة مجاراتهم ما دام ذلك في نطاق الحق والصواب. نحن نريد إيجاد أعلى درجة من التلاحم بين المربي والمربى، وهذا يقتضي سد الفجوات التي تظهر باستمرار بين الأذواق والمشاعر والرؤى والهوايات؛ والمربي الحصيف هو من سيقوم بذلك.

و - الحب غير المشروط يعني القدرة على وضع حد للنزاع الذي ينشأ بين الأبوين والأطفال، والأصل هو أن الكبير يستوعب الصغير، كما أن الخبرة التربوية تعلمنا كيف نجعل الأمور، لا تصل إلى حد الصدام والغضب الشديد، لكن يبدو أن شيئاً من ذلك واقع لا محالة، والشيء الذي أود التنبيه عليه هنا هو

ضرورة أن يعمل الأبوان على أن ينتهي الخصام وسوء التفاهم قبل حلول وقت النوم.

إن الليل يأتي بالكثير من الهواجس السيئة والكوابيس المزعجة، ويضاعف حجم الهموم والأفكار السلبية، ولهذا فإن المطلوب وبإلحاح ألا ينام الطفل إلا وهو في حالة من الرضا والطمأنينة والسرور، وهذا ما على الأبوين والإخوة الكبار القيام به، ولهم على ذلك الأجر والمثوبة من الله ـ تعالى ـ حيث إن تفريج الكروب عن الصغار والكبار من الأمور المحببة إلى المولى؛ عز وجل.

شجع الطفل على تكرار المحاولة، إذ قلما يصيب المرء النجاح من المحاولة الأولى...

وفي ختام الحديث عن الأساليب التربوية أود أن أقول: إنني لم أتحدث عن كل شيء، لأن هذا الكتاب لم يعقد في الأصل للحديث عنها، وإنما للحديث عن المفاهيم والقيم التي ينبغي أن نؤسس عليها عقلية الطفل، ولهذا فإن الشمول هنا ليس مقصوداً؛ كما أرغب أن أؤكد على أمر آخر هو أن الأساليب التربوية ليست عبارة عن أشكال جامدة، نتخذ منها أدوات للتربية فحسب، إنها باعتبار من الاعتبارات، تعد جزءاً من المضمون التربوي، فالصغار يتعلمون الاحترام واللطف والالتزام والدقة والأمانة.. من طرق التربية ومن مضامينها في آن واحد، وحين يكبرون فإنهم سيستخدمون في تربية أبنائهم ـ في الغالب ـ عين الأساليب التي استخدمناها في تربيتهم، ولهذا فإني آمل أن نهتم بها، ونحاول تحسينها باستمرار؛ والله المستعان في كل حال.

نقاط للتذكر

- ✓ من الصعب الفصل بين الأساليب وبين القيم والمفاهيم التربوية.
- ✓ إن الأسلوب التربوي الذي يجدي في تهذيب طفل أو مراهق، قد لا يكون مجدياً في تهذيب طفل أو مراهق آخر، ولذا فلا بد من الحرص والاجتهاد.
- ✓ التربية عملية تفاعلية، ولا يكفي أن يكون المربي فاضلاً، بل لا بد من إزالة العوائق التي تحول بينه وبين من يربيهم.
- ✓ ينبغي على المربي ألا ينظر إلى استفزازات أولاده على أنها موجهة إليه شخصياً، وإنما هي نتيجة مباشرة لعدم اكتمال النمو.
- ✓ من مسؤولية الأسرة أن توفر جواً يسمح لكل واحد من الأبناء أن يعبر عن آرائه ومشاعره بحرية وبشكل مريح.
- ✓ التحذير والتهديد والاستجواب والصراخ والتشهير، أمور مرفوضة في البيئة التربوية الجيدة.
- ✓ مما يعمق التواصل الأسري شعور الأبناء بأن أباهم متابع لنجاحاتهم وعارف بهمومهم واحتياجاتهم.
- ✓ الأطفال في حاجة إلى من يحدثهم بحنان وعطف، كما يحتاجون إلى من يستمع إليهم بحرص واهتمام.
- ✓ لنتجاوب مع الأطفال، ولنشعرهم بأننا مهتمون بما يقولونه، ومستعدون لمناقشته.

- ✓ حين نتعامل مع الطفل باحترام، فإننا ندفعه في اتجاه احترام نفسه واحترامنا واحترام الآخرين أيضاً.
- ✓ المقارنات السلبية تحطم الطفل، وتولد لديه احتقار الذات والشعور بالضآلة.
- ✓ علينا أن ننظر إلى الجهد الذي يبذله الطفل، وإلى تذوقه طعم العناء بعين التقدير، وإن كانت النتائج التي حصل عليها غير جيدة.
- ✓ من متطلبات الاحترام الاهتمام بآلام الطفل ومشكلاته ومساعدته على تجاوزها.
- ✓ الحب غير المشروط، يعني أن نعطي ونضحي استغناء بمثوبة الله - تعالى - عن أي جزاء من أي كان.
- ✓ يحتاج المربي إلى أن ينزل إلى مستوى الصغار حتى يستطيع فهمهم على نحو جيد، وحتى يكسب قلوبهم أيضاً.
- ✓ إن الأطفال حين يكبرون، ويصبحون آباء، يستخدمون الأساليب التربوية التي استخدمت في تربيتهم، وهذا يلقي علينا مسؤولية تحسين طرق تربيتنا.

القسم الثاني

١. توطئة

٢. وعي الطفل بذاته

٣. مبادئ عامة

١. توطئة

أشرت من قبل إلى أن في إمكاننا أن ننظر إلى (العقل) على أنه عضو من أعضاء الجسم، وذلك باعتبار من الاعتبارات، وكما أن الواحد منا يتعامل مع الأشياء عبر أدوات، فإن (العقل) كذلك يتعامل مع القضايا والمسائل والمشكلات وكل الأشياء عبر أدوات، لكن أدواته من نوع مختلف. الحداد يتعامل مع الحديد من خلال المطرقة والسندان والمقص. والنجار يتعامل مع الخشب من خلال المنشار والقدوم و (الفأرة).. أما العقل، فإن أدواته من نوع مختلف، إنها عبارة عن رموز لغوية وتعريفات ومصطلحات وأفكار ومفاهيم ونظريات ورؤى ومعادلات.. وكما أن الحداد يجد نفسه عاجزاً عن التعامل مع الحديد من غير سندان ومطرقة.. كذلك العقل يجد نفسه عاجزاً عن التفكير في أمور لا يملك معلومات وأفكاراً عنها. لو طلبنا من أي إنسان أن يفكر في قضية من القضايا مثل إصلاح (جامعة) وهو لا يعرف معنى الجامعة، أو طلبنا منه التحدث عن قيمة (الإخلاص) أو (التعاون) ولا يعرف أي شيء عن دلالة هذه الكلمة، فإننا نكون كمن طلب من شخص أن يدخل بيتاً ليس له باب ولا نافذة؛ ولهذا فإننا نلاحظ أن الأطفال حين يسمعون الكبار، يتحدثون في موضوع جديد، فإنهم يسألون عن معاني الكلمات التي تشكل مفاتيح الموضوع، لأنهم من غير ذلك لا يستطيعون استيعابه.

> **ما نكسبه من خبرات ومعارف أهم مما نرثه من آبائنا من قدرات ذهنية..**

إن مرحلة الطفولة المبكرة تقع بين ثلاث وست سنوات، وقد فطر الله الخالق ـ عز شأنه ـ الطفل على حب التساؤل في هذه السن كي يزود عقله بأكبر قدر

ممكن من المفاهيم والمعلومات، وقد أطلق أحد الباحثين على هذه المرحلة اسم (مرحلة التساؤل)، حيث تدل بعض الدراسات على أن ما بين (١٠ % إلى ١٥ %) من حديث الطفل في هذه المرحلة يكون عبارة عن أسئلة. إنك تسمع منه دائماً: (ماذا) و (لماذا) و (أين مكانه) و (كيف صار) و (من أين جاء) و (ما هو) و (ما هي) و (هل تعرف)... إنه يريد معرفة كنه الأشياء التي تثير انتباهه، ويريد أن يفهم الأشياء التي يراها ويسمع عنها. وقد يفهم الجواب، وقد لا يفهمه، وقد ينصت وقتاً كافياً للإجابة، وقد لا ينصت.

في مرحلة الطفولة المبكرة، تبدأ المفاهيم بالتشكل، والمفاهيم التي تتبلور في ذهن الطفل أولاً، هي المفاهيم المرتبطة بالأشياء المحسوسة والمشاهدة، وذلك مثل مفهوم (الزمن) و (المكان) والمفاهيم المرتبطة بالأشكال الهندسية: المربع والمستطيل والدائرة... وأيضاً المفاهيم المرتبطة بالمأكولات والمشروبات والملبوسات، وتلك المرتبطة بالأشخاص القريبين مثل الأب والأم والجدة والجار..

لنشرح للطفل أنه لا بأس في أن لا يفهم كل شيء، فالكبار أيضاً لا يفهمون كل شيء..

إن الطفل يظن في البداية أن كل رجل أب، كما يظن أن كل امرأة أم وكل طفل أخ، ومع معايشة الأشياء والناس والأحداث والمواقف وتكرار الخبرات يبدأ مدلول المفاهيم بالاتساع، ويبدأ بالانفصال عن المظاهر الخاصة، كما يبدأ الطفل بإدراك أن (الصبي) قد يكون (أخاً) ولكن ليس له، وإنما لطفل آخر، كما يدرك

أن (المرأة) قد تسمى (أماً) و لا تكون أمه.. وهكذا يبدأ بالتدرج في التعامل مع الألفاظ على أنها تدل على المعاني مستقلةً عن الإشارة إلى شيء معين، إلى أن ينتهي به الأمر إلى تصور المعاني والمفاهيم المجردة، مثل الصدق والأمانة والعطف والخوف والفرح..

إن المفاهيم تشكل معظم النشاط العقلي، وإن مخزون الطفل منها، وإن كفايتها ومدى بلورتها، إن كل ذلك مرتبط بما لدى الطفل من قدرات عقلية، فالطفل الذكي يمتلك مفاهيم أكثر من الأطفال العاديين الذين في مثل سنه، كما أن تلك المفاهيم تكون أكثر تحديداً وأفضل دلالة لدى الأذكياء منها لدى الأطفال العاديين ومَنْ دونهم. وهذا يعني أن النمو العقلي والفكري لا يتوقف على جهودنا في تعليم الأطفال فحسب، كما أنه لا يتوقف على الجهود التي يبذلها الأطفال، وإنما يضاف إلى ذلك دور القدرات الذهنية الفطرية التي يمتلكها الطفل، فالطفل الذكي يستوعب ويحفظ ويحلل ويطور، ويستخدم ما يقرأ ويسمع ويرى على نحو أفضل مما يفعله الطفل العادي. وهنا شيء لابد من ذكره، وهو أن دماغ الطفل ينمو في الحجم والوزن حين يستجيب للتحديات والمواقف الجديدة التي نقدمها له، حين يحاول طفل أن يلمس شيئاً معلقاً يصعب الوصول إليه، وحين يحاول أن يميز بين الأشكال، ويجد صعوبة ... في هذه اللحظة تتكون داخل الدماغ ممرات كهربائية جديدة، لكي تحمل وسائل حل المشكلة، وهنا ينمو العقل.

استخدام وسائل الإيضاح يرفع مستوى الذكاء لدى الأطفال

وقد وجدت إحدى الباحثات على الفئران أن الخلايا العصبية التي تكوِّن قشرة الدماغ تتبدل بالخبرة، ومن خلال استخدام الاستجابة للبيئة المحفزة، ففي

البيئة الثرية حيث تتواصل الفئران بعضها مع بعض، وتلعب على أرجوحة أو أي جهاز آخر في حركة دائرية، يزداد حجم الفئران، وتصبح عقولها أكثر فاعلية؛ لأن التحفيز أوجد تواصلاً وروابط جديدة بين خلايا الدماغ. وإن عقول الأطفال تنمو من خلال ألعاب الذكاء ومن خلال الأنشطة الإيجابية، مثل القراءة. أما مع الأنشطة السلبية مثل مشاهدة التلفاز، فإنها تفقد المحفّز، وتبقى دون نمو ملحوظ. ما الرسالة التي نريد إيصالها من وراء هذا الكلام؟ الرسالة هي: النصح بالإعراض عن التفكير في الذكاء الموروث والكف عن تقويم الأبناء والتعامل معهم بناء على ما نعتقده من وجوده لديهم، والعمل على إثراء البيئة التي نوفرها لهم، بالإضافة إلى الإكثار من التدريب على التفكير بالوسائل المختلفة، فهذا هو الذي يعود عليهم بالنفع الحقيقي بإذن الله ـ تعالى ـ وشيء آخر أود التركيز عليه، هو ذلك العناق الأبدي بين الشكل والمضمون، فطرق تربيتنا وتعليمنا لأبنائنا، تؤثر تأثيراً كبيراً في نوعية المفاهيم التي نود إيصالها إليهم، كما أن المفاهيم التي اخترناها لتثقيفهم وتكوين عقلياتهم، تؤثر في طرق تربيتنا، ومن هنا فإن أي تقدم يطرأ على طرق التربية ينعكس إيجاباً على المضامين الفكرية، كما أن أي تحسين يطرأ على نوعية المفاهيم التي نقدمها، ينعكس على الأساليب التربوية، والعكس صحيح.

لا تكمن ميزتنا الأساسية في أن لدينا أدمغة، وإنما في كوننا نستخدمها..

الحوار مع الأطفال وتشجيعهم على القراءة وزيارة المكتبات والمعارض والمتاحف، وشرح ما يصعب عليهم استيعابه، وتوفر ألعاب الذكاء لديهم.. كل هذا يساعد على امتلاك الصغار لقدرات ذهنية جديدة، وهذا ما نتطلع إليه،

وينبغي أن نحرص على إيجاده.

هناك قضية أشرت إليها، ولا يصح أن نمر عليها مرور الكرام، وهي قضية (القراءة) واصطحاب الكتاب وعلاقتها بالذكاء والتفوق والنهوض. إن المعلومات والحقائق تشكل جوهر الذكاء الإنساني، فالجاهل بقضية من القضايا، مهما كان متفوقاً في إمكاناته الذهنية يبدو أشبه بأبله حين يتحدث فيها، وذلك لأن العقل البشري، لا يملك إمكانات كبيرة على توليد المعلومات، لأن وظيفته الأساسية تتمثل في الاشتغال على المعلومات المتوفرة، تماماً كما يشتغل الخياط على القماش وصانع الحلوى على الدقيق والسكر. ويبدو لي أن كثيراً من الآباء والأمهات غير قادرين على استيعاب هذه الحقيقة والبناء عليها، ولهذا فإن الاهتمام بتعويد الأبناء عادة (القراءة) منذ الصغر ما زال ضعيفاً لدينا للغاية! القراءة هي أول وأكثر مراحل النمو الفكري حيوية، ولهذا فإننا في حاجة إلى أن نجعلها في أعلى سلم أولوياتنا التربوية والتعليمية؛ وإذا كبر الصغير دون أن يتعلم عادة القراءة، فقد يكون من الصعب بعد ذلك أن يتعلمها، أو أن يتخلص من عادة القراءة السيئة، ونكون في كل حال قد فوتنا عليه فرصة البداية الصحيحة.

القارئ الجيد لا يقرأ كتباً كثيرة، لكنه إذا قرأ كتاباً قرأه بطريقة جيدة.

وتدل دراسة أجريت في جامعة (إلينوى) على طلاب الصف الخامس الابتدائي حول عادات القراءة على أن الأطفال المميَّزين بشكل خاص في القراءة، يقضون أربعة أمثال الوقت الذي يقضيه غيرهم من الأطفال فيها. وتدل تلك الدراسة أيضاً على أن الأطفال المتفوقين الذين يحصلون على (٩٠%) في الاختبارات يقضون حوالي عشرين دقيقة في القراءة كل يوم ـ هذا غير القراءة

المنهجية للمقررات الدراسية ـ أما الأطفال الذين يحصلون في الاختبارات على (٥٠%) فيقرأون مدة ست دقائق كل يوم فقط. وقد قام أحد الباحثين بدراسة من نوع آخر على الأسر في إحدى المدن، فتبين أن العائلات المميزة والناجحة في تربية أبنائها، تشاهد (التلفاز) وسطياً مدة ساعتين وربع يومياً، وهذا يشكل أقل من متوسط ثلث زمن المشاهدة لدى عامة الأسر، وهو سبع ساعات يومياً! في بلدان عديدة، تهتم بالعلم والمطالعة والثقافة شعر الناس بخطورة (التلفاز) على الأبناء، إذ يصرفهم عن القراءة النافعة، ومن ثم فإنهم حددوا للصغار الأوقات التي في إمكانهم أن يشاهدوا فيها بعض البرامج المختارة، وبعض الأسر أخذت على عاتقها عدم فتح التلفاز يوماً في الأسبوع كي تكسر حدة الإدمان عليه لدى الصغار. إننا إذا بذلنا جهداً جيداً في تعويد الصغار القراءة، فإنهم سيفضلونها على أي نشاط آخر طيلة حياتهم، وهذا مكسب كبير جداً، لا يصح التفريط به. وهذه بعض النصائح حول هذه القضية المهمة:

١ ـ اصطحب الأطفال إلى المكتبة مرتين في الشهر، ودعهم يختارون بأنفسهم الكتب التي يحبون قراءتها، وحين يختارون كتاباً غير مناسب قم بدورك في التوجيه والدلالة على البديل النافع، لكن تجنب في كل الأحوال إجبارهم على قراءة شيء لا يحبونه، حيث إن إكراههم على ذلك، قد يكون سبباً في عزوفهم الدائم عن قراءة أي شيء.

يشير كون أول كلمة تنزل على نبينا ﷺ هي كلمة اقرأ إلى أن الأساس قيام هذه الأمة وأساس نهضتها هو القراءة والمعرفة، وهذا ما أثبتت تجارب الأمم صحته..

٢ ـ لا بد من أن يكون لدى كل أسرة مكتبة منزلية صغيرة، يساهم في تأسيسها جميع أفراد الأسرة، ومما لا يصح أن تخلو منه تلك المكتبة بعض المراجع الأساسية في التفسير والحديث والفقه والسيرة والتاريخ واللغة والأدب، وذلك حتى يعود أهل المنزل إليها عند الحاجة إلى مراجعة بعض المسائل. وفي الأسواق الآن كتب ترشد الأسر إلى مواصفات المكتبة المنزلية الجيدة.

٣ ـ هناك شيء نقوم به قبل معرفة الطفل للقراءة، وهو أن نقوم نحن بالقراءة له، وهذا يمكن أن يبدأ والطفل في سن الثالثة. لنقرأ له بعض القصص والحكايات المشتملة على بعض المعاني اللطيفة وبعض القيم والأخلاق الحميدة، ولنحاول شرح ما نقرأه له حتى نؤسس لعاطفة الارتباط بالقراءة والكتاب، وهذا ما تفعله الأمهات الممتازات في كثير من بلاد العالم اليوم.

٤ ـ حين يصبح الأبناء في المرحلة الابتدائية، ويتمكنون من القراءة بأنفسهم، فإن علينا أن نشجعهم على الحديث عن الأشياء التي قرأوها، فإذا قرأ الطفل قصة، تلقى عليه أسئلة عن اسم المؤلف وعن المحور الذي تدور حوله القصة والرسالة التي يود كاتبها إيصالها للقارئ، بالإضافة إلى أسماء أشخاص القصة أو الرواية وأدوارهم فيها، ثم نقوم نحن بإعادة صياغة أفكار الصغير، وشرح بعض المضامين التي تحدث عنها، وربط ما يمكن ربطه بالإيمان بالله ـ تعالى ـ وبالمبادئ والقيم التي نؤمن بها.

إذا قمنا بتعاهد الطفل كما نتعاهد نبتة عزيزة علينا، فإن لنا أن نتوقع منه الكثير..

٥ ـ بعض الأسر تقوم بشيء جميل، حين تشعر أن أبناءها قد كبروا، وصاروا في المرحلة المتوسطة والثانوية، وصاروا قادرين على الدخول في مناقشات جادة وواعية، إنها تعقد جلسات أسبوعية، أو نصف شهرية للتحدث حول الأمور التي قرأ حولها أبناؤهم في الحقبة الماضية، إنهم يتحدثون حول مضامين بعض الروايات العظيمة التي قرأوها، ويُطلعون بعضهم على أجمل الفقرات وأعظم الأفكار التي سجلوها من خلال قراءاتهم، كما أنهم يحاولون أن يفهموا سوياً بعض المسائل الصعبة، مثل الاعتدال والنزاهة وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخشوع في الصلاة والتدبر لكتاب الله ـ تعالى ـ ومتطلبات التفوق.. إن تلك الأسر، تبرهن فعلاً على أنها أسر متعلمة ومهتمة بتطوير نفسها، وتعيش زمانها، إنها تشكل محضناً عظيماً لرعاية الأفكار والمشاعر، وتنمية المعارف.

نقاط للتذكر

- ✓ عقولنا لا تتعامل مع القضايا والأشياء على نحو مباشر، وإنما عبر أدوات، وأدواتها هي التعريفات والمفاهيم والمعلومات.
- ✓ تتفتح أذهان الأطفال على الأشياء المحسوسة أولاً، وشيئاً فشيئاً تبدأ بالتعرف على المعاني المجردة.
- ✓ ينمو دماغ الطفل حجماً ووزناً على نحو مواكب للتحديات والمواقف الجديدة، وكلما كانت البيئة أعظم ثراء، كانت الفرصة لنموه أكبر.
- ✓ بين طرق التربية والمفاهيم التي ننقلها للطفل نوع من التأثير المتبادل.
- ✓ العقل من غير معلومات خواء، ويطرح عند تعامله مع القضايا آنذاك طروحات شكلية وسطحية.
- ✓ إعراض الأمة عن القراءة أساس لعدد كبير من المشكلات، وتعويد الأطفال القراءة هو المدخل لمعالجة تلك المشكلات.
- ✓ المكتبة المنزلية ضرورة حيوية، وينبغي أن يشارك الأطفال في تأسيسها.
- ✓ على الأسرة أن تتداول فيما بينها الأفكار والمعاني والمسائل التي يطلع عليها أفرادها في قراءاتهم الخاصة.

تطبيقات وتدريبات

- اشرح للطفل شيئاً عن الدماغ، وعن تجلي قدرة الله ـ تعالى ـ في إبداعه.
- وضح للطفل أنه ليس هناك شخص يملك كل الأجوبة على كل التساؤلات.
- دع الطفل يحاول أن يشرح لك معنى (الأمانة) واطلب منه ذكر بعض الأمثلة.
- ناقش مع الطفل أهمية تخصيص وقت للقراءة يومياً.
- اسأل الطفل عن الأثر النفسي والسلوكي الذي تركه في نفسه اطلاعه على كتاب معين.

٢ـ وعي الطفل بذاته

يقدم الطفل إلى هذه الحياة، وهو من غير أي حول أو طول، ومعرفته بنفسه وبما حوله معدومة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم حين قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] لكن الطفل مفطور على حب التعلم ومحاولة الفهم لذاته ولما حوله، فبعد مرور عام على ولادته تنمو صورة ذاته لديه، ويزداد التفاعل مع الأبوين ـ ولا سيما الأم ـ ومع الآخرين، ويبدأ باستخدام بعض الكلمات، وتشكل الضمائر نحواً من ١٠% منها، وبعد مرور سنتين يزداد شعوره بفرديته وشخصيته، ويشعر بأن له ذاتاً، وأن للآخرين ذواتهم المغايرة، كما يشعر أن له ممتلكاته الخاصة.. إن الذات تعني ذلك التكوين المعرفي المنظم للمدركات الشعورية والتصورات والتعميمات الشخصية؛ والطفل هو الذي يبلور ذلك التكوين، ويعتبره تعريفاً خاصاً لنفسه. ولا أريد الإفاضة في هذا الموضوع (التقني) لكن أود أن أؤكد شيئاً وقع عليه ما يشبه إجماع بين علماء النفس، وهو أن تعرف الطفل على ذاته يتم عبر التفاعل مع أبويه وإخوته وجيرانه وزملائه وأصدقائه.. إن الطفل كثيراً ما يتخذ من أبويه مثلاً أعلى، ثم يبدأ بتقليد ذلك المثل في سلوكاته ورؤيته للحياة وفي مشاعره وردود أفعاله، ومن هنا فإن حب الوالدين للطفل وعطفهما عليه واتجاهاتهما نحوه أثناء مراحل نموه، تكون على درجة كبيرة من الأهمية في تكوين الذات لديه. وينبغي أن نقول: إن معرفة الإنسان بذاته لا تكتمل أبداً، فهناك دائماً شيء غامض أو مشكوك فيه، وهذا هو السر في أن رؤيتنا لأنفسنا تظل قابلة للتعديل، وكثيراً ما يرتكز العلاج النفسي

---

(1) سورة النحل: (٧٨).

على تغيير مفهوم الذات لدى الشخص المعالج، وينجح العلاج بناء على ما يمتلكه الناس من مرونة لتصوراتهم حول ذواتهم. إن على المربين أن يشجعوا الأطفال على المشاركة في المناقشات العائلية، وأن يدعموا أسلوب التدريس الحواري داخل الفصول الدراسية، كما أن عليهم أن يسمحوا للصغار في المشاركة في اتخاذ بعض القرارات الصغيرة، وإتاحة الفرصة لهم، لينتقدوا الأشياء التي لا يرونها مناسبة.. إن التفاعل على هذا النحو هو الذي يرفع سوية فهم الأطفال لذواتهم وإمكاناتهم، وهو الذي يساعدهم على بلورة رؤية خاصة بهم للحياة والأحياء. وكلما تحسَّن فهم الطفل لذاته مال إلى الشعور بالاستقلال والاعتزاز بما لديه، كما مال إلى المبادرة وتحمل المسؤولية وهذا ما نحتاج إليه أشد الاحتياج في أوضاعنا الحالية. دعونا نشجع الأطفال على التعبير عن أنفسهم وعن احتياجاتهم، ودعونا نتيح لهم فرصة للاختيار في كل شؤونهم، فإذا اختاروا احترمنا اختياراتهم.

شعور الصغار والكبار بالحاجة إلى التشجيع والتقدير يدل على أنهم غير متأكدين من معرفة خصائصهم وفضائلهم الشخصية، وغير متأكدين من المكانة التي يحتلونها في نفوس الآخرين..

إن المربي الجيد، يساعد من يربيه على الإحساس بالكرامة الشخصية، وعلى تكوين المغزى الشخصي الخاص، أي بلورة ما تعنيه القيم والمبادئ والأحداث بالنسبة إليه. ولعلي أشير هنا إلى واجب المربين في مسألة تكوين الوعي الذاتي لدى الأطفال من خلال توضيح عدد من المفاهيم المتعلقة بشخصياتهم، وذلك عبر المفردات الآتية:

١ ـ أول ما ينبغي ترسيخه في عقل الطفل، هو أنه أحد مخلوقات الله ـ عز شأنه ـ كما أن حياته ومصيره في يده ـ سبحانه ـ فهو المتصرف في هذا الكون، وعلينا عبادته وطاعته والعيش على النحو الذي يرضاه لنا. ويجب أن يستمر العمل على ترسيخ هذه المعاني حتى نهاية الطفولة المتوسطة، أي إلى سن العاشرة، وبعد ذلك يكون التذكير بها حسب الحاجة.

٢ ـ العمل على تشجيع الطفل على قبول ذاته، حيث إن في ذات المرء وفي ظروف أهله وأوضاعهم أموراً كثيرة، لا يمكن لأحد تغييرها، ومن ثم فينبغي للصغير أن يتكيف معها، ويحاول الارتقاء والتحسن في إطار وجودها، لون البشرة، ومكان الولادة، والأوضاع الاجتماعية والمادية للأسرة، بالإضافة إلى نسبها، وخلفيتها التاريخية.. كل هذه الأمور يكون فيها عادة ما يعجب الطفل وما لا يعجبه، ومهمتنا أن نحفزه على أن يكون في الموقع الصحيح من كل ذلك. وأعتقد أن هذه المهمة تتطلب أن نؤكد على المعاني الآتية:

لن يحدث التغيير المطلوب في حياة الناس إلا إذا تجاوزوا الأفكار النظرية إلى إحداث سلوكات إيجابية جديدة في حركتهم اليومية...

أ ـ الأصل في الناس جميعاً أنهم متشابهون في الأمور الرئيسية، ويختلفون في الأمور الفرعية: كل الأطفال، لهم عيون وآذان وأفواه وأيدٍ وأرجل، وأعدادها متساوية لدى كل الناس، لكن لون العيون وحجم الآذان، وطول الأرجل، يختلف من طفل إلى آخر.

ب - نوضح للطفل أن من الطبيعي أن يولد بعض الأطفال في المدن، وبعضهم الآخر في المدن، وأن يكون أهل بعضهم فقراء، وأهل بعضهم أغنياء، كما أن من الطبيعي اختلافهم في الأنساب والأحساب وفي الأوضاع الأسرية المختلفة، فهناك أسر، انسجامها ووفاقها الداخلي أكبر من انسجام أسر أخرى.. المراد من هذا أن نوضح للطفل نقطة أساسية، هي أنه ليست هناك وضعية لشخص أو لأسرة، تعد مركزية، وغيرها هامشياً، أو تعد أصلاً، وغيرها فرعاً أو صورة؛ وهذا مهم جداً.

ج - نشرح للطفل بوسائل متعددة مسألة عقدية ومبدئية، هي أننا مسلمون، وأن المسلم يعتقد أن هذه الحياة ، هي دار اختبار وامتحان، وكل الناس ممتحن: الجميل بجماله، والقبيح بقبحه، والغني بغناه، والفقير بفقره، والذكي بذكائه، والغبي بغبائه.. المهم في نظرنا نحن المسلمين، ليس نوعية الابتلاء، وإنما النجاح في الابتلاء، أي أن نتصرف التصرف الذي يرضي الله - تعالى - وأن نحقق أهدافنا المشروعة في إطار الأوضاع التي نحن فيها مع السعي المستمر لجعل تلك الأوضاع أفضل وأكرم.

شجع دائماً الانسجام والمنطقية في تصرفات الطفل ونبهه على المفارقات السلوكية.

د - هناك حقيقة مهمة وأصيلة تحكم كل جوانب حياتنا الشخصية والعامة، وهي أنه ليس هناك شيء بمفرده يحقق السعادة، كما أنه ليس هناك شيء بمفرده يحقق الشقاء، أيضاً ليس هناك شيء بمفرده يحقق النجاح أو الإخفاق أو العزة أو

المهانة أو النصر أو الهزيمة.. وهذا حين نشرحه للطفل بأساليب وفي مناسبات مختلفة، يمنحه درجة عالية من التوازن في نظرته للحياة؛ وعلينا أن نوضح للطفل أن المال وحده، لا يحقق السعادة، وكذلك الصحة والجمال والنسب الرفيع والعلم والذكاء.. كما أن النقص في أي منها، لا يسبب بمفرده الشقاء أو الهزيمة أو الفشل.. كل عامل من العوامل الإيجابية، يحتاج إلى مؤازرة العوامل الأخرى حتى يكون فعالاً، وكل عامل سلبي يكون أيضاً عاجزاً عن تدمير حياة الشخص إلا إذا انضمت إليه عوامل سلبية أخرى.

هـ ـ علينا ألا نكتفي بالشرح النظري لأي (مفهوم) نريد إيصاله للصغار بسبب ضعف قدرتهم على فهم المعاني المجردة، وربما فهموا بشكل خاطئ، ولهذا فإن علينا ضرب الكثير من الأمثلة، والأولى دائماً أن تكون النماذج التي نشرحها قريبة جداً من الصغير: ابن عمتك فلان مع أنه درس في مدرسة ليست جيدة، لكنه مع هذا متفوق على كل أقرانه في الحياة، ونقول له: ابن جارنا فلان مع أنه معاق إلا أنه الأول على زملائه. والأسرة الفلانية فقيرة، لكنك تحسّ أن أولادها سعداء، وفي المقابل هناك أسر كثيرة، تملك المال، لكن الشجار والنزاع شيء مستمر في حياتها وهكذا...

> **وإني أعتقد والتاريخ يؤيدني أن الرجل الواحد في وسعه أن يبني أمة إذا صحت رجولته..**
> **ابن الساعاتي**

الشيء المهم الذي ينبغي أن لا نتجاوزه هو لزوم الحقيقة والبعد عن التهويل والمبالغة، فبعض المربين يبالغ إلى درجة قلب الحقائق، إذ إننا كثيراً ما نرى

آباء ومعلمين، يهوّنون من قيمة المال أو الذكاء أو الجمال أو الصحة.. من أجل رفع معنويات من حرم من شيء منها من الأطفال إلى أن يصلوا إلى درجة جعل هذه الأشياء من غير أي قيمة. وفي المقابل فإنهم يضخمون أحياناً الآثار السلبية للفوضى أوالكسل أو العجلة أو النزق إلى درجة جعل الطفل يعتقد أنها أشياء تقصم الظهر! ستظل الأشياء الإيجابية إيجابية والأشياء السلبية سلبية، لكن أمام الصغار والكبار دائماً مجال لزيادة الإيجابيات ومقاومة السلبيات، ومجال لتجاوز بعض النقائص من خلال استثمار بعض الكمالات على نحو مركز، كما يفعل الشاب عاديّ الذكاء حين يستثمر المال الذي لديه في الدراسة في جامعة جيدة.

٣ ـ جاء جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بفكرة محدودية الإنسان: فهمه محدود، إدراكه محدود، قدراته محدودة، سيطرته على أهوائه محدودة، وقدرته على التمتع بالأشياء أيضاً محدودة، كما أن حياته ومدة بقائه على هذه الأرض محدودة. ترسيخ هذه الفكرة في وعي الأطفال مهمة اليوم، لأن (العلمانية) تتحدث بوقاحة متناهية عن الإنسان الخارق والمكتشف القادر على كل شيء، مما يولد روح التمرد لدى الأجيال الجديدة. نحن المسلمين نعتقد بمحدودية الإنسان لأن كل الوقائع تشهد بذلك، ويكفي أن نقول: إن كل ما بذل من جهد لإيقاف تدهور صحة الإنسان مع تقدم السن، لم يتمكن من إيقاف تحول شعر الرأس إلى البياض، أو تحول العضلات القوية إلى عضلات رخوة مترهلة.. فائدة ترسيخ هذا المفهوم لدى الصغير هي جعله يشعر بالعبودية والضعف أمام الخالق ـ سبحانه ـ وجعله يطلب منه المعونة والهداية والتوفيق. ومن وجه آخر فإن الطفل حين يتمثل هذه الحقيقة، يصبح أقرب إلى الواقعية، فهو يعرف أن المحدود، لا يستطيع أن يتفادى ويتجنب كل الأشياء المكروهة والمرفوضة،

ولهذا فإنه حين يخفق، لا ييأس ولا يقنط، وحين يجتهد فإنه قد يصيب، وقد يخطئ.

ليست الأمة الفقيرة هي الأمة التي لا تملك الكثير من المال، لكنها الأمة التي يتلفت صغارها يمنة ويسرة ، فلا يجدون حولهم إلا رجالاً من الدرجة الثالثة..

٤ ـ الإنسان محدود وزائل وضعيف.. نعم لكنه ليس عاجزاً ولا قليلاً، إنه الكائن المكرّم والكائن القادر على أن يفعل الكثير الكثير من الأمور العظيمة والخيرة والنافعة. الأطفال مثل الكبار يميلون إلى الاقتصاد في بذل الجهد العضلي، وتميل عقولهم جميعاً إلى تصور الصعوبات والمستحيلات أكثر من ميلها إلى رؤية الأشياء الممكنة والسهلة. ومن هنا فإن من مسؤولية المربين تفتيح أذهان الأطفال على قدراتهم الكامنة والطاقات غير المستغلة، وهي كثيرة وهائلة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. ولدينا حقيقة ناصعة، تبعث فينا روح الرجاء، وهي أنه إذا كان للتقدم المادي ـ ومنه تقدم أجسامنا ـ حدود يقف عندها، فإن هناك إمكانية مستمرة لقول ما هو أحسن، وفعل ما هو أكمل. وفي الكتاب العزيز إيماءات تشجيعية وتحفيزية عديدة في هذا السياق، منها قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[1] وقوله: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] . مهما بلغ المرء من العلم، فإن هناك من هو أعلم منه، فليحاول أن يتعلم منه، أو من غيره، ليرتقي في مدارج المعرفة.

(1) سورة يوسف : (٧٦).
(2) سورة عبس: (٢٣).

إذا أدار المرء وقته بشكل جيد، فإنه يجد دائماً وقتاً لمزيد من التعلم ووقتاً للترفيه والترويح عن النفس..

وإن الإنسان لم يقم بما افترضه الله - تعالى - عليه على الوجه الأكمل، وأمامه ميدان فسيح لإتقان أدائه وإصلاح عمله. المفهوم الأساسي الذي سنعمل على إيصاله للأطفال في هذه النقطة هو: أن هناك مسافة بين ما نفعله، وبين ما يمكن أن نفعله حتى إن أكثر الناس جدية وأعظمهم إنجازاً يستطيعون - إن أرادوا - أن يفعلوا ما هو أكثر وأجود مما يفعلون الآن. لنقل للطفل: إن ترتيبك على مدرستك الآن هو الخامس، وتستطيع في الفصل القادم أن تكون الرابع، لكن هذا يتطلب منك كذا وكذا.. ويمكن أن نقول له: إن تعاملك مع أساتذتك يمكن أن يكون أشد لطفاً وأفضل تفاعلاً، وذلك إذا استخدمت ألفاظاً أكثر لباقة، وحاولت أن تجيب على كل الأسئلة التي يطرحونها على الطلاب. ونقول للطفل أيضاً: يمكن أن تحسّن درجة إيثارك لإخوتك من خلال زيادتك في حصتك في قضاء حاجات الأسرة.. إن كل هذه التحسينات تحتاج إلى إرادة ومجاهدة، ولكن عواقبها جميلة في الدنيا والآخرة. المهم دائماً أن نشرح له الأساليب والوسائل التي تعينه على ما نشجعه عليه.

حين نتطوع للتفكير عن الطفل، ونقوم بحل مشكلاته بالنيابة عنه، فإننا ندفع بإمكاناته الذهنية في طريق الخمول والضمور..

٥ ـ بين أحكام العقل وضغوطات العواطف نوع من التداخل والاختلاط، وأعتقد أن الطفل في حاجة إلى مساعدتنا في وضع بعض الحواجز بينها. وأود أن أقرر ابتداء أن من الصعب أن تجد صغيراً أو كبيراً لا تتأثر الأحكام التي يصدرها والمواقف التي يقفها بالعواطف المتأججة في صدره، لكن تسليط نور الوعي على هذه المسألة يخفف من المشكلة. تحدث مشادة بين الطفل وبين أحد زملائه أو أبناء الجيران، ويقع بينهما شيء من النفور، وهنا يبدأ الطفل بالشكوى ممن جافاه، حيث يذكر كلاماً لم يقله زميله، أو ينسب إليه إساءات لم تقع منه. ويحب الطفل شيئاً، ويتعلق به، فيبدأ بذكر محاسن ليست متوفرة في ذلك الشيء، كما لو أحب أستاذه أو زميله، أو أحب نوعاً من الدراجات.. إن قدرة الطفل على ضبط عواطفه محدودة، مما يجعل وقوعه في الكذب سهلاً، كما يجعل اختلاط الحقيقة بالخيال لديه أمراً وارداً. نحن مطالبون ألا نسكت على ذلك، وإنما نراجع الطفل كلما أحسسنا بأنه يتكلم كلاماً غير واقعي، أو غير معقول، ونحثه على التزام الصدق وتحري الحق والكشف عن الحقيقة. إن غفلتنا عن هذا قد تؤدي إلى حدوث تشوهات دائمة في نظرة الطفل للأشياء وفي أسلوب تعبيره عنها.

النفوس الكبيرة تبتهج بالحق، وتحترم الحقيقة..

٦ ـ حين يرتكب الأطفال والمراهقون بعض الأخطاء الكبيرة، فإنهم كثيراً ما ينظرون إليها نظرة خاطئة، وذلك عن طريق إخراج الخطأ من مجاله، وتعميمه على كل جوانب الشخصية؛ وعلى سبيل المثال فإن الطفل ـ وكذلك المراهق ـ إذا سرقت منه النقود التي أخذها من والده لشراء شيء من السوق، ثم أضاع دفتر واجباته المدرسية، وبعد مدة نسي أن عنده اختباراً شهرياً، فلم يستعد

له، فأخذ فيه درجة متدنية - إن هذه الحوادث كثيراً ما تترك لديه انطباعاً بالإخفاق التام وعدم وجود أي استعداد لديه للنجاح أو التميز؛ ولا سيما إذا كان الطفل يعيش في بيئة تركز على أخطاء من هذا النوع، وتجعل من صاحبها مادة للسخرية. الصغار يعممون الخطأ والكبار أيضاً يعممونه، وكم سمعنا من الآباء من يقول لابنه: لا خير فيك، ولا مستقبل لك؛ وذلك بسبب رسوبه في مادة أو وقوعه في غلطة سلوكية، أو وقوفه موقفاً غير لائق!.

ينتشر التهويل وتضخيم الأمور في مجتمعاتنا اليوم كما ينتشر السرطان في الجسم، وعلينا أن نتعلم كيف نضع حدوداً لذلك..

إن الشيء الذي علينا أن نطلبه من الصغار، ونطلبه من أنفسنا أيضاً، هو إدانة الخطأ، وليس إدانة الشخصية. إن الطفل أو المراهق لا يستطيع اجتناب الخطأ، لكن المرء حين يخطئ مرة أو مئة مرة، لايصبح شخصاً سيئاً أو منحرفاً، أو شخصاً لا يرتجى لأي خير أو امتياز. وحتى نقف الموقف الصحيح، فإن علينا أن نجاهد أنفسنا، ونضبط ألسنتنا، ونتجنب التهويل. وإذا كان كل خطأ يجعل صاحبه سيئاً، فهذا يعني أن الناس جميعاً سيئون، لأنه ليس فينا اليوم من لا يخطئ.

٧ - في شخصية كل واحد منا نقاط قوة ونقاط ضعف، وهذه النقاط قد تكون على مستوى الشكل، وقد تكون على مستوى القدرات والمواهب والطباع والأخلاق، وإن كثيراً من الناس يخرجون من هذه الحياة دون أن يكتشفوا تلك النقاط. الأبوان المثقفان يلمحان ما لدى أبنائهما من خصائص وميزات ونقائص؛

والمدارس بوصفها بيئات متعلمة ومثقفة، تستطيع أن تقوم بدور كبير في هذا المجال؛ وإن المسابقات واختبارات الذكاء والأنشطة (اللاصفية) تساعد مساعدة كبيرة في هذا الشأن. دلالة الناس على ما لديهم من ميزات منهج نبوي كريم، حيث إن لدينا العديد من الأحاديث التي أثنى فيها ﷺ على بعض أصحابه بذكر صفات بارزة فيهم، فأبو عبيدة أمين هذه الأمة، وخالد سيف من سيوف الله، وأبيٌّ أقرأ الأصحاب، وعمر الفاروق....

لو بذلنا من الجهد في اختيار مدارس أبنائنا مثل الجهد الذي نبذله في شراء سلعة معمرة، لحصلنا على نتائج تربوية كبيرة..

إن تفوق الطفل قد يكون فيما يملكه من صبر وجلد على الاستمرار في العمل، وقد يكون في قوة ذاكرته، أو سعة خياله، أو قدرته على التحليل والتركيب، كما أن تفوقه قد يكون في دماثة خلقه وجمال طبعه. أيضاً قد يكون لدى الصغير قصور في صفة أو أكثر من هذه الصفات، وواجب المربي تذكيره بنقاط قوته ومساعدته على صقلها وتوظيفها، ومساعدته على تجاوز ما لديه من نقاط ضعف عن طريق التخلص منها أو عن طريق محاولة التعويض، وهذا حديث متشعب لا نريد الآن الخوض فيه.

٨ ـ الشيء الأخير الذي أود التحدث عنه في قضية وعي الطفل بذاته، هو موضوع (النقد الذاتي) فنحن بني البشر مفطورون على الوقوع في الأخطاء؛ كما قال ﷺ : «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون** »[1] والبشر يقعون

(1) حديث حسن أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما.

في أنواع الأخطاء بسبب الجهل أو الهوى، وحين نتوب إلى الله ـ تعالى ـ من أخطائنا وخطايانا، فهذا يعني أننا وضعنا أنفسنا في سياق الرجوع إلى الصواب، وسياق نيل المزيد من المعرفة؛ وهذا شيء عظيم. الأطفال يقعون في الكثير من الأخطاء بسبب عدم تبلور معالم الحق والصواب في أذهانهم بالقدر الكافي؛ ومهمتنا مساعدتهم على تفهمها كلما وجدنا فرصة لذلك. ولعلي أشير في هذه المسألة إلى النقاط التالية:

كان ﷺ يحث أصحابه على التوبة، ويقول: إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة...

أ ـ تحتاج الأسرة كي تشجع صغارها على الاعتراف بالخطأ إلى إرساء تقاليد، تجعل من السهل على أي واحد من أفرداها أن يعترف بخطئه، وأن يعتذر عنه أيضاً. كلمات مثل (عفواً)، (آسف)، (لم أنتبه)، (لم أكن أعرف)، (أنا مخطئ)، (أنا مستعد لإصلاح ما أفسدته)، (سأفكر لماذا سببت لك الأذى) هذه الكلمات والتعبيرات حين تشيع في بيئة، يشعر فيها الصغار أن الكبار ليسوا مثاليين ولا معصومين، وليسوا معاندين أو مكابرين، ولهذا فإن عليهم أن يكونوا مثلهم.

ب ـ الأسرة مطالبة بأن تجعل من المفاتحة والمصارحة أسلوباً أساسياً في التعامل مع بعضها: الأب والأم يصارحان الأبناء والبنات، ويتحدثان معهم حول معظم الشأن العام الذي يخص الأسرة، ويعوِّدان الصغار أيضاً على أن يتحدثوا

عن مشكلاتهم، وعما يجول في عقولهم ونفوسهم. هذه المصارحة تجعل الأهل دائماً في الصورة، وتقلل من حجم المفاجآت غير السارة التي قد تظهر بين الفينة والفينة بسبب أخطاء الصغار.

ج ـ لا ينبغي أن تكون عقوبة الأهل لأبنائهم شديدة وقاسية إلى درجة دفعهم إلى ستر الأخطاء والوقوع في الكذب أو الهروب من المنزل، فهذا قد يشكل بداية لانحراف خطير. ينبغي أن يعرف الطفل بأنه إذا صدق في حديثه مع أهله، وروى لهم الأحداث كما وقعت، فإن العقوبة ستكون أخف من العقوبة التي ستناله إذا كذب، أو نام خارج المنزل، أو قام بخداع أهله. وإذا أعطى الأب وعداً بعدم معاقبة الطفل إذا اعترف بخطئه، فإن عليه أن يفي بوعده كاملاً. بعض الآباء يتعامل مع أبنائه بطريقة معكوسة، فهو يعاقبه إذا صدق، ويكافئه إذا كذب؛ لأنه لا يعرف كيف يكتشف كذب ابنه المراهق!.

كلما كانت مهارتنا التربوية أعلى كانت حاجتنا إلى العقوبة أقل..

د ـ قد تعودنا أن نسكت ما وسعنا السكوت، حتى إذا وقع أحد الأبناء في مشكلة عويصة صببنا جام غضبنا عليه، وبدأنا حملة قاسية من التقريع، وبعد مدة نتعب، ونمل، وننصرف إلى شؤوننا! المطلوب أولاً أن نكون قريبين جداً من أبنائنا ومتواصلين معهم حتى لا تقع أخطاء كبيرة على غفلة منا؛ وقد أشرت إلى هذا عند الحديث عن (التواصل). وعلينا ثانياً عوضاً عن اللوم أن نُشعر الطفل بأنه أخطأ، وأساء، ثم نجلس معه لنفكر في إيجاد حل للورطة التي وجد نفسه فيها، ولنفكر أيضاً في استخلاص العبرة من ذلك الخطأ أو تلك الخطيئة. ولا يكفي هذا، بل لا بد من التفكير في الاحتياطات التي على الطفل أن يأخذها

حتى لا يتكرر منه نفس الخطأ. إن مبدأ التوبة والمراجعة وتسليط الضوء على أشكال القصور مبدأ من المبادئ الإسلامية والحضارية العظيمة، وهو يحتاج إلى تطبيق وتفعيل ليس في المجال التربوي وحده، وإنما في كل مجالات الحياة.

نقد الذات يخفف من إعجاب المرء بنفسه، ويحفزه على التفوق على ذاته..

نقاط للتذكر

- ✓ حب الوالدين للطفل، وتعاطفهما معه، وإشعاره بالأمن، من الأمور التي تترك تأثيراً ممتازاً في تكوين مفهوم الذات لديه.
- ✓ من المهم أن نشجع الأطفال على المشاركة في المناقشات العائلية، وأن ندعم أسلوب التدريس الحواري في المدارس، لأن هذا يرفع من سوية فهم الأطفال لذواتهم.
- ✓ كل الأحوال التي يتقلب فيها الناس، سواء أكانت جيدة أم سيئة سارة أو محزنة.. هي أدوات اختبار في نظر المسلم، وينبغي أن نعمل على النجاح في ذلك الاختبار.
- ✓ ليس هناك شيء بمفرده يحقق النجاح أو السعادة، كما أنه ليس هناك شيء بمفرده يحقق الإخفاق أو الشقاء.
- ✓ الإنسان محدود، ووجوده على هذه الأرض مؤقت، لكنه ليس عاجزاً ولا ضئيلاً، وقد كرمه الله ـ تعالى ـ وأعطاه إمكانات كبيرة لعمل الكثير من الأشياء العظيمة.
- ✓ هناك مسافة أبدية بين ما نفعله، وما يمكن أن نفعله، ومن المهم توعية الطفل بحيثيات تلك المسافة.
- ✓ ينبغي تدريب الطفل على التفكير الموضوعي، والذي يعني إصدار الأحكام بناء على معرفة جيدة، وبعيداً عن الأهواء والضغوط الخارجية.

- ✓ حين يقع أحد الأبناء في خطأ، فإن علينا إدانة الخطأ، وليس إدانة الذات.
- ✓ ساعد الطفل على معرفة نقاط التميز والتفوق لديه.
- ✓ ينبغي أن نجعل النقد الذاتي جزءاً من أسلوب حياتنا الخاصة والعامة.

تدريبات وتطبيقات

- شجع ابنك المراهق على أن يتساءل باستمرار عن الأشياء الجيدة التي يستطيع القيام بها، لكنه لا يقوم بها.
- عوِّد الطفل أن يعلل الإنجازات التي ينجزها، والإخفاقات التي يقع فيها، وساعده على ذلك.
- الإكثار من حمد الأبوين لله ـ تعالى ـ والثناء عليه والجهر بالاسترجاع عند المصيبة، يرسخ لدى الطفل عقيدة العبودية لله تعالى.
- اذكر أمام الطفل الأشياء التي لا يستطيع القيام بها من أجل ترسيخ فكرة (المحدودية) لديه.
- ينبغي أن تشتمل مكتبة المنزل على كتيبات تحكي السيرة الذاتية لعدد من عظماء الأمة، ولا سيما الذين نشأوا في ظروف صعبة.
- حاول أن تنبه الطفل على المواقف التي يقفها نتيجة الانفعال والاستجابة للعاطفة بعيداً عن أحكام العقل.

٣. مبادئ حياتية عامة

إذا أردنا أن نؤسس عقلية الطفل على نحو صحيح، فلا بد لنا من أن نهتم بترسيخ عدد من المبادئ الجوهرية التي تمكنه من فهم طبيعة الحياة وطبيعة الأحياء. إن فهم المبادئ العامة التي تتحكم بحركة الإنسان على هذه الأرض والتي تتحكم بعلاقاتنا مع الآخرين، سيساعدنا على تجنب الكثير من خيبات الأمل، وسيحمينا من الوقوع في كثير من الأخطاء الكبرى. أنا لا أستطيع في كتاب كهذا أن أتحدث عن كل المبادئ الكبرى للحياة، لأنها كثيرة، ولذا فسأختار منها ما أعتقد أنه الأكثر أهمية. التحدي الذي يواجه المربين هو العثور على أساليب سهلة لشرحها حتى يستوعبها الصغار، والعثور على الفرصة المناسبة لتقديمها إليهم؛ إذ إن وجود المناسبة، يجعل استعداد الصغار لقبولها والتفاعل معها أكبر. وأعتقد أن المدارس أقدر من كثير من الأسر على شرح هذه المبادئ وإغنائها بالأمثلة والنماذج التي تقربها إلى أذهان الأبناء:

نهدف من وراء معرفة سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق إلى تجنب الاصطدام بها..

١ ـ مهما عرفنا، فسيظل ما نعرفه قليلاً بالنسبة إلى ما نجهله:

كم هو جميل أن نرى النهايات ونحن ما زلنا في البدايات، إن ذلك سيمنحنا درجة عالية من وضوح الرؤية، ودرجة عالية من التوازن. الطفل وهو في المرحلة الابتدائية، لا يعرف عن حقائق الكون إلا أقل القليل، فإذا دخل مرحلة المراهقة، صار عنده نوع من الجموح في المشاعر والتصورات، وصار لديه قدر كبير ومبالغ فيه من الاعتزاز بما يعرف. ونحن لا نريد لأحد أن يشعر

بالضآلة أو احتقار الذات، لكن نريد للصغار والكبار أن يعرفوا مدى صلابة الآراء التي يحملونها، والأحكام التي يصدرونها على الناس وعلى الأشياء. القرآن الكريم يقرر ضآلة ما لدينا من معرفة حين يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] . إن صلتنا بالكون قائمة على منافذ وأدوات إحساسنا به، أي عن طريق الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس وهذه الحواس محدودة الفاعلية، فنحن لا نعرف ماذا يجري في بيت جيراننا، ولا نعرف من حوادث الوجود المتجددة إلا أقل القليل، والذي لا يكاد يذكر، وهناك مخلوقات كثيرة، لا تقع في مدى تناول أي حاسة من حواسنا. أضف إلى هذا أن في كل ظاهرة من ظواهر الوجود وفي كل مخلوق وكل قضية.. عناصر غيبية، استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمها، كما أن الحقيقة طبقات بعضها فوق بعض، وكلما عرفنا طبقة برزت طبقة أخرى، تحتاج إلى بحث وإلى تأمل حتى نعرفها. دعونا نشرح هذه المسألة للأطفال عن طريق طرح الأسئلة، حيث نجد أن هناك حيثيات كثيرة ليس للتساؤل عنها أي جواب. بيد الطفل (ابن العاشرة) كتاب يمكن أن نوجه إليه أسئلة عديدة حوله، وهو يجتهد في الإجابة، ويدور الحوار على النحو الآتي:

يكف الناس عن رصد كثير من الحقائق وكشفها بسبب عدم شعورهم بالحاجة إليها..

ـ ما اسم هذا الكتاب ومن مؤلفه؟ وكم عدد صفحاته؟

---

(1) سورة الإسراء: (٨٥) .

ينظر الطفل إلى الغلاف، ويقول: اسمه كذا، ومؤلفه هو فلان، ثم يقوم بتقليب صفحاته ليعرف عددها، ثم يخبرنا عنها.

هل هذا الكتاب كتاب فقه؟

ـ نعم.

ـ كم مرة طبع هذا الكتاب ؟

ـ لا أعرف.

ـ طبع خمس مرات.

ـ كم شخصاً قرأ هذا الكتاب؟

ـ لا أعرف.

ونحن أيضاً لا نعرف.

ـ كم شخصاً استفاد من هذا الكتاب؟

لا أعرف.

ـ نحن أيضاً لا نعرف.

ـ كم عدد الذين اشتروا هذا الكتاب، ثم شعروا بالندم على ذلك؟

ـ الطفل: لا أعرف.

ـ نحن أيضاً لا نعرف.

إن ما نعرفه يتضاءل في كل ساعة بالنسبة إلى ما لا نعرفه..

أسئلة كثيرة يمكن أن نلقيها على الطفل حول ذلك الكتاب، ويجد نفسه - ونحن كذلك - عاجزاً عن الإجابة عنها، وهذا معنى قولنا: إن الحقيقة طبقات، وقولنا: إن في كل ظاهرة عناصر غيبية ليس في إمكان البشر معرفتها.

الموقف الموضوعي الذي يجب أن نعلمه للأطفال تجاه هذه الظاهرة الكبرى هو:

- التواضع لله - تعالى - والاعتراف بضعفنا ومحدودية علمنا.

- عدم ادعاء معرفة ما لا نعلمه.

- بذل الجهد لنحصل على أكبر قدر من العلم النافع.

- لن نعرف كل شيء، لكن نريد تقليل نسبة جهلنا.

- ما دمنا لن نستطيع تعلم كل شيء، فإن علينا إذن أن نتعلم ما هو أعظم أهمية وأكثر إلحاحاً.

٢ - كل شيء إذا همشته خسرته:

إن كثيراً من الأشياء، يحافظ على حيويته، ويكبر وينمو، ويستفاد منه إذا ما ظل داخل دورة الحياة، وفي نطاق الخدمة، فإذا عزلناه، وأهملناه، وأبعدناه، لأي سبب من الأسباب، فإنه قد يموت، أو يضعف، وبالتالي فإننا قد نخسر الانتفاع به. التفاعل مصدر لخير عظيم، والتهميش يحرمنا من التفاعل. نحن نريد شرح هذا المبدأ للطفل من أجل فهم طبيعة الحياة أولاً ومن أجل الانتفاع الجيد بكل ما أتاحه الله - تعالى - لنا من نعم وإمكانات. وهذه بعض الأمثلة التي يمكن أن تساعدنا في شرح هذا المبدأ للأطفال.

في اللحظة التي تفارق فيها الورقة غصنها تبدأ في رحلة الذبول متجهة نحو الفناء..

أ - حين يرقد الإنسان في سرير المرض عدداً من الشهور، فإن هناك إمكانية لتراجع عضلات ساقيه، وحين يتماثل للشفاء، فإنه قد يحتاج إلى إعادة تأهيل حتى يتمكن من المشي بقوة ونشاط؛ وكل ذلك بسبب التوقف عن المشي مدة طويلة. هذا يعني أن الطفل إذا ترك الرياضة، فلن تكون لديه عضلات قوية، وستكون درجة لياقته منخفضة. إن ترك الرياضة ينطوي على نوع من التهميش ونوع من الحرمان للعضلات من أن تأخذ حظها من النمو، وبالتالي فإننا نحرم أنفسنا من الانتفاع بها على الوجه الأكمل.

ب - حين يجلس الطالب في الصفوف الخلفية من الفصل الدراسي، أو يجلس في إحدى الزوايا، فإنه يعرِّض نفسه للتهميش، إنه يصبح بعيداً عن المدرس، ويصبح تفاعله معه ضعيفاً، إنه ينشغل عن متابعته، ولا يجيب عن أسئلته، ولا يشارك - في الغالب - زملاءه في سؤال المعلم عن الأمور غير المفهومة. هذا يعني أن معظم الطلاب الجادين، يحرصون على الجلوس في الصفوف الأمامية، ولا يرتاحون للجلوس في الصفوف الخلفية، وهذا هو الواقع في معظم الأحيان. الدرس الذي نعلمه للطفل هو لا تهمش نفسك، بالابتعاد عن المدرس، ولا تهمش دورك برفضك تحمل المسؤولية.

> « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف »
>
> حديث شريف

ج - الإمكانات العقلية تنمو من خلال استخدامها، فالذاكرة تصبح أقوى من خلال الإكثار من الحفظ، والخيال يصبح أشد خصوبة من خلال التخيل.. إذا لم

يهتم الطفل بالحفظ، ولم نساعده عليه، وإذا فكرنا عن الطفل، وظل دائماً في دائرة المحسوس والمنظور، فإن من الطبيعي أن تكون ذاكرته ضعيفة، وأن يكون خياله محدوداً ومجدباً. عدم الحفظ هو تهميش للذاكرة، وعدم التدرب على التخيل هو تهميش للخيال، والنتيجة هي خسارة ميزات هذا وتلك. لنساعد الطفل على حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، ولنساعده كذلك على حفظ مختارات من صحيح السنة النبوية ومختارات من الشعر الفصيح ومن الحكم والأمثال ويمكن أن يتم ذلك من خلال جدول يومي للحفظ. وتكون البداية بعد أن يكمل الطفل السنة الرابعة من عمره. في الوقت نفسه لنساعد الطفل على التخيل من خلال إلقاء بعض الأسئلة عليه والطلب منه الإجابة عنها، وذلك كأن نطلب منه أن يتخيل كيف سيكون الحال إذا حدث الآتي:

- إذا لم ينظف الواحد منا أسنانه قط.
- إذا لم يسقط المطر طيلة عام كامل.
- إذا بقي الواحد منا سنة كاملة، وهو لا يأكل إلا لوناً واحداً من الطعام.
- إذا كان لدينا حيوان أليف، ولم نهتم به.

نناقش الطفل فيما يقوله، ونوضح له صواب ما تخيله من خطئه. المهم أن يتلاءم نوع السؤال ودرجة صعوبته مع سن الطفل ومداركه.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾

قرآن كريم

٣ ـ لكل شيء طاقة على التحمل:

كل مخلوقات الله مهما كانت عظيمة وقوية تظل محدودة، ولها إمكانات محدودة. مهما كان بصر المرء حاداً، فإنه يرى الأشياء ما دامت في مدى معين، ومهما كان سمعنا مرهفاً وقوياً، فإننا لا نسمع الأصوات إلا إذا كان مصدرها في حدود مسافة معينة وهكذا..

ومحدودية الطاقات والإمكانات لا تقتصر على الأجسام والمواد والأشياء المحسوسة، وإنما تتجاوزها إلى الأمور المعنوية أيضاً. وحتى يتشرب الأطفال هذا المفهوم المهم، فإن علينا أن نسوق الكثير من الأمثلة، وهذه مساهمة صغيرة في ذلك.

أ ـ إن للحديد الذي نضعه في أعمدة الأبنية وأسقف المنازل طاقة محدودة على التحمل مهما كان ذلك الحديد غليظاً وثقيلاً وصلباً، وإذا حمّلناه فوق طاقته، فإنه سينحني في النهاية، ونفقد مع انحنائه ميزاته ووظائفه التي استخدمناه من أجلها، وهذا شيء ملموس ومشاهد.

ب ـ للضمير والرادع الداخلي طاقة محدودة على التحمل، فنحن نمتنع عن كثير من القبائح بسبب ذلك الصوت النوارني الذي يجلجل في أعماقنا ناهياً ومحذراً من الوقوع في المعصية، وموبخاً على التفكير في الوقوع فيها، وهذا الوازع يختلف من شخص إلى آخر بحسب معتقدات المرء وبحسب التربية التي تلقاها، لكن هذا الوازع ذو طاقة محدودة على العمل، كما أنه لا يشتغل إلا ضمن شروط معينة، ولنضرب مثالين على هذا:

الإنسان ضعيف ودعواه عريضة..

الأول: حين يجوع المرء إلى درجة الانهيار، فإنه يسوّغ لنفسه سرقة الطعام، وتناول بعض الفاكهة من أحد البساتين المجاورة دون استئذان صاحبه، وهذا العمل ليس خاطئاً إذا أكل على قدر الحاجة، وكانت حاجته إلى الطعام شديدة جداً، لكن من الواضح أن المرء يتعفف في أوقات الرخاء عن أشياء كثيرة، لا يجد أي حرج في أخذها عند الوقوع في شدة شديدة.

الثاني: كثير من الصغار والكبار، يحرصون على الالتزام بالصدق وقول الحق، ويحاولون تجنب الكذب وشهادة الزور، والحقيقة أن المسلم حين يكذب، يؤنبه ضميره، بل إنه يحذره من خطورة الكذب عند مجرد همه به. حين يشعر طالب المدرسة ـ مثلاً ـ أن قول الصدق سيؤدي إلى طرده من المدرسة، أو يشعر الطفل أن الكذب سيجعله يفلت من عقوبة قاسية، فإن كثيراً من الأطفال يجدون لأنفسهم المسوغ للإقدام عليه. إذن الضمير يضعف أمام ضغوط الخسائر والعقوبات، كما أنه يضعف أمام ضغوط المغريات، ومن هنا فإن التاجر الذي يعتقد أن الكذب في بيان سعر إحدى السلع لديه ـ سوف يجعله يكسب مبلغاً كبيراً من المال، يستهين بالكذب، ويقع فيه، وبذلك يفقد (الضمير) فاعليته، لأن قدرته على التأثير والردع تظل ـ كما ذكرنا ـ محدودة.

ما الدرس الذي نلقنه للأطفال بناء على فهم هذا المبدأ؟

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة »

حديث شريف

الدرس هو: أن على العاقل أن يحرص على عدم وضع نفسه في مواقف صعبة ومحرجة حتى لا يجد نفسه ضعيفاً، مما يجعله يستهين بالوقوع في الخطأ، وإلى جانب هذا، فإن علينا أن نشرح للطفل أن الذي يستجيب للحسِّ الأخلاقي الذي لديه، يكون هو الرابح على المدى البعيد، وإن ظهر أنه خاسر على المدى القصير. وفي كل الأحوال فإن استجابة المرء لضميره والتزامه بأحكامه، يعبر عن متانة تدينه وحسن تربيته وحسن عاقبته؛ بإذن الله.

أما الدرس الذي نستفيده نحن الكبار من مسألة محدودية طاقة الضمير على الردع، فهو عدم الضغط على الصغار، وعدم تشديد العقوبات عليهم إلى درجة تجعل (الضمير) يتوقف عن عمله، بل علينا الالتزام بالرفق والمسامحة، وجعلهما الأصل الذي لا نخرج عنه في تربية الأبناء إلا لضرورة ملحة.

ج ـ الصداقة والقرابة لها طاقة على التحمل، ولا شك أن من حق الصديق، ومن حق القريب تلقي الدعم والمساندة من الأقرباء والأصدقاء، لكن من المهم أن ندرك أنه ليس لنا أن نطلب مساعدة بلا حدود، ولو كان القريب أباً أو أماً، أو كان الصديق أعز من أخ ـ كما يقولون ـ لأن المرء ينوء أحياناً بأعبائه الشخصية، فكيف لا ينوء بأعباء أقاربه وأصدقائه. إذا كان الصديق أو القريب يطلب منك كل يوم خدمة أو قرضاً، أو يصر على دخول بيتك والجلوس معك، فهذا يعني أنه يحمّل القرابة أو الصداقة فوق ما تحتمل، والنتيجة معروفة، وهي حصول الجفاء بعد مدة، وانقطاع حبال المودة، وإذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن الكثير من العداوات التي تنشب بين الأهل ـ على نحو أخص ـ ينشأ من توقع بعضهم من بعض درجة عالية من التضحية والرعاية والمساعدة، وحين لا يتحقق توقعهم، تبدأ الغيبة والعتاب، ثم تكون القطيعة.

مع أن للتضحية حدوداً لكن لا بد منها لاستقامة حياتنا الاجتماعية..

الأطفال في حاجة ماسة إلى استيعاب هذه الحقيقة، لأنهم يعتمدون كثيراً على غيرهم، ولا يدركون على نحو جيد اللائق من غير اللائق في العلاقات الاجتماعية. ونحن نعرف أن من الآداب التي حث عليها نبينا ﷺ الاستغناء عن الناس مهما كان ذلك ممكناً، وإنزال الحاجات بالله ـ سبحانه ـ فهو الغني الكريم الحميد، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنة؟** فقال ثوبان ﷺ : أنا يا رسول الله. فكان ثوبان لا يسأل الناس شيئاً »[1]. لنجعل من هذا المعنى أساساً لتنمية الشعور بالمسؤولية الشخصية لدى الأطفال، والحرص على القيام بالشأن الخاص إلى أقصى درجة ممكنة.

٤ ـ لكل شيء ثمن:

زرغباً تزدد حباً..

حديث شريف

هذه الحياة دار ابتلاء:ابتلاء بالنعماء والسراء، وابتلاء بالآلام والشدائد والكروب، ولهذا فإن كل واحد منا مبتلى ومختبر. من المهم أن يعي الأطفال هذه المسألة في وقت مبكر، لأننا نريد أن تدخل في التكوين العميق لعقولهم ونفوسهم بسبب أهميتها البالغة في توجيه السلوك، وتنظيم ردود الأفعال. يجب أن نوضح للأطفال أنه ليس هناك وضعية من الوضعيات، تحوز على كل الميزات، كما أنه

---

(1) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

ليس هناك وضعية، فيها كل العيوب والسلبيات، وإن أي وضعية نتمتع بإيجابياتها، علينا أن نكون على حذر من الوقوع في سلبياتها. ونظراً لتعقد حياتنا المعاصرة، واشتداد المنافسة، وارتقاء متطلبات العيش الكريم، فإن الأشياء التي نحصل عليها مجاناً، تتناقص يوماً بعد يوم، فكما أننا أصبحنا ندفع قيمة مياه الشرب النقية اليوم، فربما وجدنا أنفسنا مضطرين إلى دفع ثمن الهواء النقي غداً! وسنذكر بعض الأمثلة التي تساعد المربين على توضيح هذا المبدأ:

أ ـ حين ننعم بالراحة التامة، ونركب السيارة حتى من أجل قطع المسافات القصيرة، ونجد من يقضي لنا الحاجات حتى حمل الحقيبة الشخصية، فإن علينا أن نتوقع إصابة أجسامنا بالترهل، كما أن علينا أن نتوقع الشعور بمشاعر العوز والحاجة الكبيرة إلى الآخرين، مما يولد لدينا الشعور بالضعف والتبعية لغيرنا، ومنهم أولئك الذين يقومون على خدمتنا.

ب ـ حين نتمتع بألوان الأطعمة، ونأكل بشره وشهية من غير قيود، فإننا نشعر باللذة وشيء من النشوة، لكن علينا أن نتذكر أن هذا لن يكون من غير ثمن، ولا سيما مع تقدم السن، حيث إن من المتوقع أن نصاب بالسمنة وزيادة الوزن، والتي تجلب معها سلسلة من الأمراض الخطيرة.

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قرآن كريم

ومن الملاحظ أن السمنة قد انتشرت بين الأطفال على نحو غير مسبوق، والمقاصف المدرسية توفر كل ما يفتح شهية الطلاب، وبعض ما يباع فيها ليس

هو الأفضل لصحتهم، ولذا فلا بد من شرح هذا المبدأ، وترسيخ مدلولاته لدى الناشئة. وتأسيساً على هذا المعنى قالوا: إنك لا تستطيع أن تعيش حياتك بالطول والعرض، أي إن الذي يرغب في حياة مديدة مع قليل من المشكلات الصحية، فإن عليه أن يضع العديد من القيود على تلبية رغبات جسده، وإلا فمن الأرجح أنه سيعيش حياته بالعرض فقط[1].

ج ـ على الطالب حتى ينجح بتفوق أن يبذل جهداً مركزاً في دراسة المواد والمقررات التي سيمتحن فيها، لكن هذا مكروه لدى معظم الطلاب، حيث يرغب كثيرون منهم في عدم قراءة أي كتاب، ويرغب بعضهم في المطالعة الحرة والمزاجية، وهم يستمتعون بذلك.

حين يكون الطفل في حالة نفسية سيئة، فإن من الملائم تذكيره بنعم الله عليه وبالأشياء الجميلة في حياته..

والحقيقة أن كل واحد منا يحب أن يكون حراً في اختيار ما يقرأ، وليس الطلاب فحسب، لكن لممارسة الطالب لهذه الحرية ثمن، يجب أن يدفعه عن طيب خاطر، وهو الرسوب أو النجاح بدرجات متدنية.

الأفضل من تسويغ أخطاء الصغار هو تعليمهم كيف يتحملون عواقب أعمالهم...

(1) لاشك في أن الأعمار بيد الله ـ تعالى ـ ، لكن على المسلم أن يأخذ بأسباب العافية؛ ومن الملاحظ في هذا الشأن أن من النادر جداً أن ترى شخصاً قد بلغ الخامسة والتسعين من عمره وهو بدين، وهذا ذو دلالة واضحة على ما نقول.

الخلاصة هي: أن الصغار والكبار على حد سواء، لا يستطيعون الحصول على كل شيء، ولهذا فإن علينا أن نعرف ماذا نأخذ، وبماذا نضحي، وإذا أخذنا شيئاً، أو اخترنا وضعاً معيناً، فإن علينا محاولة رؤية ما يترتب عليه من سلبيات، كما أن علينا محاولة تلطيف تلك السلبيات، والحد منها على قدر الاستطاعة. ومن وجه آخر، فينبغي أن نوضح للأطفال أن لبلوغ المعالي ثمناً لا بد من دفعه، لكن اللذة التي سيجدونها، والمجد الذي سينعمون به سوف ينسيهم المتاعب والمشاق؛ وإن أعلى وأشرف ما نسترخص فيه البذل هو الفوز برضوان الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإكرامه وفيوض بركاته.

٥ ـ لا حدود لإشباع الرغبات:

هذا مبدأ يتصل بالطبيعة البشرية، فالإنسان ذو طموحات واسعة، لا تتوقف عند حدود، ومهما أعطي من طول العمر، وقوة البدن، وجمال الشكل وكثرة المال ونفوذ الجاه... فإنه سيظل يتطلع إلى المزيد؛ وقد عبر عن هذه الحقيقة القرآن الكريم، حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [1] كما عبر عنها النبي ﷺ بقوله: «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فمه إلا التراب** [2]**، ويتوب الله على من تاب**» [3].

> **المسلم الملتزم يتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بمقاومة شهواته، ويبحث دائماً عن سبل مشروعة لتحقيق مصالحه...**

(1) سورة فصلت: (٤٩).
(2) أي لا يزالا حريصاً على الدنيا حتى يموت ويمتلئ فمه من تراب قبره.
(3) رواه الشيخان.

وقد قال أحد الحكماء: (إن ما في الأرض من خيرات كافٍ لسد حاجات كل الناس، لكنه ليس كافياً لتلبية رغبات رجل واحد).

نحن الكبار في حاجة إلى استيعاب هذه الحقيقة والعمل بها لأنها تحول بيننا وبين الاندفاع الأحمق نحو تكديس الثروات ومراكمة المنافع على حساب أشياء كثيرة مهمة. صغارنا أيضاً في حاجة إلى فهم هذه الحقيقة حتى يبدأوا حياتهم بداية صحيحة. لنلقن الأطفال فكرة أن الشعور بالعوز نحو الكثير من مشتهياتهم سيظل ملازماً لهم، وكل الأشياء التي يتطلعون إلى الحصول عليها ستبدو حين تصبح في حوزتهم أقل إمتاعاً مما كانوا يتوقعون، ولهذا فإن على كل واحد منهم أن يتناول مرغوباته باعتدال وبطريقة مشروعة. إن الطفل ابن العاشرة يستطيع فهم هذا المبدأ بسهولة من خلال تذكيره ببعض الأشياء التي كان يظن أنه إذا حصل عليها، فلن يطلب أي شيء آخر، وكيف أنه حين صارت في يده أخذ يتطلع إلى ما هو أكثر منها.

٦ ـ معظم الأشياء والأحداث قابل لأن يرى بطرق مختلفة:

الناس لا ينظرون دائماً إلى الأشياء والأحداث بطريقة موحدة أو مجردة، وإنما ينظرون إليها من زوايا مختلفة ومنظورات متباينة، ولا يعني هذا ـ بالطبع ـ أن كل الناس على صواب في تفسير الأحداث وتحديد مواقفهم من الأشياء، وإنما يعني أن كثيراً من الحقائق ليس صلباً وواضحاً بالقدر المطلوب لتوحيد الرؤى والآراء حوله. الغرض من هذه الفكرة هو مساعدة الطفل على تأسيس رؤية خاصة به ومساعدته كذلك على جعل أفكاره تتسم بالإيجابية والتفاؤل، كما أن استيعاب هذا المبدأ يجعل الطفل أكثر تسامحاً تجاه المخالفين. إن في إمكاننا شرح هذا المبدأ للأطفال بواسطة العديد من المقولات والأمثلة:

لا تغبطوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأموات..

أبو بكر الصديق

أ ـ كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: ما أصابتني مصيبة إلا حمدت الله ـ تعالى ـ فيها على ثلاثة أمور:

الأول: أنها لم تكن في ديني.

الثاني: أنها لم تكن أكبر مما وقع.

الثالث: الثواب الذي أرجوه عليها.

كلما اتجهنا نحو الأصول والكليات وجدنا أنفسنا متفقين، وكلما اتجهنا نحو الفروع والجزئيات وجدنا أن الخلاف شيء لا يمكن التحرز منه.

إنه ﷺ يعلمنا كيف نهوّن الخطوب على أنفسنا من خلال الاعتقاد بأن الشر الذي يصيب الواحد منا مهما كان شديداً ومؤلماً، فإنه ليس الأسوأ، إذ إن هناك دائماً ما هو أسوأ، وعلينا أن نحمد الله ـ تعالى ـ على ما جرى حيث إنه لا يخلو من اللطف الإلهي.

إن كل مصائب الدنيا من فقد الأهل والمال وانتكاس الصحة وتفويت بعض المصالح، يعد هيناً أمام ما يمكن أن يتعرض له المرء في دينه من الوقوع في ضلالة أو الجناية على بريء... وحين نفترض أن ما حلّ بنا بلغ الغاية في الشدة والإيذاء، فإن علينا أن ننظر إلى الثواب الذي أعده الله ـ تعالى ـ لأهل البلاء

الصابرين من عباده المؤمنين. وكأن عمر ﷺ يقول لنا: إن المؤمن إذا صبر على ما أصابه تحولت المحنة التي تعرض لها إلى منحة، يتجلى فيها كرم الرب؛ جل وعلا.

الطفل الذي يعيش في بيئة آمنة يتعلم حسن الظن. والطفل الذي يعيش في بيئة كثيرة الشكوى يتعلم الشجب..

ب ـ قالوا: مصائب قوم عند قوم فوائد ويمكن أن نقول: فوائد قوم عند قوم مصائب. حين تصطدم سيارتان، فإن صاحبيهما يتأذيان من ذلك. وينظران إلى ما حدث على أنه شر أو مصيبة. أما (السمكري) الذي سيتولى إصلاحهما، فإنه ينظر إلى ذلك على أنه باب رزق وفرصة لتشغيل عماله.

إن الأب الذي ينوء بنفقات أسرة كبيرة، قد يرى في إخراج ابنه الصغير من المدرسة لمساعدته في مزرعته أو متجره ـ شيئاً ضرورياً، لكن الأقرباء والأصدقاء يرون في ذلك جناية على الصغير وعملاً مؤذياً على المدى البعيد، وما ذلك إلا لأنه ينظر من زاوية والآخرين ينظرون من زاوية أخرى. الأب حين يقسو على ابنه ويُنزل به العقوبة، يشعر بأن تحمله لمسؤولية التربية يوجب عليه ذلك. أما الأم والجدة والجيران، فقد يرون في أسلوبه غلظة غير سائغة وهكذا...

إذا اتفق شخصان في كل آرائهما، فلا حاجة لواحد منهما..

إن الرسالة التي سنحرص على إيصالها للأطفال من خلال هذا المفهوم أو المبدأ هي أن المعايير التي يستخدمها الناس في تقويم الأشياء والأحداث والمواقف، ليست موحدة، وبالتالي فإنه إذا اختلف شخصان في تحليل حدث من الأحداث، فقد يكون الحق مع أحدهما، وقد يكون مع كل واحد منهما شيء منه، وقد يكون مع شخص ثالث، ولهذا فإن علينا أن نتعامل مع الاختلاف برحابة صدر. وكما أن نظرة الناس للأشياء والأحداث تختلف، فإن مصالحهم أيضاً تختلف، واختلاف المصالح شيء مشروع، والمهم دائماً أن نصل إلى مصالحنا بطرق مشروعة وغير عنيفة.

مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب.
الإمام الشافعي.

ج - المسلم الواثق بالله - تعالى - المؤمن بقضائه وقدره ورحمته بعباده - ينظم ردود أفعاله تجاه الأحداث المختلفة على نحو فريد ومغاير لما يصدر عن غيره، إنه حين يقع حدث يجد فيه الخير والنعمة، يشكر الله - تعالى - على ذلك، ويثني عليه، ويستخدم النعمة في مرضاته، وهو يعتقد أن تلك النعمة ابتلاء ابتلاه الله به، كما يعتقد أنه بالشكر، يؤهِّل نفسه لنيل نعمة جديدة، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[1]. وحين تصيب المسلم مصيبة، يعتقد أيضاً أنها ابتلاء من الله - تعالى - والنجاح في ذلك الابتلاء يكون بالاسترجاع والصبر والاحتساب، وحين يفعل

(1) سورة إبراهيم: (٧).

ذلك، فإن ما يتوقعه من رحمة الله ومثوبته يخفف من آلامه، ويشيع في أرجاء نفسه الأمل والاستبشار، وما أجمل قول الله ـ تعالى في هذا المعنى حين يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1].

القلق لا يجرد المستقبل من مآسيه، لكنه يجرّد الحاضر من أفراحه..

أما غير المسلم، فإنه في حالة النعمة، لا يعرف من يشكر، ولا يعرف كيف يستخدم هذه النعمة في مراضي الله، وحين يصاب بمصيبة فإنه يصبح نهباً للجزع والهلع، ويجد نفسه وحيداً في مواجهة الأهوال، حيث لا ناصر ولا معين. والحقيقة أن موقف الإنسان المسلم في أمر الابتلاء موقف فريد، كما دل عليه قوله ﷺ : «**عجباً لأمر المؤمن، كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** »[٢]. إذن يجب أن نوضح للأطفال أن علينا أن ننظر إلى ردود أفعالنا على الأحداث، وأن نركز عليها، وليس على طبيعة الأحداث التي تقع، أي أن المسلم بشكره وصبره وحسن تصرفه يحيا حياة طيبة موصولة بالمزيد من كرم الله وإحسانه. وحين يفهم الأطفال هذه الحقيقة، فإننا نتوقع منهم أن ينظروا نظرة إيجابية متفائلة للحياة من حولهم، إننا حين نرى كأساً، قد ملئ إلى نصفه ماءً، فإن في إمكاننا أن نقول: إن نصف هذا الكأس فارغ، فنكون من جملة الذين يشكون، ويتأففون، ويمكن أن نقول: إن نصفه مملوء، فنكون ممن يفرح بالقليل،

---

(1) سورة البقرة: (١٥٥-١٥٧)
(2) رواه مسلم.

ويحاول تكثيره. المهم ألا نكثر من الشكوى أمام الأطفال حتى لا نبعث في نفوسهم الملل واليأس والإحباط، وندفعهم إلى رؤية الأشياء بمنظار أسود.

إن الهموم بقدر الهمم

٧. صدمات الحياة، تكون كبيرة، ثم تصغر:

هذه سنة من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق، حيث إن الناس يتوقعون الخيرات والمسرات وألوان المرفهات، ويستمدون كثيراً من مباهجهم من الآمال التي ينتظرون تحقيقها، فإذا حدث ما يخالف توقعاتهم تألموا وجزعوا، لكن من الواضح أن البارئ ـ تباركت أسماؤه ـ قد زودنا بإمكانات هائلة للتكيف مع المصائب والآلام وكل المزعجات؛ وهذا من الأمور الملموسة، فالألم الذي نواجهه في اللحظة الأولى لوقوع الضراء، يكون في الساعة الثانية أقل، وفي الساعة الثالثة أقل وأقل، وهكذا يتراجع شيئاً فشيئاً إلى أن يتلاشى، وبعد ذلك ننظر إليه، وكأنه كان شيئاً طبيعياً، بل ربما أدركنا ما فيه من إيجابيات، ولهذا فالتماسك المطلوب من الواحد منا هو التماسك في لحظة وقوع المصيبة، وقد قال ﷺ : «**الصبر عند الصدمة الأولى** »[1]. وقال: «**الصابر الصابر عند الصدمة الأولى** » [2].

كما أننا تجاوزنا كثيراً من شدائد الماضي، فإننا بعون الله قادرون على تجاوز شدائد الحاضر لتصبح جزءاً من التاريخ..

---

(1) متفق عليه.
(2) متفق عليه.

وقد عبروا عن هذه الحقيقة بقولهم: (كل شيء يكون صغيراً، ثم يكبر إلا المصيبة، فإنها تكون كبيرة ثم تصغر) إن الأطفال بسبب ضعف خبرتهم في الحياة، يحتاجون إلى معرفة هذا المبدأ أكثر بكثير من الكبار، وكم سمعنا من الأطفال والمراهقين من يقول: لا أستطيع العيش دون صديقي فلان، ومن يقول بعد ظهور رسوبه في الامتحان انتهى كل شيء، ولا أمل بعد اليوم، ومن يقول إذا لم يدخل التخصص الذي يحبه: الدراسة في غير هذا التخصص وعدمها سواء..

إنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تؤمل إلا بالصبر على ما تكره..
علي بن أبي طالب

علينا أن نبين للأطفال أن الذين يقولون عند المصائب الكبرى: انتهى كل شيء، ولا معنى للحياة بعد اليوم - لا يحصون عدداً، لكننا نجد بعد مدة أن كل شيء قد عاد إلى طبيعته، وانخرط أولئك القانطون في دورة الحياة من جديد، وهكذا نحن جميعاً، وقد قالوا: إذا أردت أن تعرف المستقبل، فانظر إلى الماضي، والماضي يقول لنا: رغبة الناس في الحياة قوية جداً وقدرتهم على مواجهة الصعاب هائلة، وما يُظن أنه شيء لا يحتمل في البداية، يظهر بعد مدة أن هناك من يصبر عليه ويتجاوزه بسهولة. ومن اللطيف في هذا السياق ما أشارت إليه إحدى الدراسات التي أجريت على مشلولي الأطراف الأربعة من أن ما يشعرون به من السعادة، لا يختلف كثيراً عما يشعر به الأشخاص العاديون، ولكن حين تمت إعادة الدراسة عليهم بعد عشرين سنة، وجد أن شعورهم بالسعادة تراجع قليلاً، ربما بسبب كبر السن أو الملل أو زيادة الوزن.. الطفل حتى يستوعب هذا المعنى قد يحتاج إلى أن نذكر له بعض الحوادث التي اطلع عليها، وذلك كأن

نذكره بما قاله فلان ابن الجيران حين رسب في الامتحان، وبما قاله ابن عمه فلان حين فقد أمه، وما قاله فلان من الأصدقاء حين فقد كل ماله.. إن كل أولئك عبروا عن مشاعر مفعمة باليأس والألم، لكن إذا نظر إليهم الآن، فسيجد أن كل شيء قد عاد إلى طبيعته.

٨ ـ سيجد الناس دائماً شيئاً لا يعجبهم:

المهم دائماً ليست منزلتك لدى الناس، ولكن منزلتك لدى نفسك

يغلب على المراهقين الاهتمام المبالغ فيه بأقوال الناس وآرائهم ونظراتهم إليهم، حيث تجد الواحد منهم يهتم بتسريح شعره وألوان ثيابه وطريقة مشيه، وما يظهر للناس من ممتلكاته.. وكأن الناس جميعاً ينظرون إليه، ومن خلال ذلك النظر سيصدرون عليه أحكاماً نهائية، لا تقبل أي استئناف! وهذه الوضعية لدى المراهقين، تسبب لهم ولأهليهم الكثير من الإزعاج، والكثير من سوء التفاهم. المبدأ الذي سنعرضه الآن، قد يساعد على تخفيف هذه المشكلة. من الواضح أن طموحات الناس ليست على درجة واحدة، والمعايير والأسس التي يستخدمونها في (تقييم) الأشياء وبيان ميزاتها وسلبياتها أيضاً ليست واحدة، كما أن أذواقهم متباينة تبايناً شديداً، ولهذا فإن ما يستحوذ على اهتمام فلان من الناس، قد لا يثير لدى غيره أي اهتمام، وقد عبروا عن هذه بالحكمة الشهيرة: (رضا الناس غاية لا تدرك) كما عبروا عنه بقولهم: (لا تعدم الحسناء ذامّاً). لا يعني هذا بالطبع أن الناس مختلفون في كل شيء، لكن يعني أن ما يختلف فيه الناس، يفوت الحصر. وما دمنا نتحدث عن إقناع الأطفال وتحسين مستوى فهمهم، فإني سأذكر هنا

حكاية رمزية، كنت أسمعها وأنا صغير، وهي تهدف إلى شرح هذا المبدأ الذي نحن بصدده.

لا بأس أن نختلف، لكن لا يجوز أبداً أن نفترق

تقول الحكاية: إن أباً قال لابنه: إن الحصول على رضا كل الناس وإعجابهم شيء صعب، فتردد الابن في قبول ذلك على أساس أن الحق والخير واضحان، كما أن الباطل والشر وأيضاً واضحان، فلم إذن الاختلاف؟ فأحب الأب أن يقنع الابن بمقولته عن طريق التجربة المحسوسة، فمضى به إلى إحدى القرى المجاورة، ومعهما حمار، وحين اقتربا من القرية، نزل الأب عن الحمار، وظل الابن راكباً، فقال بعض الناس: هذا الابن غير مهذب، ولا يحترم أباه، كيف يسمح لنفسه بأن يركب، ويدع أباه يمشي؟! قال الأب لابنه: أسمعت ما قالوا؟ قال: نعم. ثم مضيا إلى قرية أخرى، وحين اقتربا منها نزل الصغير، وظل الأب راكباً، فقالَ بعضَ الناس: هذا الأب ليس لديه شفقة على ابنه ولا رحمة به، كيف يركب، ويدع هذا الصغير يمشي هذه المسافات الطويلة؟! قال الأب للولد: أسمعت ما قالوا؟ قال الصغير: نعم. ثم مضيا إلى قرية ثالثة، ودخلاها، وهما راكبان، فقال بعض الناس: إن هذا الحمار ضعيف، ولا يقوى على حمل هذين، لكن يبدو أنهما لا يعرفان شيئاً، اسمه الرفق بالحيوان. قال الأب لابنه: أسمعت ما قالوا؟ قال الابن: نعم. ثم مضيا إلى قرية رابعة، وحين اقتربا منها، ترجلا، وقادا الحمار، فقال بعض الناس: هذا الرجل أحمق، يجر حماره خلفه، ولا يركبه ولا ينتفع به، ولا يدع ابنه يركبه! قال الرجل لابنه: بعد كل ما قالوه لم يبق يا بني إلا أن نحمل الحمار، ونمضي، وحينئذ سنتهم بالجنون!.

الجماعة أن تكون على الحق، ولو كنت وحدك (أي الحق القطعي)
عبد الله بن مسعود

إن الناس قد تعودوا أن يصدروا أحكامهم، ويعبروا عن أذواقهم من غير أي تحوط أو تحرز، وكثير منهم يظن أنه على الحق القطعي الذي لا شبهة فيه، وهذا هو الذي يجعل أحكامهم أحياناً قاسية ومتعسفة. الفكرة الجوهرية التي ينبغي أن نرسخها لدى الأطفال في هذا الشأن، هي: أن لكل واحد من الناس أن يعبر عن وجهة نظره في إطار الأدب الإسلامي الرفيع، كما أنه من حقنا أيضاً أن نقبل ما يقول، وأن نرفضه، فحق التعبير، يقابله حق الرفض. وما دمنا نتحدث عن ما يرضي الناس وعن ما لا يرضيهم، فمن المهم أن نذكر قوله ﷺ : «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس** »(1). إن علينا أن نؤكد للأطفال ضرورة مراعاة العرف والذوق العام والآداب العامة، لكن لدينا معيار، لا يصح أن نتنازل عنه، وهو أن تألف الناس وكسب مودتهم، ينبغي أن يكون في إطار مراضي الله - تعالى - ومحبوباته، وإلا فإن الخسارة ستكون كبيرة، حيث لا يعدل رضوان الله - تعالى أي شيء.

٩. لا حلول كاملة في وسط غير كامل:

هذا المبدأ قائم على عدد من المعطيات والاعتبارات، من أهمها الآتي:

---

(1) حديث صحيح رواه الترمذي.

شيء جيد أن نحلم ونتمنى، لكن بشرط ألا نغرق في الأوهام..

أ ـ طموحاتنا وأحلامنا واسعة جداً، فنحن نريد أن نحصل على كل شيء ـ كما أشرنا من قبل ـ ونود إذا وقعنا في مشكلة أن نتخلص منها على نحو كامل، وكأن شيئاً لم يكن، ونريد لإنجازاتنا أن تكون في القمة وخالية من كل الشوائب.

ب ـ إذا كانت أخيلتنا جامحة، وإراداتنا طليقة، فإن قدراتنا محدودة: فلان يحب الطعام، ويتلذذ به، ويود لو أنه جلس على كل وجبة ساعة وهو يلتهم الطيبات، لكن يجد بعد فترة قصيرة، أن معدته امتلأت، ولم يعد في إمكانه أن يتابع. وفلان يحب لعب الرياضة، ويتمنى أن لا يخرج من الملعب، لكن بعد ساعة أو ساعتين يجد أنه قد أصابه الكلل والإعياء، وهكذا...

ج ـ نحن في هذه الحياة نتحرك في ظروف كثيرة، وكثير من هذه الظروف، ليس من صنعنا، ولا هو خاضع لسيطرتنا، إن معظم الناس لا يستطيعون النوم في أجواء حارة جداً، ولهذا فإنهم يعمدون إلى تكييف غرف نومهم، أي يصنعون الجو الملائم لأجسامهم، وهم يعرفون أن انقطاع الكهرباء وارد في أي لحظة، حيث يشعرون أنذاك أن الأمور قد خرجت من أيديهم، وصار النوم متعذراً.

معظم ما يقع فيه الأطفال يكون بسبب ضعف الخبرة وقلة التجربة، وليس بسبب تشوّه أساسي في الشخصية..

وهذا طالب اختار الدراسة في تخصص يحبه، وسجل اسمه في جامعة ممتازة، لكن وجد أن بعض زملائه في الفصل سيئون جداً، ووجد أن بعض

أساتذته، لا يعدلون في إعطاء الدرجات، ووجد أن الجامعة قامت وهو في السنة الثانية بزيادة رسوم الدراسة، فأصبحت ثقيلة على والده، وصار ذلك يشكل مصدراً للنزاع الأسري. الرسالة التي نود إيصالها للأطفال هي: أن على الواحد منا أن يوطّن نفسه للحلول المنقوصة والإنجازات المحدودة، والظروف المعاكسة.. إن الإيمان بهذا المبدأ، يحسّن في موقف الطفل من الحياة، وفي موقف أهله منه، وعلى سبيل المثال، فإن الطفل قد يرسب في إحدى السنوات، وقد يُسرق منه شيء عزيز عليه، وقد يضيع منه المال الذي ذهب ليشتري به شيئاً لأسرته.. إن كل هذا قد يحدث، بل كثيراً ما يحدث، وحين يتكرر فإن الطفل يصاب باليأس والإحباط، وتصبح ثقته بنفسه ضعيفة. أما أهله فيغضبون عليه، وقد ينزلون به العقوبة، لكن حين ينظر الإنسان إلى الأسباب، فإنه يجد أن رسوب الطفل قد يكون فعلاً بسبب كسله وإهماله، وقد يكون بسبب مرضه أيام الاختبار، وقد يكون بسبب قصور بعض المعلمين في المدرسة، كما أنه قد يكون بسبب بغض الطفل لبعض المواد. وهذا يتطلب منا أن نتفهم أسباب ما حدث، ونلتمس نوعاً من العذر للطفل، كما يتطلب منا أن نرفع معنوياته، وأن نساعده على تجديد الثقة بنفسه وعلى تجاوز الأزمة.

١٠ ـ لا شيء يغني عن العمل:

هذا مبدأ عظيم جداً من مبادئ الحياة، وهو يعبر على نحو دقيق عن كيفية قطع المسافة الفاصلة بين ما هو موجود، وبين ما نسعى إلى تحقيقه. ومن الواضح أننا مهما تحدثنا عن أهمية العمل في حياتنا، فإننا لن نبلغ الإحاطة بها. إن الله ـ عز وجل ـ قد قرن في كتابه العزيز بين الإيمان، والعمل الصالح على نحو شبه كامل حتى يرسخ فضل العمل في نفوس المسلمين، ويرسخ أهمية

الحركة وتجسيد المعتقدات في السلوك. ومن المشاهد أن الذين يعتقدون شيئاً، أو يتحدثون عن شيء، ويفعلون شيئاً آخر كثيرون، ككثرة الذين يقولون، ولا يفعلون أي شيء. والتحدي الذي يواجهنا جميعاً هو الارتقاء بأحوالنا على مستوى العبودية لله ـ تعالى ـ وعلى مستوى وضعيتنا العامة في هذه الحياة. السؤال المطروح هو: كيف نؤسس لأهمية العمل في عقلية الطفل؟ وكيف سنجعل الإنجاز الملموس شيئاً قيِّماً بين اهتماماته وفي أسلوب حياته؟.

لعل مما يفيد في الإجابة على هذا السؤال الأفكار الآتية:

أ ـ العمل متعة، حيث إن الإنسان حين يقوم بعمل شيء، ولو كان بسيطاً، يشعر بأنه حقق إنجازاً، أو قدم خدمة لمسلم، أو قضى له حاجة.. وهذا كله يولد لديه نوعاً من الثقة بالنفس، كما يجعله يشعر أنه ليس عالة، وأنه يشارك أهله وزملاءه في حمل بعض تبعات العيش المشترك؛ وهذا يشيع في النفس الراحة بل يشيع شيئاً من المتعة والنشوة، ونحن نحتاج إلى ذلك في كل مراحل حياتنا. لنشرح للطفل مسألة أن الناس يقدِّرون الجهد الذي يبذله الأطفال في عمل نافع، ويحمدونهم عليه، ولنشرح لهم كذلك النظرة السلبية التي تصدر عنهم تجاه الأطفال الذين يستهلكون الخدمات دون أن ينفعوا أنفسهم أو غيرهم بأي عمل يقومون به.

كثيراً ما يكون الفارق بين الكلام والعمل كالفارق بين السراب والماء..

ب ـ العمل يخلصنا من ضغوط عدو مهم من أعداء السعادة والسرور، وهو الشعور بالفراغ، ويمكن أن نلفت نظر الطفل إلى العناء الذي يشعر به حين ينهي

واجباته المدرسية، ويمل من اللُعب التي لديه، ولايجد صديقاً أو قريباً يجلس أو يتحدث أو يلعب معه، كما يمكن أن نلفت نظره إلى بعض التصرفات السيئة التي تظهر في سلوكات بعض الأطفال نتيجة شعورهم بالفراغ.

ج - إن السبب الأساسي للنجاح في هذه الحياة، يكمن في الجهد الذي نبذله؛ والله بلطفه وكرمه، لا يحرم أحداً من ثمرات جهده، حتى الكافر يجد ثمرة جهده في الدنيا، ويتولى الله شأنه في الآخرة. يمكن أن نذكر للطفل بعض الأمثلة لأشخاص ناجحين في دراستهم وأعمالهم نتيجة الاهتمام والجهد المتميز الذي يبذلونه، ونذكر له كيف أن هناك الكثير من الأشخاص الذين لا يحققون أي نجاح بسبب ميلهم إلى الكسل وضعف إنتاجيتهم. شيء آخر يحتاج الطفل إلى أن نذكّره به، وهو أن النجاح مرتبط بالعمل والحركة وتنظيم الوقت والتعلم الجيد أكثر من ارتباطه بالذكاء والتفوق الذهني. والواقع أن من السهل دائماً على الأطفال أن يربطوا النجاح بالذكاء، ولا سيما أن الموروث الثقافي الشعبي، يؤكد على هذا المعنى، والطفل حين يفعل ذلك، يقطع عتب أهله عنه، إذا قصر في دراسته، أو تفوق أقرانه عليه. لا يصح ونحن نشرح للطفل هذه الحقيقة أن ننكر ما للذكاء والنبوغ من تأثير مهم في النجاح، كما يفعل بعض الآباء، وإنما علينا التركيز على أهمية العمل في التقدم والازدهار.

لا يكفي أمة الإسلام اليوم النجاح في الحياة، وإنما تحتاج إلى التميز في النجاح..

د ـ حين يكون المرء في حالة كسل وبطالة، فإنه يغرق في الأحلام الوردية، وكأنه يعوّض من خلال الخيالات والأمنيات عن النشوة التي يجدها في الإنجازات الحقيقية؛ ولدى الأطفال والمراهقين الكثير من الخيال الجامح الذي يدفع بهم بعيداً عن الواقع، بل عن الممكن، لكن عقب كل جولة من الأمنيات المجنحة يشعر الإنسان بالضآلة وشيء من الإحباط. العمل ينقل الأطفال، كما ينقل الكبار من مرحلة التطلع والاشتهاء إلى مرحلة الممارسة، ومع الممارسة يبدأ الشعور بأهمية الذات والمشاركة في صنع الواقع، وبهذا يتحقق أمران جيدان:

الأول: هو التخلص من الإحساس بالعجز، وذلك لأن العمل يجدد في نفوسنا الأمل بالازدهار وتحسن الأحوال.

تتجلى فائدة الخيال حين تضعنا على حافة خبراتنا وضفاف المجهول، فإذا تجاوز ذلك، فقد يقذف بنا في أودية الأوهام..

الثاني: هو اكتشاف الإمكانات الذاتية، وهذا الأمر في غاية الأهمية لأن التجربة والممارسة هي أفضل سبيل للتعرف على المواهب والقدرات الكامنة، وكم ماتت موهبة عظيمة مع صاحبها لأنه لم يتح لها فرصة الظهور من خلال العمل. ولهذا فإن من مسؤوليات المربين حث الأطفال على الانخراط في مختلف الأنشطة وإتاحة الفرصة لهم ليجربوا الكثير من الأشياء.

هـ ـ قالوا: اعمل كثيراً لتتكلم قليلاً. والمعنى أن الذين لا يعملون ولا ينجزون أشياء ذات قيمة، يضطرون إلى أن يتكلموا كثيراً، إنهم يتحدثون عن

إنجازات غير موجودة، أو يبالغون حين يضخمون من إنجازاتهم، كما أنهم يضطرون للاعتذار بأعذار واهية، وقد يقومون بإطلاق وعود لا تتحقق.. لكنهم مع الأسف لا ينطقون بلسان مبين.، إنما اللسان المبين هو لسان الأفعال، ولهذا فإن الذين يعملون لا يحتاجون إلى كثرة الكلام في أي أمر، لأن أعمالهم تتحدث عن نفسها، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[1]. إن المؤمنين يرى بعضهم أعمال بعض، وهم شهداء الله في أرضه، وشهادتهم تغني عن الكثير من الدعاية والشرح. وحين يعمل الكبار بصمت يتعلم منهم الصغار أخلاقيات العمل، ويكون كلامهم قليلاً، وحين نعمل القليل من أجل توفير مادة للدعاية فإنهم سيكونون كذلك.

لو كان من السهل على المرء أن يكون عالماً كبيراً لصار كل الناس علماء، لكن لا بد لذلك من حرمان النفس من بعض الملذات، وإنفاق أنفس الأوقات في المطالعة والدرس..

و ـ نحن مطالبون بأن ندرب أبناءنا على أداء الأعمال الشاقة، يجب أن يعرفوا أن الحياة ليست سهلة، فهناك التزامات داخل الأسرة، حيث إن على الأبناء والبنات القيام ببعض الواجبات المنزلية، كما أن على الأبناء مساعدة آبائهم في بعض الأعمال عند الحاجة. وفي المدارس يجب أن يُشعروا الأطفال بجدية الدراسة، وأن النجاح بتفوق ليس سهلاً، أما الدرجات التامة وشبه التامة، فلا ينالها إلا الطلاب شديدو التميز، وكل هذا من أجل تمليك الصغار عادات بذل

---

(1) (التوبة ١٠٥)

الجهد الفائق. وهناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الذين يدرسون في مدارس جادة، يتعلمون الجدية، ويكونوا جادين في أعمالهم فيما بعد. وإن الأسر التي تدلل أبناءها، والمدارس التي تتيح لطلابها النجاح السهل ليست بناصحة لهم، كما أنها لا تؤهلهم لمعاركة شدائد الحياة. لنحاول سؤال الطفل عن الأعمال والأنشطة التي قام بها يومياً، كما نحاول إرشاده إلى الانتظام في العمل وكيفية الاستفادة من أوقاته على وجه حسن، وسيكون علينا إلى جانب هذا أن نشجعه ونحفزه باستمرار، وأن نكافأه حين يعمل أعمالاً جيدة. إن التقاعس والكسل والإهمال، تشكل قواعد أساسية للفقر والإخفاق والتهميش، وينبغي التخلص منها بكل وسيلة.

١١ـ تغيير النفوس والسلوكات هو أساس كل تغيير:

تغير ما حولنا إذا لم يقم على تغيير ما بأنفسنا، فإنه سيكون محدود الفائدة والقيمة..

هذا المبدأ قرآني، حيث يقول البارئ ـ جل وعز ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (1). والحقيقة أن حب التغيير موصول بحب الإنسان للخير وكراهته للشر، وكأن الله ـ تعالى ـ يقول لعباده: إذا كنتم في نعمة، وأردتم دوامها فاثبتوا على إخلاصكم وصلاحكم وتقواكم، وفي المقابل فإنكم إذا كنتم في بأساء وضراء، فإن الطريق إلى الخلاص منها يكون بإصلاح أنفسكم وأعمالكم. وأنا ألاحظ أن البشرية كلما ازدادت نضجاً وفهماً للحياة، ازداد اهتمامها بالعنصر البشري في عملية التنمية، والعكس صحيح. أما الأطفال فإن

---

(1) سورة الرعد: (١١).

فكرة التغيير بعيدة عنهم بسبب استغراق الأشياء المحسوسة لوعيهم وجذبها لكل اهتماماتهم، ومن هنا فإن المربي يحتاج إلى أن يوضح العلاقة التي تربط بين الطفل والبيئة من حوله، والعلاقة التي تربط بينه وبين الناس. إن الإسلام كما يحرِّض المسلم على تحسين صلته بالله ـ تعالى ـ يحرضه على أن يسلك المسلك الصحيح تجاه المرافق العامة والمقتنيات الخاصة، وكل ما يحيط به، والمسلك الصحيح مع والديه وإخوته وأقربائه وزملائه، وكل من يلتقي بهم. إن الأطفال بحكم المرحلة التي يمرون بها، يلقون تبعات كل شيء على الآخرين، ويتوقعون منهم المبادرة نحوهم، فكلمة (أنت) تشكل أساس نظر الطفل لمن حوله، على حين أن الراشد يكون الأساس لديه هو كلمة (أنا) و (نحن). مهمتنا نحن المربين أن نغرس في عقول أبنائنا ونفوسهم قيمة تحمل المسؤولية تجاه غيرهم، إذ نستهدف جعل الطفل يشعر أن البداية في أمور كثيرة، يجب أن تكون من عنده. وهذه أمثلة على ذلك:

تغيير النفوس هو أساس تغيير العالم وشرطه..

- كسب رضوان الله ـ تعالى ـ يتطلب الالتزام بأوامره والكف عنِ نواهيه.
- تقبيل يد الأبوين عند الاستيقاظ من النوم وطلب الرضا منهما.
- السماح لأبناء الجيران أن يلعبوا ببعض الألعاب الخاصة بالطفل.
- تحسين العلاقة بالأساتذة، تتطلب الاجتهاد في الدراسة وكتابة الواجبات المدرسية على نحو جيد.

- إطفاء الأنوار عند مغادرة الغرفة.
- الاقتصاد في استخدام الماء في الوضوء والغسل وكل أنواع الاستخدام.
- عدم الكتابة على جدران المدرسة أو مقاعد الدراسة.
- المحافظة على صلاة الجماعة في المسجد.
- عدم إلقاء شيء من القمامة في الطرق والساحات العامة.

أنت لا تستطيع بناء مجتمع أقوى من مجموع أفراده، والأمة الضعيفة، يكون معظم أبنائها ضعفاء..

أشياء كثيرة في الحقيقة، يمكن لنا أن نتابع الطفل في شأنها مع الربط بينها وبين فكرة النهضة والتقدم والتغيير العام. بعض الأسر تُضعف حسّ المسؤولية الشخصية لدى الطفل من خلال الإكثار من توجيه اللوم والعتب للآخرين مع التقصير في الحديث عن واجبات الأسرة عامة والأطفال خاصة تجاه غيرهم، فيكبر الطفل، وهو يظن أنه لا علاقة له أو لأسرته بأي أخطاء أو مشكلات سائدة في محيطهم لا على مستوى التسبب، ولا على مستوى المساهمة في إيجاد الحلول. شيء جيد أن نوضح للأطفال أن مسؤوليتنا أمام الله ـ تعالى ـ هي في الغالب مسؤولية شخصية، كما أن صلاح الأمة من صلاح أبنائها، كما أن فسادها من فسادهم، والسبيل إلى تغيير أحوالها يكمن في أن يُدخل كل واحد منا شيئاً من التحسين على صعيده الشخصي، وإلا فسنظل نتحدث عن الإصلاح دون تقدم يذكر.

نقاط للتذكر

- ✓ مهما قرأنا، وتعلمنا، فسيظل ما نعرفه أقل مما نجهله، وتوفير مزيد من الوقت من أجل القراءة هو الحل.
- ✓ الحرية تعني القدرة على الاختيار، ولا تكون لدينا قدرة على الاختيار إلا إذا كان هناك بدائل، والعمل يساعدنا على إيجاد البدائل.
- ✓ كل شيء إذا همشناه خسرناه: العضلات والضمير والذاكرة والخيال، وإن زجها في خضم العمل يشكل إحياءً لها.
- ✓ لكل شيء طاقة على التحمل: الصداقة والقرابة والرادع الداخلي، ولا ينبغي تحميل أي شيء فوق طاقته.
- ✓ لكل شيء ثمن، فقد انتهى زمان الأشياء المجانية، والمهم دائماً أن نعرف ماذا نأخذ وماذا ندع.
- ✓ لا حدود لإشباع الرغبات وتحقيق المشتهيات، ومن ثم فلا بد من الرضا والقناعة وتناول الأشياء باعتدال.
- ✓ معظم الأشياء يمكن أن يرى بطرق مختلفة، فلنغلب الجانب الإيجابي في نظرتنا للأشياء وجانب التفاؤل.
- ✓ صدمات الحياة تكون كبيرة، ثم تصغر، ومن خلال الصبر والاحتساب والتوكل على الله ـ تعالى ـ نتغلب عليها جميعاً.
- ✓ رضا الناس غاية لا تدرك، والعاقل من يلتمس لنفسه منهجاً قائماً على الحق بعيداً عن مداهنة الناس على حساب دينه.

- ✓ لا حلول كاملة في وسط غير كامل، وذلك لأن إرادتنا طليقة، وما نريد إنجازه يخضع للعديد من القيود، ولذا فإن ما نحصل عليه كثيراً ما يكون أقل مما نطلب.
- ✓ من فضائل العمل أنه ينقلنا من مرحلة الأمنيات إلى مرحلة التنفيذ، كما أنه يساعدنا على اكتشاف الواقع واكتشاف أنفسنا.
- ✓ تغيير النفوس والسلوكات هو أساس كل تغيير، وإذا استطعنا تغيير أنفسنا، فسيتغير معها العالم.

تطبيقات وتدريبات

- اسأل الطفل عن الأشياء الموجودة داخل الغرفة، لكننا لا نتمكن من رؤيتها أو لمسها.
- اطلب من الطفل أن يشرح، ما الذي يفهمه من كلمة (حرية)؟ ثم ناقش معه الأشياء التي نحتاج إليها حتى نشعر أننا أحرار.
- اجعل الطفل يعدد ميزات الجلوس في المقاعد الأمامية في الفصل الدراسي وسلبيات الجلوس في المقاعد الخلفية.
- اطلب من الطفل أن يتخيل أنه كبر، وأصبح مديراً لإحدى الثانويات الكبيرة، كيف يشجع الطلاب المتفوقين، وكيف يتعامل مع الطلاب المشاغبين؟
- اطلب من الطفل أن يذكر لك موقفين اضطر فيهما إلى الكذب خوفاً من العقوبة، وموقفين كان فيهما صادقاً ولو أدى ذلك إلى نزول العقوبة به.
- ناقش مع الطفل الفارق بين حاجاتنا الأساسية من الأكل والشرب، وبين ما يعد من قبيل الترف والرفاهية الزائدة.
- اطلب من الطفل أن يذكر لك نقاشاً دار بينه وبين زملائه حول مسألة معينة، وكان له معهم خلاف واسع.
- اجعل الطفل يصف لك مشاعره يوم علمه بنجاحه بتفوق في مدرسته، ومشاعره بعد ثلاثة أيام من ذلك.

- ناقش مع الطفل كيف يمكن جعل الدراسة في الفصول الدراسية شيئاً ممتعاً.
- اشرح للطفل الأمور التي تساعده على المثابرة.

القسم الثالث

١ـ الطفل المفكر.

٢ـ أنواع التفكير

٣ـ تكوين المفاهيم.

١ـ الطفل المفكر

نحن الآن في عصر جديد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وقد كان الناس في الماضي يدركون من خلال الممارسة والخبرة اليسيرة ما الذي عليهم عمله من أجل إعداد أبنائهم للحياة على نحو عام، وإعدادهم لكسب لقمة العيش على نحو خاص، فقد كانوا ـ مثلاً ـ يرشدونهم إلى النباتات التي يمكن لهم أن يأكلوها، ويحذرونهم من النباتات السامة والضارة، وكانوا يعلمونهم كيف يحرثون الحقول، وكيف يجنون المحاصيل منها.. أما اليوم فإن مجتمعاتنا قد انتقلت إلى وضعيات جيدة كل الجدة، فدور الجهد العضلي في بناء الحياة وازدهارها، وفي الحصول على المال ـ آخذ في التراجع شيئاً فشيئاً لمصلحة الجهد الذهني والمعرفي، فالنفوذ اليوم ـ وغداً بمشيئة الله ـ لأولئك الذين يعرفون أكثر، ويفكرون بطريقة أسلم. ومن هنا فإن من واجبنا في البيوت والمدارس ووسائل الإعلام أن نقوم بمساعدة الأطفال على استخدام ذكائهم ومواهبهم ومهاراتهم العاطفية والاجتماعية، ومساعدتهم على اكتساب عادات القراءة الجيدة، وذلك من أجل التعايش مع التحديات والمشكلات الجديدة على المستوى الشخصي والأسري والاجتماعي، ومن أجل تحقيق الذات والارتقاء في مجال العمل.

كان الجهد البشري في الماضي منصباً على صنع آلات، تخفف من الجهد العضلي الذي كان يبذله الناس في أعمالهم، أما اليوم فإن التقنية الحديثة، تعمل على مساعدة الناس على الاقتصاد في الجهد الذهني.

إن التفكير يشكل السلوك الإنساني الأشد تعقيداً، وهو عمل شاق جداً، ولهذا فإننا نتجنبه، ونبتعد عنه قدر الإمكان. التفكير هو ذلك النشاط العقلي الذي يحدث حين يحل المرء مشكلة من المشكلات. أو هو تلك العملية العقلية المعرفية الوجدانية التي تستهدف الانتقال من المعلوم إلى المجهول، فالرجل الذي تراكمت عليه الديون - مثلاً - يجلس، ويحصر الديون التي عليه، ويرتب أولويات سدادها، ويحاول تقدير موارده خلال المرحلة القادمة.. يمارس التفكير ويشغّل عقله من أجل معرفة كيفية التخلص من ديونه في أفضل ظرف ممكن. ومن الملاحظ أن لديه معطيات معينة، ومعلومات ثابتة أو مظنونة، وهو يشغل عقله من أجل الوصول إلى شيء لا يعرفه حين بدأ التفكير، إن الإنسان وهو يفكر يستخدم الإدراك والتخيل والتذكر والتجريد والتعميم والتمييز والمقارنة والاستدلال.. ونتائج تشغيل هذه الورشة الذهنية متوقفة على ما تتمتع به هذه القدرات من نضج وقوة، وعلى طريقة استخدامها، كما أنها متوقفة على صحة المعطيات التي جعلنا منها مادة لاشتغال العقل عليها، ولهذا فقد نحصل من وراء التفكير على معرفة قيمة وممتازة، وقد نحصل على معرفة مشوبة بالغلط وسوء التقدير، وقد لا نحصل على أكثر من الأوهام!.

كثيراً ما ننظر إلى مشكلاتنا بعيون قلوبنا، ولذلك فإننا لا نقبل حولها أي نقاش..

قد يستغرب بعض الناس من وصفنا الطفل بـ (المفكر) لأنهم يظنون أن الأطفال غير مؤهليم للتفكير بطريقة جيدة؛ وهذا غير صحيح، فالمسألة منوطة بطريقة التعليم التي يتلقاها الأطفال في المدارس، ومنوطة بما يمكن أن يتلقوه من

تدريب على التفكير الجيد. ومن أجل توضيح أثر التدريب في ترقية التفكير وتحسين المحاكمة العقلية قام أحد المعلمين في مدرسة ريفية بتكوين مجموعتين من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وإحدى عشرة سنة، وطرح عليهم مناقشة اقتراح «منح الأطفال أجراً أسبوعياً من أجل ذهابهم إلى المدرسة» . وكانت كل مجموعة تضم خمسة أطفال، وكانت إحدى المجموعتين قد أخذت عشرة دروس في التفكير مع مدرس متميز جداً. أما المجموعة الثانية، فلم تأخذ شيئاً. وقد انتهت المجموعة الأولى بعد نقاش عقلاني وواقعي إلى أن الأطفال لا يستحقون أموالاً تصرف إليهم من أجل التوجه إلى المدرسة، كما أنه ليس هناك مصدر يستطيع دفع تلك الأموال الطائلة.

أما المجموعة الثانية (غير المدربة) فقد انتهت بعد النقاش إلى القول: إذا تقاضى المعلمون مالاً، فيتعين أن يتقاضى التلاميذ كذلك، وهذا بسبب أن التلاميذ يبذلون جهداً أكبر من الجهد الذي يبذله المدرسون!.

إن بعض الدراسات يشير إلى أن الأطفال بدءاً من سن التاسعة، يستطيعون تقريباً مناقشة أي مشكلة إذا تلقوا التدريب المناسب.

حين ينظر الناس إلى العلم نظرة تجارية، فإنهم يبذلون الحد الأدنى من الجهد للحصول عليه..

المشكل على صعيد التأسيس لعقلية (الطفل المفكر) أن الأسر وكذلك المدارس تشعر بأنها في عجلة من أمرها، وأنه ليس لديها الوقت الكافي لمساعدة الأطفال على التأمل والنظر في خلفيات الظواهر التي يعايشونها، كما أنها لا

تشعر بالمسؤولية عن جعل الصغار يفكرون بطريقة صحيحة. وهذا في الحقيقة امتداد للتربية القديمة التي تحبذ للصغار أن يكونوا سلبيين، وعلى درجة عالية من الخضوع العقلي. إن مهمة الصغار في التربية الموروثة عن عصور الانحطاط، هي اختزان أفكار الكبار على أنها معايير للخطأ والصواب والخير والجمال، ومن هنا فقد كف الصغار عن التفكير وعن محاولات التخمين في وجود أجوبة متعددة للأسئلة المثارة حولهم، أو التي يثيرونها هم من تلقاء أنفسهم، وهذا يؤدي طبعاً إلى ضمور قدراتهم على التفكير وفهم الجذور والخلفيات والربط بين الظواهر المختلفة. ونحن نعرف أن كثيراً من مدارسنا وجامعاتنا، تحرص على تقديم المعرفة جاهزة ومعلّبة لطلابها دون أن يكون لهم أدنى جهد في بلورتها، أو يكون لهم أي جهد في ربطها بالواقع اليومي!.

إذا أسرفنا في تقديم الخدمة للطفل، فإننا نقعده عن تشغيل العقل وشحذ الذهن، وبذلك نسيء إليه أكثر مما نُحسن..

إن أفضل ما يقدمه الكبار للصغار، هو مساعدتهم على إنارة عقولهم، ليس عن طريق القصص والحكايات والمعارف الصحيحة فحسب، وإنما عن طريق تدريبهم على التأمل وطرح الأسئلة، وتقديم المقترحات، وتعويدهم عدم القناعة بظواهر الأمور، وحملهم على الغوص فيما وراء هذا الظاهر الذي يبدو لهم، وحثهم على اكتشاف الأنماط العقلية التي تستند إليها المقولات المختلفة. إن تحسين النشاط الذهني وتحسين سوية الحكم العقلي الذي يصدره الصغار - يمكن أن يتم في المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية، لكن لا بد من القول: إن تحسين المهارات الإبداعية، كلما كان في سن مبكرة كان أفضل، مع أننا نشاهد من

الطلاب من يطرأ على قدراته الإبداعية تطور قوي جداً ولافت، وهو في المرحلة الثانوية، وذلك حين يدرس في مدرسة ممتازة، أو يتعرف على زملاء متفوقين.

خصائص الطفل المفكر:

لسنا في حاجة إلى القول: إن كل الأطفال وكل الكبار يمارسون التفكير في كل يوم مرات عديدة، إن لم نقل: إنهم لا يكفون عن التفكير ما داموا في حال اليقظة، إذن ما معنى الحديث عن الطفل المفكر وخصائصه ما دام الجميع يفكرون؟ نحن لا نريد من التفكير هنا ذلك اللون من تشغيل العقل من أجل تسيير الحياة اليومية الاعتيادية، وإنما نريد به ذلك النشاط العقلي الذي يمارسه النابهون والممتازون من أجل كسب المزيد من المعرفة ومواجهة المشكلات الصعبة وإبداع وسائل جديدة لجعل الحياة أسهل وأكثر أمناً.

التفكير الجيد مهارة، يصنعها التدريب

إن كثيراً من خصائص الطفل المفكر الذي سنتحدث عنه يكون في الأصل عبارة عن قابلية واستعداد، وبفضل التربية الأسرية الجيدة والتعليم المدرسي المتميز، تتحول هذه القابلية إلى سمات مؤثرة في ممارسة الطفل للتفكير، وتجعله بالتالي مختلفاً عن أقرانه ولِداته، ولعل من أهم تلك الخصائص الآتي:

١ ـ الترحيب بالجديد:

لا أحد ممن يعتد بهم، يقول: إن كل جديد جيد، فالجديد لدى كل العقلاء، قد يكون جيداً، وقد يكون سيئاً، لكن بما أن الطفل المفكر، يحب التقدم، ويحب

التغيير، ويكره الجمود، فإنه يرى في الجديد فرصة سانحة لتحقيق شيء من ذلك، ولهذا فإنه حين يطرح الأب أو المعلم فكرة جديدة، أو يتحدث عن أسلوب جديد، أو يذكر معلومات جديدة عن شيء مهم، فإن الطفل المفكر يبدي اهتماماً كبيراً به، ويحاول استيعابه والاستفادة منه. على حين أن الطفل غير المفكر أو الطفل العادي يخاف من الجديد أو يقف منه موقف المتشكك أو غير المبالي، وبالتالي فإن نموه الفكري، يكون بطيئاً. ونحن معاشر المدرسين، نجد في كل فصل دراسي مكوّن من ثلاثين طالباً أربعة أو خمسة يتفاعلون بقوة مع الأفكار الجديدة، أما الباقون، فإنهم يظهرون ـ مع الأسف ـ بمظهر غير المكترث، أو غير المستوعب لما يقال، ولهذا أسباب عدة يطول شرحها. ومما أود التنبيه عليه، هنا أنني لا أذكر ما أذكره من خصائص الطفل المفكر من باب التوصيف والتعريف، وإنما من باب تشجيع المربين على الاهتمام ببلورة هذه السمات، وتحفيز الأطفال على التخلق بها.

الحلول العاجلة لمشكلة متأسنة، لا تساهم في حلها، وإنما تساهم في طمسها..

٢ ـ التسامح مع الغموض:

يحتاج أبناؤنا، إلى من يعلمهم التفاعل مع الأفكار الغامضة والمواقف الصعبة، فالطبيعة البشرية، تميل إلى السهل الواضح، وتنفر من الصعب الغامض، وذلك رغبة في الاقتصاد في الجهد، لكن الصحيح أن عقولنا لا تكبر،

وأفكارنا، لا ترتقي إلا من خلال مواجهة التحديات والمشكلات، التي تتطلب منها نشاطاً غير عادي.

وإن للمعلمين الدور الأكبر في هذه المسألة، حيث إنهم يستطيعون تدريب الطلاب على تصور بعض النماذج الغامضة واكتشاف خصائصها، ومن ثم قولبتها وتنظيمها؛ وعلى سبيل المثال فإنه يمكن للمعلم أن يشرح للطلاب خصائص (الإنسان العاطفي): كيف يفكر، كيف يتصرف، كيف يتعامل مع الأحداث المؤلمة، كيف تكون علاقته بأصدقائه، إلى أي مدى يمكن أن يكون موضع ثقة ممن حوله، ما نوعية المشكلات التي يواجهها نتيجة سيطرة عاطفته عليه.. بعد هذا يطلب من الطلاب أن يحاولوا بلورة نموذج لأشخاص آخرين، مثل (الشخص الشحيح)، (الشخص الجبان) (الشخص المتهور)، (الشخص الشديد المثالية)، (الشخص القلق)، (الشخص الشكاك).. ثم يقوم المعلم بمناقشة هذه النماذج وخصائصها معهم، لكن عليه ألا يستهدف الاتفاق على أي نموذج، لأننا نريد لكل طالب أن يمارس فرديته، ويتلمس الأفكار الإبداعية التي صدرت منه. وقل مثل هذا في قراءة الكتب الصعبة، حيث إن معظم الأبناء، يميلون إلى قراءة الكتب السهلة التي يفهمونها بكل يسر، وبالتالي، فإنها لا تُحدث لديهم أي اهتزاز في خبراتهم وأنساقهم الفكرية بسبب استيعابهم السابق لما فيها. ومن هنا فإن علينا تشجيع الطلاب على قراءة الكتب التي تتحداهم، والطلب منهم تلخيصها واستخدام تعبيراتهم الخاصة في شرح مرادات مؤلفيها، كي يشعروا بأنهم صاروا أصحاب دور واضح في نقل المعرفة والإضافة إليها.

إن أصحاب الكسل الذهني تحجبهم قسوة المعطيات الحاضرة عن رؤية الإمكانات الكامنة

٣ ـ التروي والأناة:

من أعدى أعداء التفكير المثمر العجلة والرغبة في الوصول إلى نتائج سريعة، وقد قالوا قديماً: إن الحرب تحتاج إلى الرجل المكيث، وهكذا التفكير يحتاج إلى من يجلس الساعات الطوال، وهو يتأمل في المعلومات والمعطيات التي لديه، وكلما وجد ثغرة فيها، سارع إلى جمع معلومات أكثر، كي يشعر أنه أحاط بالقضية على وجه حسن، وبعد ذلك يبدأ بتشغيل ما لديه من قوة ذهنية، وذلك بغية الوصول إلى أفضل الحلول وأفضل النتائج.

صفة (الأناة) هذه، قد لا تكون موجودة لدى كثير من الصغار، فطبيعة المرحلة العمرية لدى الأطفال، تجعلهم يملون بسرعة من الانشغال بشيء واحد، وتدفعهم نحو الانتقال من موضوع إلى آخر، وهنا يبرز دور المعلم المدرب، حيث إنه من خلال سلوكه المتأني في التعامل مع طلابه، ينمي لديهم هذه الفضيلة، إنه يفكر أمام طلابه بصوت مسموع، ويُظهر طول النفس في تقبل النقد، والاستماع إلى الملاحظات الغريبة، ويصبر على ما يبدو أنه نقاش عقيم، ومع هذا كله فإنه لا يقف مكتوف اليدين أمام اندفاع الطلاب نحو إنهاء المناقشة واستخلاص النتائج، إنه ينادي في طلابه: إننا ما زلنا في مرحلة جمع البيانات، إن معلوماتنا لم تكتمل، من منكم لديه اقتراح إضافي؟ من منكم لديه معلومة جديدة؟ وهكذا يكتسب الأطفال والمراهقون عادات التفكير المنتج من خلال الانخراط في عمل تفكيري جماعي، يقوده المعلمون الأكفاء.

لا ينبغي أن يُظن أن تأثر الطلاب بمواد الدراسة أكبر من تأثرهم أساتذتهم أو وسائل الإعلام..

وحتى نرسخ فضيلة الروية والأناة لدى الأطفال فقد نكون في حاجة إلى أن ننمي في نفوسهم وعقولهم الاستعداد للتجريب والصبر عليه. إن الحل أو الشيء المرغوب الذي نبحث عنه، لا يرفع الأقنعة عن وجهه من أول محاولة بل من المعروف أن الأفكار الجيدة كثيراً ما تتوارى إلى أن نستنفد الأفكار والحلول الرديئة. إن التجريب يعني فيما يعنيه اختبار النظريات واختبار الأفكار والأساليب والأدوات، كما نختبر نوعية التفاعل الذي يحدث حين نخلط عدداً من العناصر الكيمائية مع بعضها.

العقل من غير معرفة جيدة وخبرة ممتازة، قد يطرح حلولاً شكلية للمشكلات، ويقدم أفكاراً مجوّفة..

والاختبار كثيراً ما يجر وراءه اختباراً ثانياً وثالثاً ورابعاً.. مما يعني أنه لا بد من التحلي بفضيلة الاستقصاء وسبر أغوار الأشياء. والمدارس هي المسؤولة عن التربية على هذا، وهي المسؤولة عن التدريب عليه. وهذا يتطلب الإكثار من الورش والمعامل والمختبرات إلى جانب تنشيط جلسات العصف الذهني داخل الحجر الدراسية.

٤ ـ الميل إلى الاستقلال:

الممارسة هي التي تكشف عن الممانعة التي تبديها الطبيعة حيال الكثير من قراراتنا ومرغوباتنا.

إن الله ـ جل وعز ـ جعل كل واحد منا عبارة عن مخطوطة فريدة على مستوى العقليات والمشاعر وقسمات الوجوه.. لكن التربية التي تلقيناها، وقسوة

المشكلات التي نواجهها، تجعلنا نلوذ ببعضنا كما يلوذ الطير ببعضه في أوقات الصقيع. نحن نلاحظ أن الطفل المفكر، والطفل الذي يجري إعداده كي يصبح مفكراً جيداً يميل إلى أن يكوِّن رأيه المستقل وتوجهاته الخاصة؛ ولا شك أن الإنسان مهما كانت درجة عبقريته لا يستطيع أن يتجاوز كثيراً من المعطيات المعرفية السائدة في زمانه، كما لا يستطيع الابتعاد عن الأعراف والتقاليد السائدة في البيئة التي يعيش فيها، لكن تظل هناك فروق واضحة بين الإمَّعة التابع، وبين الرائد السبّاق المبادر والمبتكر. ميول الطفل إلى إصدار الأحكام المستقلة وتكوين الرؤى الخاصة كثيراً ما تشكل مصدر إزعاج لأهله ومعلميه، حيث يظهر الطفل بمظهر العنيد المتكبر والمستخف بما لدى الآخرين المعجب بما لديه، لكن من الواضح أن الاستقلال في فهم الأشياء وتقويمها، يرتبط بعدد من الصفات الإيجابية المرغوبة من نحو المبادرة وعدم الخوف من الوقوع في الخطأ والثقة بالنفس.. كما أن الميل إلى الاستقلال، يساعد المرء على التخلص من الصفات السلبية من نحو تجنب المخاطرة والاحترام المبالغ فيه لآراء الآخرين، والذي يُفضي إلى التقليد والجنوح إلى التقيد بالقواعد والعادات السيئة بقطع النظر عن مدى صلاحها.

لا هوية من غير فكر، ولا فكر من غير إنتاج فكري، ولا إنتاجاً فكرياً من غير مؤسسات ترعاه وتحتضنه..

إن الأسرة هي التي تضع اللبنات الأولى في أساس عقلية الطفل من خلال الجو الأسري الذي توفره والأساليب التي تستخدمها في تربية أبنائها؛ ونستطيع القول في هذا السياق: إن الأسرة تستطيع أن تدعم ميول الطفل إلى الاستقلال من

خلال السماح له بالاعتراض على الأمور التي لا تعجبه، ومن خلال إجابته على أسئلته وتشجيعه على مناقشة الأفكار التي يسمعها. وحين يقدم الطفل بعض الآراء الفجة والمرفوضة، فإنها لا توبخه، وإنما تشرح له بلطف وجه الصواب فيما يقول. ومن مهام المدرسة أن تكمل دور الأسرة في هذا، وذلك من خلال الخطوات والمواقف نفسها، ومن خلال عرض وجهات النظر المختلفة في القضية الواحدة، وتحفيز الطلاب على أن يرجح كل واحد منهم ما يراه منها، ثم يبدي المعلم وجهة نظره الخاصة، أو يشرح ما عليه أكثر أهل العلم أو أكثر الباحثين في تلك القضية. إن بعض المعلمين، لا يتركون أي فرصة للطالب كي يناقش، أو يسأل، كما لا يستحسنون منه أن يقدم أي وجهة نظر مخالفة لما يقررونه، وربما نظروا إلى سؤال الطالب لهم عن الأدلة على ما يقولونه على أنه تشكيك في مصداقيتهم أو في مقدرتهم العلمية. وهذا من الأمور التي ساعدت على ترسيخ الجمود والتقليد لدى كثير من الأبناء، ولكن يبدو أن هذه الوضعية آخذه في التحسن؛ بحمد الله تعالى.

٥ ـ حب اللعب والمرح:

> **إن تعليم الطالب كيفية استخدام معجم أفضل مئة مرة من أن نحفّظه معاني ألف كلمة في اللغة . دربّ..**

إن الطفل الذي يحب المرح، ويميل إلى اللعب مع الأصدقاء والزملاء، يكون في وضعية نفسية أفضل من الطفل الهادئ أو المنعزل أو الذي يُظهر قدراً زائداً من الجدية. لا شك في أن الضحك، يخفف من التوتر العصبي لدى

الإنسان، ويفرّج بعض الكروب والهموم، كما أن المرح، يوجد لدى صاحبه نوعاً من التفتح الذهني؛ وعلى سبيل المثال، فإنه حين يلقي أحد السمّار طرفة لطيفة، فإن الذين يتفاعلون معها بعمق وقوة، يكشفون أحياناً عن سرعة بديهة وأحياناً عن فهم المعاني المتوارية بين السطور، وعن قدرة جيدة على المقارنة.

التفكير بالمستقبل قد يكون هو الوسيلة الفضلى لتنظيم الاستفادة من الإمكانات الحاضرة..

أضف إلى هذا أن اللعب يُكسب صاحبه الكثير من الخبرات التي تحسِّن المحاكمة العقلية لديه، فالطفل الذي يشارك في لعبة جماعية، يتعلم احترام القواعد المشتركة للعبة، كما يتعلم كيف يمتص أخطاء الآخرين بروح رياضية، ويتعلم التكيف إلى جانب محاولة التعبير عن السلوك الشخصي وفق منطق مقبول؛ ومن هنا ندرك معنى ما أثر عنه ﷺ من ممازحة الأطفال وملاعبتهم، وما أثر عنه من ممازحة أصحابه ومباسطتهم على ما هو معروف ومشهور. في إرثنا الشعبي نوع من التقدير لوقار الطفل وهدوئه، وكأن الأبوين يخافان من أن تؤدي حركات الطفل إلى مشكلات كبيرة أو كسر بعض الأشياء النفيسة. وفي المدارس ينظر بعض المدرسين إلى الطفل كثير الحركة أو الميال إلى المزاح على أنه يفتقر إلى الجدية، وربما إلى إدراك حرمة المدرسة والمعلم وآداب طالب العلم. وهذا شيء خاطئ، فاللعب والمرح والتسلي والضحك أمور إيجابية وذات فوائد كبرى لعقل الطفل وروحه إذا ظلت في حدود الاعتدال.

نقاط للتذكر

- ✓ كلما حدث تقدم أكثر، تراجع دور الجهد العضلي في تحقيق الثراء والازدهار، وصار التأثير الأكبر للمعرفة والإبداع والتفكير الجيد.
- ✓ إن ابن الحادية عشرة، يستطيع أن يفكر في مسائل معقدة إذا تلقى التدريب الكافي.
- ✓ من علامات الطفل المفكر الترحيب بالجديد والاحتفال به.
- ✓ تعليم الطفل التفاعل مع الأمور الغامضة، والاستجابة للتحديات الكبيرة.
- ✓ يحتاج الصغار إلى من يدربهم على الصبر والأناة في جمع المعلومات قبل إصدار الأحكام.
- ✓ شجّع الأطفال على أن تكون لهم رؤيتهم الشخصية، فيما يدور حولهم من أحداث، وشجعهم على مناقشة الأفكار التي يطلعون عليها.
- ✓ إن أفضل ما يقدمه الكبار للصغار هو مساعدتهم على إنارة عقولهم عن طريق التأمل وطرح الأسئلة وتقديم المقترحات.
- ✓ ليس كل جديد هو شيء جيد، فالجديد قد يكون جيداً، وقد يكون سيئاً.

تدريبات وتطبيقات

- ناقش مع الأطفال مسألة تقديس بعض الناس لكل قديم وقبول بعضهم الآخر بكل جديد مع بيان حيثيات خطأ كلا الموقفين.
- اطلب من الطفل أن يذكر أربعاً من النتائج السيئة التي تترتب على العجلة في اتخاذ القرارات.
- علّم الطفل الفرق بين احترام الآخرين وبين تقليدهم في آرائهم.
- على المعلم أن يشجع الطلاب على الحل الجماعي للواجبات المدرسية، وعلى إنجاز المشروعات المشتركة.
- يطلب المعلم من بعض الطلاب إلقاء بعض الطرف والنكات المهذبة من أجل إضفاء المرح على الدرس الذي يقدمه.

٢ ـ أنواع التفكير

لدينا أكثر من أساس لتقسيم التفكير، فأحياناً يقسَّم بناء على ملاحظة (الأزواج المتناظرة) ومن ثم فإننا نقول: (التفكير الإبداعي) و (التفكير التقاربي)، كما نقول: (التفكير التخيلي)و (التفكير الواقعي). وأحياناً يتم تقسيم التفكير بناء على ملاحظة الموضوعية والعقلانية، ومن ثم فإننا نقول: (التفكير العلمي) و (التفكير الموضوعي)و (التفكير المنحاز) و (التفكير الخرافي).. نحن هنا سنعرض بشكل موجز لبعض أنواع التفكير المهمة مع عرض كيفية مساعدة الطفل على ممارستها، وذلك في المفردات الآتية:

١ ـ التفكير الإبداعي:

> **قليل أولئك الذين يتساءلون: لماذا نملك أفضل نظرية تنموية، ثم نجد معظم المسلمين فقراء؟!**

يمكن القول: إن التفكير الإبداعي عبارة عن نشاط ذهني منظم، يؤدي إلى نتائج وحلول تتصف بالجدة والأصالة. إذا كنا نطالب بالتجديد، ونطالب بالنهوض والتقدم، فإن علينا أن نبدأ بوضع الأسس العقلية والفكرية والمعرفية التي تساعد الأجيال القادمة على إيجاد حلول للمشكلات الآسنة، وتلك التي يولدها العيش في عالم مكتظ بسكانه ومتزاحم على موارد محدودة، ومنفتح الشهية على الاستهلاك بشكل جنوني!. ومن وجه آخر، فإن المطلوب في القرن الحادي والعشرين ليس القراءة والكتابة والحساب، كما كان عليه الحال من قبل،

وإنما المطلوب من الجيل الجديد أن يملك مهارات الاتصال والتقويم والتفكير الحاسم واستراتيجيات حل المشكلات ومهارات التنظيم والرجوع إلى المصادر واتخاذ القرارات في حالة وجود معلومات غير كافية، بالإضافة إلى القدرة على التعلم الذاتي. ومن أهم ما نقوم به من أجل كل هذا هو توفير بيئة، تساعد الناشئة على الإبداع والتجريب والكشف ورؤية الأشياء بطرق متعددة. إن تدريب الأطفال والشباب على التفكير الإبداعي، يعد بحق مهمة وطنية كبرى، تحتاج إلى استنفار كل الجهود وحشد كل الطاقات.

إن الإبداع ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحتميات الطبيعة، والرهبة من مقولات التاريخ..

والحقيقة أن كل الأعمال التربوية الجليلة، تتكون في رحاب الأسرة، وتنمو برعايتها، ونلاحظ في هذا السياق أن الطفل حتى يبدع يحتاج إلى الشعور بشيئين أساسيين، هما الأمان والحرية، وهما يتوفران من خلال اهتمام الأسرة وتعاملها مع أبنائها على أنهم كيانات فاعلة ومستقلة، مع تجنب إصدار الأحكام القاسية عليهم، مثل وصمهم بالغباء، أو عدم امتلاك الأهلية للنجاح، ولا بد مع هذا من فهم عالمهم الخاص وتفهم وجهات نظرهم. الطفل المبتكر يحتاج إلى بيئة يشعر فيها بالدفء والحنان من قبل الكبار، كما يكن لهم مشاعر الإعزاز والمودة والرغبة في صحبتهم طول حياته. ولا شك أن من العقبات التي تعترض الابتكار ما قد يلقاه الصغير من قمع الكبار لحريته في التعبير ومصادرتهم لتلك الحرية. وقد أدان (انشتاين) في (ملاحظات في السيرة الذاتية) الأساليب التربوية الخشنة والمتحكمة حين قال: (لقد كان على المرء أن يحشو عقله بكل هذه المواد سواء

أكان يحبها أم لا، وكان لهذا أثر، بلغ من سوئه أنني وجدت عندما اجتزت الامتحان النهائي أن النظر في أي مشكلات علمية، أمر بغيض مدة عام كامل). وقال متذمراً: (أما أن أساليب التدريس الحديثة لم تخنق حب الاستطلاع المقدس بعد فأمر يكاد يصل إلى حد المعجزة، فهذه النبتة الصغيرة الطرية تحتاج أكثر مما تحتاج إلى الحرية فضلاً عن الحوافز، ومصيرها التلف لا محالة، إن لم تحصل على هذه الحرية. ومن الخطأ القاتل أن تعتقد أن متعة الرؤية والبحث يمكن أن تتعزز من خلال وسائل القهر والشعور بالواجب). قد نقلت هذا النص بطوله عن واحد من عمالقة القرن العشرين لعلنا ننهض لبناء مؤسسات تعليمية، توفر للمتعلم جواً يسوده التشويق والحرية عوضاً عن الهيمنة والرتابة.

إن أكثر الإنجازات العظيمة التي حققتها البشرية في العلوم والفنون كان ثمرة تمتع الأقلية المبدعة بأوقات الفراغ واستغلالها.

ومما يهمني في هذا الشأن هو ألا يعتقد الآباء والمعلمون أن الحديث عن الإبداع، هو حديث عن شيء ترفيهي أو كمالي أو شيء خيالي يصعب الوصول إليه، إن الأمة في حاجة ماسة إلى الإبداع والمبدعين لأنها تعاني من تخلف شديد في معظم مجالات الحياة، والمبدعون هم الذين يعالجون مشكلاتها - على المستوى النظري على الأقل - ويفتحون أمامها طرقاً جديدة للازدهار. والعالم كله في الحقيقة محتاج إلى الإبداع، وذلك من أجل أمرين أساسيين: الأول هو تأمين درجة من الحياة الطيبة لهذا البحر المتلاطم من البشر، والثاني هو إنعاش القيم العظيمة التي لا تستقيم الحياة من غيرها، والتي تساعد على إدارة العنف في زمان تشتد فيه المنافسة والأثرة إلى مستويات غير مسبوقة!.

أنا هنا لا أريد أن أتحدث عن تجليات التفكير الإبداعي لدى الأطفال، وإنما أود أن أشير إلى ما يمكن أن نفعله من أجل تأسيس العقلية المبدعة، وذلك من خلال المفردات الآتية:

أ ـ الطلاقة مكون أساسي من مكونات التفكير الإبداعي، وهي تعني القدرة الجيدة على التوليد: توليد الأفكار وتوليد الكلمات والجمل والتعبيرات... ولا شك أن الذي يستطيع إطلاق مصطلح جديد يلقى الإجماع أو الاستحسان، والذي يستطيع اقتراح ثلاثة حلول لمشكلة عجز أقرانه عن المجيء ولو بحل واحد لها ـ أقول لا شك في أن هذا يعد مبدعاً.

إن لحيوية الأفكار سلطاناً أعظم مما يظن الناس، لكن ذلك لا يظهر إلا في المدى البعيد..

نحن في البيوت والمدارس محتاجون إلى تنمية (الطلاقة) لدى الأطفال عن طريق تكليفهم بالقيام ببعض الأمور، وعلى سبيل المثال، فإنه يمكن للأسرة في أوقات الفراغ أن تنخرط في بعض الألعاب التي تكشف عن الطلاقة لدى أفرادها، وتعمل على تحسين مستواها، حيث يمكن للأم أو الجدة أن تحكي للصغار حكاية صغيرة، وتطلب منهم وضع عنوان لها، كما يمكن من أجل تعزيز (الطلاقة الترابطية) أن يطلق الأب كلمة جديدة ـ مثلاً ـ ويطلب من الصغار أن يذكروا له الكلمات التي تدل على نفس معناها، وإذا كانت هناك بعض الفروق فإنه يشرحها، كما أنه يصحح لهم الأخطاء التي يقعون فيها. ويمكن أن يذكر كلمة (مستقيم) ويطلب منهم ذكر الكلمات التي تدل على معنى

مضاد لمعناها. ومن أجل تعزيز (الطلاقة التعبيرية) يمكن أن يطلب الأب من ابنه الصغير أن يذكر أكبر عدد من الكلمات المكونة من أربع كلمات شريطة أن تختلف في معانيها، وشريطة أن لا تستعمل أي كلمة مرتين. أما المدارس فإن لديها فرصاً أكبر للتدريب على التفكير الإبداعي، لكن بشرط أن يتوفر لدى المعلمين قدر جيد من الاهتمام بهذا الأمر.

ب ـ المرونة مكوِّن مهم من مكونات التفكير الإبداعي، وهي تعني رحابة عقل الإنسان في رؤية الأشياء وتفسير الأحداث، وتصور أكبر قدر ممكن من وظائف استخدام الأدوات، بالإضافة إلى القدرة على إحداث تغييرات مهمة على الحلول المفروضة. وإن في إمكاننا أن نشرح فكرة المرونة للأطفال من خلال المثال الآتي:

التفكير المبدع هو الذي يعتمد في استنتاجاته على مقدمات ومداخل غير مألوفة..

لدينا حجر بحجم قبضة اليد، نستطيع أن نستخدمه في بناء جدار، كما نستطيع أن نستخدمه في زجر كلب يهجم علينا، كما يمكن أن نستخدمه كما نستخدم المطرقة، فندقّ به مسماراً في جدار، ويمكن أن نضعه فوق مجموعة من الأوراق حتى لا تتطاير وهكذا.. ثم نطلب من الطفل أن يضيف استخدامات أخرى للحجر زيادة على ما ذكرناه.

المخ البشري هو منحة الله ـ تعالى ـ للفقراء الذين حرمت أرضهم من الثروات والموارد.

في البيت والمدرسة يمكن أن نطلب من الأطفال أن يذكروا لنا ما يستطيعون ذكره من استخدامات للقلم والمسطرة والكتاب والقِدْر والكرسي، ونحاول معهم زيادة الاستخدامات لهذه الأشياء. ويمكن عقد مسابقات في المدارس لتعزيز هذه المهارة العقلية وتنشطيها.

ج ـ رهافة الإحساس نحو المشكلات، مما يميز المبدعين عن غيرهم. الأشخاص غير المبدعين، لا يرون الكثير من المشكلات القائمة، إنهم تارة يتكيفون معها، فتصبح المعاناة شيئاً عادياً في حياتهم، وتارة يرضون بأنصاف الحلول، وبما يؤمِّن الضروريات. أما المبدعون، فإنهم يعرفون الأصول التي يجب أن تكون عليها الأشياء، وبالتالي فإنهم يرون المفارقات بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. وهم يستخدمون المقارنة على نطاق واسع من أجل التمييز بين الأوضاع الجيدة والرديئة.

التخلف الحضاري والمعرفي يضعف شهية الناس للتساؤل، وحين يتساءلون فإنه يمدهم بأجوبة وهمية..

حين نجد إنساناً، يتحدث بكثرة عن الطرائف والعجائب التي وقعت له أو شاهدها، والتي لا تقع في العادة مع غيره، فإن المبدع ينظر إلى هذا الشخص على أنه يتجاوز الحقيقة أو يبالغ، على حين أن غير المبدع يقف مشدوهاً أمام ما يسمعه من ذلك الإنسان. يقوم المعلم باختيار مجموعتين من طلاب الصف السادس الابتدائي، كل مجموعة من مدرسة، ويمنح لكل مجموعة أربعين دقيقة كي تتحدث بصدق وأمانة عن الميزات والسلبيات التي تشعر أنها موجودة في

المدرسة التي تنتمي إليها، وبعد ذلك يطلب من كل مجموعة أن تدوِّن على الورق المشكلات التي يمكن أن تكون في مدرستها، وبعد ذلك يقوم المعلم بمناقشة كل مجموعة على حدة حول ما تنظر إليه على أنه مشكلة حقيقية. وأنت ترى أن الإحساس بالمشكلات هو أحد أسس (التفكير النقدي) وذلك لأن النقد في الحقيقة هو نوع من أنواع الإبداع.

د ـ حين نلتقي بشخص نعتقد أنه متفوق أو مبدع، فإننا نتوقع أن نسمع منه أفكاراً عظيمة وجديدة؛ والحقيقية هي أن من الصعب التأكد من جدة الفكرة، فقد يكون ما يقوله ليس جديداً، وإنما هو قديم، لكننا لم نسمع به من قبل، وقد يكون دور المبدع عبارة عن صقل الفكرة أو تحويرها أو الإضافة إليها، وليس توليدها، ومن هنا فإن شعور المبدع بأنه يقدم حلاً غير مقتبس، أو يقدم فكرة، يرى أنه أبدعها على نحو كامل ـ قد يكون هو المعيار الذي نحكم من خلاله على (أصالة) ما نسمع ونقرأ.

> **إن الزغل في العلم لا يقتصر على طرح المعرفة الهشة، وإنما يتجاوزه إلى الإطناب في بحث القضايا الجزئية وشغل الناس بها..**

المبدعون ينتجون الأفكار الأصيلة، لكن الأصالة لا تقتصر على الجِدَّة، وإنما تعني أيضاً النفع والفائدة، بل إن القيمة الحقيقية لكل المعارف، إنما تنبع من اتصالها بحياة الناس، وقدرتها على تحقيق الخير لهم، ودفع الشر عنهم. وأمة الإسلام في أمس الحاجة إلى الأفكار العظيمة التي تساعدها على الازدهار وتخفف من لأواء المشكلات العويصة التي تعاني منها. لدينا حزمة كبيرة من

المشكلات التي يمكن أن نطرحها على نطاق واسع من خلال المدارس ووسائل الإعلام، ثم نقوم بتكليف الطلاب بكتابة بحوث قصيرة فيها، أو تقديم حلول ومقترحات لمعالجتها، ومن تلك المشكلات: الإسراف في استخدام المياه والطاقة، وإعراض الناس عن القراءة، وإعراضهم عن الانخراط في المؤسسات والأعمال الطوعية، وإفراط النساء في الزينة واقتناء الحلي والشكليات، وضعف القاعدة الصناعية، والبطالة، وعدم تلاؤم خريجي الجامعات مع سوق العمل وإدمان التدخين والمخدرات.. إن الأطفال يحجمون عن الإدلاء بآرائهم - والتي قد تكون بناءة ومثمرة - خوفاً من النقد والاستهزاء، ولهذا فإن ترحيبنا بكل الأفكار التي يطرحونها، يساعدهم على الإبداع والتجديد.

هـ - المبدعون قليلون في المجتمع، فهم - باعتبار ما - غرباء عنه، ولم يكونوا غرباء إلا لأنهم يسلكون سلوكات، ويقومون بأنشطة، ويطرحون فروضاً.. مختلفة عما لدى السواد الأعظم من الناس، وأنا هنا سأقدم بعض النصائح الموجزة التي يؤدي العمل بها إلى تفتيح ذهنية الطفل، ودفعه في طريق الإبداع بحول الله.

- إذا كان في حيك أو بين أقربائك من يعرف بالعبقرية أو الإبداع واستطعت أن يلتقي أبناؤك به، أو يستمعوا إليه، فخذهم معك، واجمعهم به، فالمبدعون يتركون في جلسائهم آثاراً إيجابية كبيرة، ويحفزونهم بطريقة لا شعورية على الجد والاجتهاد وتعشق الجديد. وقد كان كثيرون من سلف هذه الأمة، يسعون بجد إلى أن يأخذ أبناؤهم عن كبار علماء عصرهم الحديث والفقه والعربية.. وكان ذلك يتم في بعض الأحيان بصورة رمزية، لأن لقاء الصغار بالعلماء كان هو الهدف الأساسي.

كان كثير من علماء هذه الأمة لا يثقون بعلم العالم حتى يرحل في طلب العلم، ويأخذ عن عدد كبير من الشيوخ..

ـ علّم الطفل (التفكير الموسع)، وذلك كأن تحثه على أن يتصور أن كل شيء ممكن الحدوث: الغنى والفقر والنجاح والرسوب والصحة والمرض وانتقال الجيران وإغلاق الحانوت الذي في الحي.. ثم شجعه على أن يتصور الآثار التي يمكن أن تترتب على تلك الافتراضات. نحن نريد أن ننشط الخيال لدى الأطفال، ثم نقوم بمساعدتهم على مناقشة افتراضاتهم وإثرائها وتقويمها؛ وذلك لأن الإبداع كثيراً ما يكون عبارة عن إدراك للطرق المفتوحة والطرق المغلقة.

ـ درّب الطفل على إطلاق التشبيهات الجيدة، لأن ذلك يعزز فهم العلاقات بين الأشياء. والحقيقة أن التربية القديمة لم تكن تهتم بهذه المسألة على النحو المطلوب، مع أن بعض العلماء يعرّف الذكاء بأنه القدرة على الربط بين الأشياء. أطلق بعض التشبيهات البليغة والجميلة أمام الطفل، وقم بشرحها، ثم اطلب منه أن يكمل تشبيهاً بدأت به. قال أحدهم: إن الدماغ مثل (البنك) تأخذ منه بقدر ما تضع فيه. وقال آخر: الوقت كالمال إذا أدرته بحكمة، وأنفقت منه بحرص، فإنك ستجد منه ما تسمر، وتلهو فيه. وقد شبه أحد الكتاب الروس الأثرياء في بلده بالجرذان التي ترتع في مياه المجاري.

لنقل للطفل: أكمل الآتي: النزول إلى النهر للسباحة مثل.....) ، (إن المعدة مثل...) ، (ركوب الدراجة يشبه...)، (المسلم الثابت على تدينه في الشدائد

مثل...)، (الأم التي تتفانى في خدمة بيتها أشبه....) بعد هذا اجتهد في أن تصحح للطفل إذا كان تشبيهه بعيداً، وأن تثري تشبيهاته بما تراه مناسباً.

إن الذي نكافأ عليه ليس كوننا نملك عقولاً، ولكن استخدامنا لتلك العقول..

ـ تدريب الطفل على افتراض حصول بعض الأحداث البعيدة المفاجئة، يساعده على العثور على حلول للمشكلات فيما بعد، كما أنه يوسع دائرة الخيال لديه، وهناك ما لا يحصى من الأسئلة الافتراضية، نذكر منها على سبيل التمثيل: لو أردت العودة إلى منزلك، وليس معك مفتاح، وليس في المنزل أحد كيف تتصرف؟ لو ذهبت إلى المدرسة، وتبيّن لك أن المادة التي ستختبر فيها غير المادة التي أعددت نفسك لها نتيجة خطأ في قراءة جدول الاختبار ماذا تصنع؟ كنت في مدرستك واتهمت زوراً وبهتاناً أنك سرقت ساعة زميلك كيف تدافع عن نفسك؟ كيف تكون الحال لو أصبحت السماء حمراء؟ وكيف يكون حال الناس لو كانوا لا يملكون سوى عين واحدة؟ ماذا يحدث لو كانت النملة أكبر من الإنسان؟ ويمكن للأسرة أن تتخذ من مثل هذه الافتراضات والتساؤلات ألعاباً مسلية ومفيدة لعقول الصغار والكبار، ويمكن للمدارس أن تركز عليها وعلى أشباهها في أنشطتها اللامنهجية.

٢ ـ التفكير الإيجابي:

ليس هناك أسوأ من منظر شاب شاكٍ باكٍ يائسٍ..

للكلمات تأثير على أفكارنا وللعواطف تأثير آخر، ونظرتنا للأشياء والأحداث لها تأثير ثالث؛ ومن هنا يمكن أن نقول: إن الإنسان الإيجابي لا يعتمد على معلومات ومعطيات جديدة في تفكيره، ولا يحاول اكتشاف أمور لم يكن يراها من قبل، وإنما يقوم بإدارة عواطفه والتدقيق في استخدامه للغة على نحو مشجع ومحفز، كما يحاول أن يرى الوجه المشرق للأشياء حتى يحصن نفسه من اليأس والإحباط. والحقيقة أن الجيل الحاضر في حاجة ماسة إلى من يزرع فيه الأمل، ويساعده على رؤية الطرق المفتوحة والفرص السانحة. وبناء التفكير الإيجابي لديه، هو أفضل ما يمكن أن نقدمه إليه في هذا الشأن. إن الجو الأسري والتعليمي الإيجابي هو الأساس في كل شيء، ومن المؤسف أننا محتاجون إلى أن نجعل الآباء والمعلمين إيجابيين أولاً، ثم نطلب منهم أن يؤسسوا عقول أبنائهم وطلابهم على الإيجابية! وهذه بعض الأفكار والأساليب في بناء الإيجابية، أسوقها عبر الحروف الصغيرة الآتية:

أ ـ حين يبلغ الطفل الخامسة، فإن وعيه يبدأ بالتفتح على الميزات التي لديه، كما أنه يعقل معنى اللوم والتوبيخ على الأخطاء التي يقع فيها حين يفعل ما نهاه عنه أبوه، أو حين يسيء إلى أخيه الصغير، ويعقل كذلك معنى ثناء أمه عليه حين يذهب إلى فراشه في الوقت المطلوب، وحين يلعب دون أن تتسخ ثيابه.. حتى نساعد الطفل على تكوين تفكير إيجابي نحتاج إلى أن نذكره بنجاحاته ووقائع تفوقه وبالميزات التي تظهر في سلوكه بين الفينة والفينة، مثل الصدق والمثابرة والجدية والتعاطف مع الآخرين والاهتمام بإخوته الصغار.. إن تذكره لهذه الأمور، يولد لديه قناعة بالتميز والكفاءة، ويزيد ثقته بنفسه، وهذا كله يساعده على مواجهة الصعاب. بعض الناس ـ هداهم الله ـ يفعلون الشيء

المضاد، حيث إنهم لا يذكّرون أبناءهم إلا بزلاتهم وأخطائهم وإخفاقاتهم: أتذكر يوم ضربك فلان، وصرت تبكي دون أن ترد عليه؟ أتذكر يوم طلب منك أخوك الجائع قطعة من الحلوى التي في يدك، ولم تعطه؟ أتذكر حين كنت في الصف الخامس الابتدائي، ولا تعرف ناتج ضرب سبعة في ثمانية؟... هذا كله خطأ يجب أن يتوقف فوراً.

ب ـ من الأمور الأساسية التي تساعد الصغار على تنمية التفكير الإيجابي لديهم ـ نوعية الكلمات التي نستخدمها في التعبير عن مرغوباتنا وحاجاتنا وآلامنا. ومن المهم أن نعلم الأطفال أن يستخدموا التعبيرات التي تدل على القوة والسعادة وحرية الإرادة والاستقلال. وحين نجد أن الصغير يستخدم كلمات، تجنح في دلالتها نحو الضعف أو البؤس أو اليأس، فإن علينا أن نعلمه بدائل عنها ذات ظلال إيجابية وتفاؤلية.

ـ علّم الطفل إذا قلت له: كيف حالك أن يقول: الحمد لله في أفضل حال، أو يقول: أنا في نعمة كبرى. أو يقول: كل شيء ـ والحمد لله ـ على ما يرام، أو كل شيء جيد.. إن هذه التعبيرات، فيها ثناء على الله ـ تعالى ـ، وهذا شيء مهم، أو فيها ما يدل على الشعور بالرضا والاطمئنان، وهذا أيضاً مهم. بعض الأسر تعود صغارها وكبارها استخدام التعبيرات التي تدل على السأم من الحياة أو سوء الأحوال، فإذا سئل الواحد منهم عن أوضاعه قال: (ماشي الحال) أو (لا بأس) أو (نقطع الأوقات تقطيعاً) أو (يفرّج الله).. وهذه التعبيرات تزيد في همومهم إن كانوا مهمومين، ولا تحفزهم إن كانوا في وضع جيد.

الألم شيء محتوم، لكن التعاسة شيء اختياري

ـ لنعلم الطفل أنه إذا كان مريضاً، أو يعاني من صداع أو ألم أن يعبر عن ذلك بتعبير لطيف، فقوله: إن رأسي يكاد ينفجر أو إني أشعر أن أمعائي تتقطع، أو لا يمكن لأحد أن يتصور الألم الذي أحس به.. إن هذه التعبيرات تُضعف الروح المعنوية لدى الطفل، وتثير لديه مشاعر التذمر واليأس. وسيكون الوضع مختلفاً حين يقول: لدي صداع، أو لدي مغص، أو أشعر بألم في رجلي.. لكن يبدو أن كثيراً من الناس قد عودوا أطفالهم ألا يمنحوهم تعاطفهم ومؤازرتهم إلا في حال الشكوى الشديدة، ومن ثم فإن الطفل قد يبالغ في شكواه من أجل استدرار عطف أهله وذويه.

ـ هناك تعبيرات تدل على وجود إمكانية لعمل شيء ما، أو الحصول على شيء، وهناك ألفاظ تقود عقولنا ومشاعرنا نحو المسالك الضيقة والطرق الوعرة، وحتى نبني العقلية الإيجابية لدى الطفل، فإن علينا أن نحفزه باستمرار على استخدام التعبيرات التي تدل على وجود الفرص والإمكانات، وأن نحثه على تجنب التعبيرات التي تدل على الصعوبات والعقبات، أو تشير إلى عجزه الشخصي. من التعبيرات الإيجابية الآتي: (يمكن أن أعمل كذا)، (اترك لي الفرصة كي أجرب القيام بكذا)، (سأحاول..)، (نقدك مقبول، وسأعمل به، وهناك دائماً إمكانية لعمل شيء جيد)، (أملك الخبرة المطلوبة للنجاح)، (أنا أثق بأني نشيط).

أما التعبيرات التي علينا جعل الطفل يتجنبها، أو يقلل منها فهي من نحو: (أنا خائف)، (لا أمل لي في الحصول على أي شيء)، (حيث اتجهت وجدت الناس يكرهونني)، (أنا ليس لي أصدقاء)، (ليس من حولي رجل صادق)، (كلهم لصوص).. إن الإكثار من التعبيرات السلبية، يجعل المزاج سوداوياً،

ويحرض العقل على إنتاج الأفكار اليائسة، ويدفع المرء في اتجاه القعود، على حين أن التعبيرات الإيجابية، تساعد على رؤية الفرص المتاحة، وتولد درجة من الشعور بالثقة والرضا.

لا أحد يستطيع أن يؤذيك دون رضاك

ـ عوِّدوا الأطفال شكر النعم والثناء على المنعم، وعودوهم الاحتفاء بما يملكون، وعودوهم النظرة الإيجابية للمصائب والمحن. إن وجود الطفل بين أبويه وإخوته، وتمتعه بوجود عمات وخالات وأعمام وأخوال، بالإضافة إلى أن والده يعمل وينتج ويكسب، بالإضافة إلى وجود مدرسة، يمكن أن يذهب إليها كل صباح.. إن هذا من النعم الجليلة التي تستحق الحمد لله، كما تستوجب الاغتباط والسرور. لنذكّر الطفل أن هناك مئات الملايين من الأطفال المحرومين من بعض ما يتمتع به. وفي المقابل فإن الشدائد التي قد تلم بالأسرة، أو الأحداث المؤلمة التي يمكن أن يتعرض لها الصغار ـ مهما اشتدت وقست، فإن هناك عشرات الملايين من الأطفال الذين يعانون من مشكلات وأزمات، أشد بكثير، مما يعاني منه الطفل وأسرته؛ ومما يروى في هذا السياق أن رجلاً كان يمشي حافياً وهو يردد في نفسه الكلمات المشحونة بالحسرة والعجز: ما قيمة حياة لا أستطيع أن أحصل منها على ثمن نعل يساعدني على المشي؟! وبعد قليل دخل مسجد الكوفة، فوجد عند بابه رجلاً فقد قدميه، فحمد الله لأنه وجد أن ما يفقده ويحتاج إليه، هو أقل بكثير مما فقده ذلك الرجل.

إن من المؤسف أن كثيراً من الناس لا يهتمون أبداً بما يملكون، وتظل أعينهم معلقة بما في أيدي غيرهم، ولهذا فإنهم يزدرون نعمة الله عليهم في الوقت

الذي يحسدون فيه الناس على ما آتاهم الله ـ تعالى ـ من فضله، إن هؤلاء من مرضى القلوب، وهم ينقلون أمراضهم الخلقية والنفسية من خلال التربية إلى صغارهم، ليكونوا بالتالي نسخة عنهم! كم هو جميل أن نقول للطفل: اذكر لنا عشرة أشياء تدخل على نفسك السرور، وعدّد لنا عشراً من البلايا التي أصيب بها بعض الناس، وقد عوفيت أسرتنا منها.

ليست الأحداث والأشياء هي التي تصنع مشاعرنا، وإنما الطريقة التي ننظر بها إلى الأحداث والأشياء..

د ـ تدريب الأطفال على تلمس المستقبل من أجل تجاوز محن الحاضر؛ لأننا لا نريد للأحوال السيئة أن تؤثر في معنويات الصغار، وعلى سبيل المثال، فقد يرسب أحدهم في الصف الرابع الابتدائي، ويأتي من يقول لأبيه: هذا الولد، لا يحب المدرسة ولا الدراسة، حاول أن توجهه لتعلم مهنة من المهن، أو يقول: أخرجه من المدرسة حتى يساعدك في تجارتك.. إن مثل هذه النصائح مدمرة لنفسية الطفل، على حين أن المطلوب، هو مساعدة الطفل على تجاوز محنته، لنقل له: شعورك بالأسى على الرسوب هو شعور مؤقت، وغداً سوف تكون أحسن. أو نقول له: الآن حصل الرسوب؛ وهذا شيء سيئ ولكن من المؤكد أنك ستبدأ بالاستعداد للامتحانات القادمة. وإذا ضيَّع الطفل كل ما جمعه خلال سنة من مال، فإن علينا عوضاً عن التأنيب والتوبيخ ووصمه بالبلاهة والغباء.. أن نقول له : كن حذراً في المرة القادمة، وكن أكثر حرصاً، ولكن أيضاً كن على ثقة من أن الذي رزقك ذلك المبلغ الذي ضاع سيرزقك أكثر منه، والذين ضيعوا بعض أموالهم كثيرون جداً، وقد أخلف الله ـ تعالى ـ عليهم، فادع الله أن يعوّض

عليك ما ضاع منك. إن النظر إلى المستقبل والعمل من أجله، يملك قدرة هائلة على تبديد أحزان وأوجاع اللحظة الحاضرة، وعلينا زرع هذا المعنى في نفوس الأطفال.

إذا لـم يكـن عـون من الله للفتــى
فـأول مــا يجنــي عليــه اجــتهـاده

هـ - ساعد الصغير على أن يطلق العنان لأحلامه، وهو في سن السادسة، قل له: ماذا تحب أن تكون في المستقبل، أكد على هذا التساؤل مدة فإذا كبر قليلاً، قل له: أتحب أن تكون داعية ناجحاً مثل فلان، أو طبيباً ممتازاً مثل فلان، أو مدرساً بارعاً مثل فلان، أماذا تحب؟ وحين يكبر ويترعرع، تأخذ في مساعدته على أن يحدد اتجاهه في المستقبل. ومن المهم في هذا السياق ألا نترك للتجارب السيئة التي يمر بها أن تؤثر في طموحاته، فقد يرسب الفتى في الصف الأول المتوسط، وبالتالي فإنه سيقول في نفسه: أنا لا أصلح أن أكون طبيباً في المستقبل، لأن الطبيب لا يكون إلا متفوقاً في دراسته. وقد يرسب في إحدى السنوات في مادة الرياضيات فيقول في نفسه: لا يمكن لي أن أكون مهندساً أو مدرساً للرياضيات... وهكذا كلما أخفق في أمر تولدت لديه قناعة بانسداد باب من الأبواب في وجهه إلى أن يشعر في النهاية أنه لا يصلح لأي شيء. التاريخ مملوء بسير الرجال الذين لم يكونوا سوى أشخاص عاديين في صباهم، ثم صاروا أعلاماً عظاماً، ومملوء بسير الرجال الكبار الذين وقعوا في إخفاقات هائلة في بعض أعمالهم أو بعض جوانب حياتهم.. يجب أن نشرح للأبناء أنه لا يشترط للمرء حتى يكون متميزاً أن يكون متفوقاً في كل سنوات دراسته، أو في

جميع المواد، بل يكفي أن يركز جهوده في شيء يحبه، ويميل إليه، ويشعر بامتلاك القدرة على الإبداع فيه، لكن لا بد هنا من الإشارة إلى أن المشكلة تأتي أحياناً من بعض المعلمين وبعض الآباء والأقرباء، حيث إن كثيراً منهم يصنفون الصغار حسب رؤاهم الشخصية وحسب ما يلمسون من النتائج التي يحققونها في المدارس؛ ففلان من الأبناء يكفيه الحصول على الثانوية، لأنه لا يحب الدراسة، وفلان يكفيه الحصول على المتوسطة، لأنه يجب أن يساعد أباه في إدارة أعماله، أما فلان، فينبغي أن يكمل دراسته الجامعية لأنه متفوق وذكي..

سيكون الانتقال من خيبة إلى خيبة ومن فشل إلى فشل شيئاً معلماً لنا بشرط ألا نفقد التصميم والحماسة الداخلية..

وهكذا يضعون عن حسن نية سقفاً لتطلعات الصغار وطموحاتهم، ويرسخون لديهم التفكير السلبي، بل يبذرون في نفوسهم بذور الشك في قدراتهم وبذور اليأس من المستقبل، وهذا يشكل جناية على الصغار. إذا لم نستطع مساعدة الأطفال على أن يتطلعوا إلى المعالي، فلا أقل من أن نكفَّ عن شدهم إلى الوراء.

٣ ـ التفكير الواقعي:

هو التفكير الذي يستند إلى الواقع الماثل أمامنا حقيقة، أو هو تفكير من يرى العالم على ما هو عليه فعلاً دون تجميل أو تحيّز. ويجب أن نعترف في البداية بأن محاولتنا بناء تفكير واقعي لدى الناشئة، هي محاولة شاقة ومحفوفة بالمخاطر، فنحن إذا قلنا للأطفال الحقيقة كاملة، فإننا نخشى من أن ننشر بينهم الإحباط، كما نخشى ونحن نحاول جعل الأطفال واقعيين من أن نضعف التفكير

الإيجابي لديهم، ونخشى كذلك من أن يساء فهمنا من قبل الأطفال، فتكون النتائج مباينة للمقاصد. إذن دعونا نفتتح الحديث عن التفكير الواقعي بالاعتراف بصعوبة المهمة التي نتصدى لها، ودليل صعوبتها قلة من يوفق للنجاح فيها، فمعظم الأطفال إما أنهم يعرفون كثيراً من الحقائق على نحو فجٍ ومؤذٍ، أو أنهم يخدعون من قبل ذويهم وأصدقائهم؛ لكن مع هذا فإنه لا بد أن نعمل شيئاً على هذا الصعيد، وإن كان ما نتطلع إليه لا يتيسر لنا في كل حين. وهذه بعض الإشارات في شأن التفكير الإيجابي:

ستكون الواقعية شيئاً سيئاً إذا كانت ستؤدي إلى الاستسلام للظروف الصعبة والمعطيات الرديئة..

أ ـ إطلاع الأطفال على الواقع الماثل، يعني بوجه من الوجوه إطلاعهم على الحقيقة، ولهذا فإن التفكير الواقعي، يعني التعامل مع الحقائق الثابتة؛ وإن الحقيقة في الرؤية الإسلامية، تستحق دائماً الاعتراف وتستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار، لأنها تؤثر في حياتنا مهما حاولنا تجاوزها أو غض الطرف عنها؛ ولهذا فإن بناء التفكير الواقعي لدى الأطفال هو جزء من احترامنا للحقيقة وجزء من أسلوب تعاملنا معها؛ وهذا أصل معتمد؛ حيث إن إحقاق الحق وتعليمه الناس جزء من رسالة المسلم في هذه الحياة.

ب ـ يبدو أن الطاقة البشرية على خداع النفس لا حدود لها، ولهذا فإن كثيراً من الصغار والكبار، يقومون بأعمال كثيرة، لا ينبغي لهم أن يقوموا بها، فهناك أعداد هائلة من الأطفال وفي كل مكان، لا يخبرون أهليهم أنهم رسبوا في مدارسهم، وهم يفعلون ذلك هروباً من الواقع وخوفاً من التأنيب والتوبيخ الذي

يتوقعونه إذا قالوا الحقيقة، وتصرفوا على أساسها. نحن الكبار نفعل ذلك أيضاً، حيث إن كثيراً من الآباء والأمهات، يحاولون إخفاء خلافاتهم عن الأبناء، والإيحاء بأن كل شيء طبيعي، مع أن الأبناء يعرفون أن العلاقة بين أبويهم ليست على ما يرام، لكنهم لا يعرفون مدى التوتر الحاصل أو حدود ذلك التوتر التي وصل إليها الخلاف، ولهذا فإنهم يعانون من كثير من القلق والخوف على مصير الأسرة، وبعد مدة يفاجأ الصغار بوقوع الطلاق وانهيار الأسرة.. الصغار حين يكونون غير واقعيين، يجدون الأعذار والذرائع لذلك، والكبار لا يختلفون عنهم في هذا، لكن أكثر ما يدفعهم إلى ذلك هو حماية الأطفال من وطأة الحقائق المؤلمة، وجعلهم يشعرون بالأمن والاستقرار، لكننا لا ننتبه ونحن نفعل ذلك أننا نقوم بتعزيز قدرات الصغار على الإنكار وتجاوز الواقع، كما أننا نسوّغ لهم بطريق غير مباشر الوقوع في الكذب والخداع. ويجب ألا ننسى في هذا السياق ما يقوم به بعض الأهل من تخويف الصغار بالجان والعفاريت والأشباح..ويبالغ بعضهم في ذلك مبالغة كبيرة إلى حد دفع الأطفال في طريق التفكير الخرافي!.

التسويف هو القبر الذي يواري فيه كثير من الناس الكثير من الطموحات والآمال والإنجازات العظيمة التي يمكن لهم أن يحققوها..

ج ـ نحن نعرف أن الحقيقة تكون أحياناً مرة وصعبة الاستيعاب وذات أثر كبير في الشعور بالخوف من المستقبل، وكيف يمكن لأم أن تشرح لصغارها أن أباهم غارق في الديون، وهو على وشك دخول السجن، أو يشرح أبٌ لأبنائه أن أمهم مصابة بمرض عضال، وأن عليهم أن يكسبوا رضاها، ويقوموا على خدمتها لأن أيامها باتت معدودة؟! لا شك أن الوضع صعب للغاية، لكن مع كل هذا يبقى خيار الصدق والأمانة والمكاشفة، وتقرير الواقع هو الخيار الأفضل.

إننا حين نقوم بشرح المواقف الأليمة لأطفالنا مع تفصيل الحقائق من وجهة نظرنا، فإننا نجعلهم يدركون أن لدينا القوة العاطفية التي تمكننا من التعامل مع أشد الحقائق قسوة، والتغلب عليها، كما أن إقدامنا على ذلك، يشجع الصغار على أن يسلكوا المسلك نفسه في الإفصاح عن مشكلاتهم.

د ـ نحن كما أشرت، نحتاج إلى تأسيس موازنة بين التفكير الإيجابي المتفائل والقائم على رؤية أفضل ما في الأشياء، وبين التفكير الواقعي القائم على رؤية الأوضاع على ما هي عليه من خير وشر وحسن وقبح، فكيف نتمكن من ذلك؟ نحن نريد للطفل أن يعرف كل شيء، لكن في الوقت المناسب، يجب أن يعرف المشكلات التي ورثتها الأسرة عن أسلافها، وأن يعرف أوضاع الأسرة المادية، كما يجب أن يعرف الميزات والخصائص التي تتمتع بها، والفرص التي تنتظرها... معرفة كل هذا وغيره مطلوبة، لكن السؤال الجوهري: متى يتم ذلك، وكيف يتم؟

قالت العرب: تكلموا تعرفوا.. وطريقة كلام المرء وأسلوبه في اختيار عباراته، مرآة حقيقية لعلمه وفنه وذوقه..

ليس من الصواب أن نحدث طفلاً في الثامنة من عمره عن الديون المتراكمة على أبيه، أو عن خلاف قديم بين أبيه وأحد أخواله.. إن هذا غير ملائم، لأنه يثقل كاهل الطفل، ويشوشه دون أن يكون قادراً على تنظيم رد فعل جيد عليه، ولهذا فإن الإعراض عنه هو الصحيح، لكن حين يصبح الابن في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، فإن من الممكن أن نحدثه عن ذلك حتى يكون له دور في التخفيف من حدته. ومن المهم أن نختار الأسلوب المناسب لشرح ذلك

للطفل، فنحن نعرف أن كل الأحداث والأمور يمكن أن تُشرح بطريقة، تجعل منها كوارث وفواجع، ويمكن أن تشرح بطريقة، تجعل منها تحديات، يمكن مواجهتها والتأقلم معها، وأحياناً التغلب عليها. هذا أب يقول لابنه: نحن مضطرون يا بني إلى أن ننتقل إلى مدينة كذا بسبب انتقال عملي، وأنا أعرف أن هذا سيسبب لك الكثير من الإزعاج والألم لأنك ستفارق مدرستك، وستفارق قبل ذلك المكان الذي ولدت ونشأت فيه، وقد كنت يا بني أحاول ألا أنتقل مراعاة لك، لكن لم أتمكن، فأنا إذا لم أوافق على النقل فقدت عملي، وأنت تعرف ماذا يعني هذا.. لكن كن على ثقة يا بني أنك خلال مدة وجيزة ستألف المكان الجديد، وستكسب أصدقاء جدداً، وستجد مدرسة جميلة كمدرستك، وأتصور أنك بعد سنة من الآن سترفض مغادرة المدينة الجديدة لأنك ستتعلق بها وتحبها، ولو تأملت حولك فستجد أن كثيراً ممن نعرف انتقلوا إلى مكان غير المكان الذي نشأوا فيه، وهم يعيشون الآن سعداء، ونحن في هذه الدنيا لا نستطيع أن نحصل على كل شيء، فيجب أن نقنع بما قدر علينا، ونطلب من الله ـ تعالى ـ المعونة، وما هو قادم أفضل مما مضى، إن شاء الله. وعلى كل حال فإني سأظل أحاول العودة إلى مدينتنا، وسنعود متى تهيأت الظروف. إن الطفل حين نخاطبه بهذا الأسلوب، يشعر أننا نحترمه، ونشركه معنا في تحمل المسؤولية، كما سيشعر أننا نتعاطف معه ونتفهم المعاناة التي سيجدها حين ننتقل من بلدنا إلى بلد آخر.

الاغتباط بالحقيقة شأن من شؤون النفوس الكبيرة..

بعض الآباء يتبع أساليب أخرى، تزيد في مشكلة الطفل، أو تجعله يفقد الثقة بأبيه، ماذا لو قال الأب جهزوا أنفسكم للانتقال بعد أسبوع دون أي مقدمات أو

ملطفات؟ وماذا لو قال الأب: سنترك بلدنا فقط مدة شهرين، وسنعود بعدها، وهو يعتقد أن الانتقال دائم، وليس مؤقتاً؟! وماذا لو أخذ الأب في ذم البلد الذي نشأوا فيه ومديح البلد الآخر الذي سينتقلون إليه؟ إن هذه الأساليب، لا تخلو من شيء من الالتواء، وفيها استهانة بمشاعر الآخرين، وبالتالي فإنها أساليب غير جيدة في شرح الواقع وبناء التفكير الواقعي. توضيح الواقع في حاجة إلى ثلاثة أمور أساسية:

الأول: ألا يخفي الأبوان مشاعرهما على نحو مستمر، وألا يجعلا كل شؤونهما عبارة عن أسرار لا يطلع عليها أحد؛ لأن هذا يخيف الصغار من جهة، ويجعلهم بعيدين عما يجري في أسرتهم من جهة أخرى.

الثاني: عدم المبالغة في إخفاء الأخطاء التي يقع فيها الأبوان، فالأطفال يتعلمون من أخطاء الأهل، كما يتعلمون من صوابهم، لكن حتى يتعلموا من الخطأ، فلا بد أن يعرفوا أولاً الخطأ، وهذا يتطلب اعتراف الكبار بأخطائهم، وتراجعهم عنها. حين نعترف بالخطأ، فإننا نكون قد نزعنا الشرعية عن الوضعية التي نحن فيها، كما نكون قد زرعنا في وعي الطفل ضرورة عدم الاندماج في الواقع وعدم الاستسلام له، لأنه ليس شيئاً مقبولاً.

> الإنسان المتوحش نشأ أصلاً في بيئة متوحشة، والإنسان الرقيق اللماح، اكتسب ذلك من بيئة تقدر هذه الصفات..

الثالث: ألا نخشى من أن يعرف الأبناء الحقيقة مهما كانت مرة، لأنهم إن لم يسمعوا منا سمعوا من غيرنا، وسيكون الأمر سيئاً إذا شعروا بأننا نخدعهم، أو

نكذب عليهم، لكن كما أشرت لنحاول معرفة الأسلوب الملائم لإيصال الحقيقة إليهم.

هـ ـ تتوقف مساعدة الأطفال على استيعاب الواقع وعلى التفكير بواقعية على أمر أساسي في التربية، هو التواصل معهم والبحث عن الأوقات الملائمة للتحدث معهم أكثر وأكثر؛ إننا حين نطيل الجلوس معهم، وقد أغلقنا التلفاز، وأبعدنا كل الشواغل الجانبية، فإننا سنحدثهم عن الكثير من الأشياء، وسنتيح لهم الفرصة أيضاً ليتحدثوا عن الكثير، ويسألوا عن الأمور التي تثير إشكالات لديهم، إذ إن من المعروف أن الجلسات الطويلة، تخفف من رقابة المرء على أفكاره، وتقلل من تحفظه وحذره، وهذا يجعل الصغار يطلعون على الكثير من شؤون الأسرة، كما يتيح لهم الفرصة لسماع الكثير من وجهات النظر حول الأحداث المهمة التي تجري على الساحة. بعض الأمهات ذوات الحنكة التربوية، يتبعن أسلوباً مؤثراً وفعالاً في فهم الطفل للواقع ولطبيعة الحياة، وهو أسلوب القص وسرد الحكايات، إنهن يتخذن من القصص والحكايات الواقعية والمتخيلة أداة لشرح الواقع، وأنه ينطوي على الأفراح والمسرات، كما ينطوي على الأحزان، وينطوي على الفضائل والمواقف النبيلة، كما ينطوي على الرذائل والمواقف السيئة والدنيئة.. وهن يتخذن إلى جانب هذا من (الحكي) وسيلة للتوجيه، فهذه قصة تحكي العاقبة السيئة لطفل أهمل في دراسته، فرسب، وطرد من المدرسة، وحين كبر صار يعمل بأجر قليل وأعمال مجهدة.

المراجعة والنقد الذاتي يسببان آلاماً للناس، لكنهما يمثلان الخطوة الأولى على طريق إيقاف التدهور..

وهذه قصة لفتى تغرب عن أهله للدراسة في إحدى الثانويات، والتف حوله زمرة من رفقاء السوء، فسحبوه إلى مستنقع المخدرات، وكانت النتيجة الانخراط في أعمال السرقة واللصوصية، مما أدى إلى سجنه مدة عشر سنوات، وهذه حكاية فتى يحافظ على وقته بدقة، مما جعله يتفوق على أقرانه، ويحصل على أعلى شهادة في عائلته الكبيرة وهكذا..

٤ ـ التفكير الناقد:

يحتاج أطفالنا ـ كما نحتاج نحن ـ إلى امتلاك الرؤية النقدية، وامتلاك القدرة على ممارسة النقد. النقد قبل كل شيء يعني قيام الناقد بتقويم الأفكار والأحداث والسلوكات، وتوضيح ما فيها من صواب وخطأ وجمال وقبح وخير وشر.. إذن النقد لا يهدف إلى بيان العيوب فحسب، كما هو شائع. والنقد عمل عظيم، لأنه يبصرنا بالموقف الصحيح الذي يجب أن نتخذه من الأوضاع والعقائد والعادات السائدة في بيئاتنا ومجتمعاتنا. إن مما لا جدال فيه أنه ليس هناك مذهب أو تيار أو مجتمع ذهب بكل الصواب والفضل والخير، كما أنه ليس هناك مذهب.. جمع كل الأخطاء والشرور، وهناك إلى جانب هذا مفارقة أبدية بين التنظير والتطبيق، فما نفعله لا يتطابق على نحو دائم مع ما نقوله، ونتحدث عنه، كما أننا حين نشغِّل عقولنا، فإنها تنتج الأفكار الجيدة، كما تنتج الأفكار الرديئة.

كثير من الناس لا يتبلور إحساسهم بالعدل إلا إذا تعرضوا للظلم

وعلينا ألا ننسى بعد كل هذا أن كثيراً من أوضاعنا، ينحرف عن الجادة بسبب أهوائنا وشهواتنا وحرصنا على مصالحنا غير المشروعة، ولهذا كله فإن

النقد يعد عملية ضرورية، لأنه يشكل الأداة الأساسية في هذا اللون المهم جداً من ألوان التفكير. وهذه بعض الملاحظات السريعة في التفكير النقدي:

أ - التفكير النقدي نشاط ذهني راقٍ جداً، بل هو أرقى أنواع التفكير لأنه يتطلب معرفة بالموضوع الذي نفكر فيه، كما يتطلب تخيلاً جيداً لعناصر الموضوع، بالإضافة إلى الوعي بالمبادئ والمعايير التي يتطلبها إصدار أو تنظيم المقولة النقدية في المسألة موضوع التفكير. وبما أن كل ما ذكرناه من العناصر المطلوبة للقيام بالتفكير النقدي، لا يكون متوفراً لدى الناس عادة على درجة واحدة، فإن لنا أن نتوقع دائماً نقداً يشوبه شيء من النقص والخلل؛ وفي كل الأحوال، فإن الناقد، يعبر عن وجهة نظر شخصية، قد يوافقه غيره عليها، وقد لا يوافقه. وهذه الملاحظة مهمة، حيث ينبغي أن نلقن الأطفال أنه ليس على الواحد منهم أن يتقبل كل نقد يوجه إليه، إذ قد يكون صحيحاً، وقد لا يكون، كما أن النقد الذي يوجهه معلمه أو والده، لأي فكرة أو أي وضعية، قد يكون في محله، وقد لا يكون. وبناء عليه فإن ما يبديه الأبناء والطلاب من ملاحظات على أسرهم ومدارسهم، وعلى الأفكار والسلوكات السائدة في المجتمع له الحكم نفسه، وعليهم أن يتعلموا الإصغاء لوجهات النظر المخالفة. ومن الملاحظ أن لدى الطفل ميلاً شديداً نحو التمركز حول الذات، ويستمر معه ذلك إلى مرحلةٍ ما من مراحل نموه، ولهذا فإنه قلما يراعي وجهات نظر الآخرين، والصواب لديه، هو ما يراه وما يعتقده هو نفسه، وحين يدخل في مرحلة المراهقة كثيراً ما تتولد لديه نزعة متطرفة نحو الاعتداد بالرأي ونحو تسفيه آراء الآخرين. ولذا فإن على الكبار أخذ ذلك بعين الاعتبار، والنظر إلى هذه الحالة على أنها حالة مؤقتة، تتراجع في وضع متزامن مع الرشد والنضج.

جهودنا التربوية عبارة عن خدمة نقدمها للذين نقوم على تربيتهم، وبعضنا يحولها إلى نوع من الاستبعاد!.

ب ـ حتى تتجه الأسر والمدارس إلى تعليم الصغار التفكير الناقد أو النقدي، فلا بد لها من أن تمتلك الإيمان بقدرة الأطفال على تعلم هذا النوع من التفكير، وإصدار الحكم الصائب، كما لا بد لها من الإيمان بحقهم في أن يبدوا وجهات نظرهم في كل ما يحيط بهم. إن موروثنا الشعبي في المجال التربوي، يفضل الطفل الصامت الممتثل المطيع على الطفل الناقد والمعترض والمدافع عن وجهة نظره، حيث إن كثيراً من الناس في القديم والحديث، ينظرون إلى النقد الذي يمارسه الأطفال للحياة الاجتماعية على أنه نوع من الوقاحة أو التجاوز لحدود الأدب، أو نوع من الغرور والاعتداد المبالغ فيه بالذات، مع أن أسلافنا لم يكونوا كذلك، وكلنا يعرف ما رواه البخاري من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الشجر شجرة، لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟** فوقع الناس في شجر البوادي. قال ابن عمر: وقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله» . وقد ورد في بعض الروايات أن ابن عمر استحيا لأنه كان أصغر الحضور، ولما قاموا من المجلس حدّث أباه بما وقع في نفسه، فقال له أبوه عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من حمر النعم.

إننا بتعليمنا الأطفال أصول النقد وآدابه، نكون قد قدمنا لهم الحماية من التقليد الأعمى، ومن مخاطر الاستسلام للأوضاع السيئة، كما نكون قد هيأناهم ليقوموا بدور إصلاحي نافع في المستقبل.

ج ـ إذا أردنا أن ندعم الملكة النقدية لدى الطفل، فإن علينا أن نحرِّضه على طرح الأسئلة حول ما يرى ويسمع ويشعر.. وذلك لأن الإنسان يسأل حين يرى شيئاً، لا يقره، ولا يوافق عليه، أو حين يسمع شيئاً لا يفهمه، أو لا يعرف أسبابه، أو لا يعرف ماذا يترتب عليه، أولا يعرف رد الفعل الذي سينظمه تجاهه، إنه يلمس مفارقة بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، ولهذا يطرح الأسئلة من أجل فهم حجم تلك المفارقة ونوعيتها وأسبابها والنتائج التي يمكن أن تترتب عليها. إن الله ـ عز وجل ـ فطر الأطفال على التساؤل والتطلع إلى معرفة المجهول والوصول إلى الحقائق الغامضة، وعلينا تجاه هذه الفطرة الجميلة القيام بأمرين:

الأول: هو تلقي تساؤلات الطفل بصدر رحب وبصبر وحكمة، فالأطفال يشبهون في جهلهم بأمور الحياة الذي يدخل غرفة مظلمة لم يدخلها من قبل، ولذا فإنه يتحسس كل شيء، ويسأل عن كل شيء هكذا الأطفال إنهم لا يميزون بين البدهي وغير البدهي، ولا يعرفون الوقت المناسب لطرح السؤال، كما لا يعرفون الشخص المناسب الذي يوجّه إليه السؤال.. وهذا كله يسبب للكبار الضيق والحرج، ولهذا فإنهم ينهون الصغار عن كثرة الأسئلة، وأحياناً يجيبونهم بأجوبة غير صحيحة ولا معقولة.. نعم يمكن أن نقول للطفل: الوقت غير مناسب الآن للإجابة على سؤالك، اسألني حين نكون على العشاء، أو نقول: يصعب عليك أن تستوعب الجواب عن هذا السؤال، وحين تكبر ستعرفه من تلقاء نفسك.. المهم أن يشعر الطفل أنه لا يرتكب خطأ حين يسأل، والمهم أن يتلقى الجواب الصحيح والمقنع.

تفيد بعض الدراسات أن الطالب الذي تتوالى عليه الضغوط، يجد نفسه غير قادر على تحديد أولوياته على نحو جيد..

الثاني: تدريب الأبناء والطلاب على صياغة الأسئلة وعلى توجيهها وتوقيت إلقائها.. والحقيقة أن هذه القضية ذات ذيول؛ حيث إن الأسئلة الممتازة والدقيقة، تعبر عن عقلية صاحبها وثقافته، ولذا فإن التفاوت في مهارة التساؤل تفاوت كبير جداً بين الناس: صغارهم وكبارهم يقول أحد الحكماء: (قد منحني الله - تعالى - ستة رجال أقوياء أمناء، يخدمونني، ويعلمونني كل شيء، وهم أصل كل ما أعرف: (ماذا)، (لماذا)، (كيف)، (متى)،(أين)،(من). إن رجاله الذين يتعلم منهم هم هذه الأدوات الاستفهامية التي تساعده على إيجاد مداخل لفهم القضايا والمشكلات والتعامل معها. شيء جميل ومهم أن نتعود داخل أسرنا ومدارسنا طرح الأسئلة المنظمة والمستفيضة من أجل الإحاطة بالموضوعات التي نتحاور فيها، والمشكلات التي نحاول إيجاد حلول لها، لأن التساؤل المنظم أحد أدوات التفكير الناقد المهمة، وعلى سبيل المثال، فقد يجد الأبوان أن ابنهما الذي يدرس في الصف الثالث المتوسط، ضعيف في أدائه الدراسي، فهو يرسب في بعض المواد، ويحصل على درجات متدنية في مواد أخرى، ومن أجل مساعدته على تجاوز هذه المشكلة، يجلسان معه، ويبدآن بطرح الأسئلة: ما المواد التي تشعر أنك لا تميل إلى دراستها، أو الحضور في حصصها؟ متى بدأ لديك العزوف عنها؟ ما سبب ذلك؟ هل هو صعوبة المنهج، أو صعوبة أسلوب الأساتذة في تدريسه، أو عدم اهتمامهم بتبسيط الموضوعات التي يشرحونها؟ أين تجلس في الصف: في أوله.. أو في آخره..؟ وما تأثير ذلك في متابعتك للمدرسين؟ هل أصدقاؤك في الفصل يعانون من صعوبة فهم هذه المواد، كما تعاني؟ وإذا كان الجواب (نعم) فلماذا يحدث ذلك؟ كيف يمكن التغلب على هذه المشكلة؟ ما العادات التي يجب أن يكسبها الابن حتى يتحسن مستواه؟

من غير احترام المربين لذلك الكائن الذي اؤتمنوا عليه، لا تكتمل معرفتهم به..

ما المساعدة التي يمكن أن يتلقاها من أسرته؟ متى سيبدأ تنفيذ ما تم الاتفاق عليه.. إن في إمكان الأسرة كلها أن تسهم في معالجة بعض القضايا عن طريق طرح الأسئلة، فإذا فرضنا أن الأسرة، تعاني من سوء العلاقة مع الجيران، فإن من الممكن للأسرة أن تجتمع، وتطرح ـ مثلاً ـ الأسئلة الآتية: ما الذي يؤدي إلى توتر العلاقة مع جيراننا: هل هو المشاكسات التي تقع بين الأطفال؟ أو هو إزعاج نسببه لهم؟ أو هو حساسيتهم المفرطة تجاه كل ما لا يوافق هواهم؟ أو هو عدم القدرة على تنظيم شؤون العمارة من نظافة وحراسة..؟ بعد ذلك يتم طرح الأسئلة حول معالجة الأزمة: كيف نصلح الحال بيننا وبين جيراننا: هل يكون بتقديم هدية إليهم؟ أو هو بالاعتذار إليهم عن المرحلة الماضية؟ أو هو بمبادرتهم بالتحية دائماً؟ أو هو بتنظيم لقاء شهري لكل أهل العمارة من أجل تدارس شؤونها؟ أو هو بمصارحتهم وسؤالهم عن أسباب انزعاجهم؟ أو هو بجعل بعض الجيران يسعون إلى الدخول في الصلح والمساعدة على حل المشكلة؟ أو ماذا...؟ من المهم دائماً تحفيز الصغار على أن يلقوا المزيد من الأسئلة، ولو كانت بعيدة أو فجة، وأن يتشارك جميع أفراد الأسرة في الإجابة عنها.

البراعة التي يحتاجها إلقاء السؤال الذكي لا تقل عن البراعة التي يحتاجها الجواب الممتاز..

د ـ يشكل البحث عن الأسباب شيئاً مهماً في التفكير الناقد، حيث إن فهم أسباب ما يجري مهم جداً لسبر أغواره والتعامل معه. ونحن نلاحظ في هذا المقام إلحاح الأطفال على فهم أسباب كل شيء يرونه، أو يسمعون به: لماذا فلان يصيح باستمرار؟ لماذا جيراننا فقراء؟ لماذا رحل عمي من قريتنا؟ أسئلة يومية متلاحقة، لا نجد في كثير من الأحيان أي جواب عنها، وهذا كله دليل امتلاك الصغير لقدر جيد من التفتح الذهني ودليل على حرصه على تنمية التفكير السببي لديه؛ وقد مرت على أمة الإسلام قرون من الانحطاط غابت فيها الرؤية الراشدة، والقائمة على أن لكل أفعال وأوضاع معينة نتائج وتداعيات محددة، وصارت الخرافة و (ضربة الحظ) والخوف من الأشباح والعفاريت والربط غير العلمي بين الظواهر.. صار كل ذلك هو المحرك الرئيس لمعظم أنشطة الناس! ينبغي أن نلقي في روع الصغار أن كثيراً من التقدم العلمي في كل مجالات الحياة، وأن كثيراً من إبداعات المبدعين العظام ـ مدين لمعرفة الأسباب والعلل الكامنة خلف حدوث الظواهر المختلفة، كما ينبغي أن نلقي في روعهم أيضاً أن جزءاً كبيراً من الشعور بالأمن، يظل منوطاً بمعرفة أسباب ما يجري. والحقيقة أن احتياجنا نحن الكبار إلى معرفة الأسباب لا تقل عن حاجة الصغار، وذلك حتى لا تتكرر أخطاؤنا، وحتى نعرف كيف نستخلص العبر والعظات من أحداث الحياة. إن علينا أن نتعلم فضيلة الصبر على البحث عن الأسباب، وأن نحرص في البيوت والمدارس على تمرين الصغار على الربط بين المقدمات والنتائج والعلل والمعلولات وعلى سبيل المثال، فإن من الممكن أن نسوق نموذجين لذلك:

نحن في الحقيقة لا نستطيع فهم أي شيء بعمق إلا إذا فهمنا تاريخه..

١ ـ ما أسباب إعراض معظم الفتيان والشباب العرب عن القراءة: هل هو عدم القدرة على اقتناء الكتاب؟ أو هو عدم معرفة قيمة النفع الذي يعود على القارئ من وراء القراءة؟ أو أن السبب هو أن ظروف تماس الأطفال بالكتاب في المرحلة المدرسية الأولى ظروف سيئة ومنفرة؟ أو أن العرب ما زالوا حديثي عهد بأمية، ولهذا فإنهم لا يملكون تقاليد ثقافية، تدفع أبناءهم إلى القراءة؟ أو لأن معظم الوظائف المطروحة في سوق العمل، لا تتصل بالبحث والمعرفة الراقية، مما يجعل الحافز على التعلم الجيد ضعيفاً؟ أو أن النجاح في المدارس سهل إلى درجة كبيرة، ولهذا فإن الطلاب لا يجدون حاجة إلى القراءة المكثفة؟ أو أن معظم الناس لدينا، يعملون في أعمال بدنية شاقة، مما يجعل مزاجهم غير مواتٍ للقراءة والتأمل والبحث؟.

٢ ـ ما أسباب ارتفاع نسب البطالة في معظم دول العالم الإسلامي؟ هل هو شح الموارد وضيق الأراضي وقلة الثروات المعدنية؟ أو هو عدم وجود خطط تنموية طموحة، تدير الثروات، وتستوعب الطاقات؟ أو عدم القدرة على اتخاذ قرارات استراتيجية بالانتقال من التجارة إلى التصنيع؟ أو هو ضعف المؤسسات التعليمية وعدم قدرتها على تهيئة الشباب للانخراط في سوق العمل؟ أو أن ذلك يعود إلى تقاليد ثقافية واجتماعية، تحجب الشباب عن ممارسة بعض المهن؟ أو هو عدم القدرة على توفير فرص عمل تتناسب مع الزيادة السكانية المطردة، أو أن السبب عبارة عن خليط من العوامل التي ذكرناها، أو خليط منها ومن عوامل أخرى؟

من المؤسف أن كثيراً من الشباب والشابات، باتوا يعتقدون أن المال بمفرده كاف للحصول على السعادة.

من المهم أن نوضح هنا أننا ما دمنا نتحدث عن ظواهر إنسانية واجتماعية، فإن الأسباب ستكون متعددة ومتنوعة، ولهذا فإن علينا أن نفكر في الوزن النسبي لكل سبب من الأسباب التي نتحدث عنها. مرة أخرى أؤكد على ضرورة إشراك الصغار فيما يدور في المجالس من أحاديث ومسامرات، بالإضافة إلى حثهم على التأمل والتساؤل؛ لأن هذا يساعدهم على تنمية ملكة النقد لديهم.

هـ - يعتمد التفكير النقدي اعتماداً شبه كلي على إدراك المحاسن والمساوئ، أو الإيجابيات والسلبيات موضع النظر. ومستندنا عند مباشرة أي نقد يتمثل في اعتقادنا أن الشيء مهما حسن، فإنه لا يخلو من بعض العيوب، ومهما قبح، فإنه لا يخلو من بعض المحاسن، لكن الملاحظ أن عقولنا، أقدر على رؤية السلبيات منها على رؤية الإيجابيات، ومن ثم فإن الناقد الفذ هو الذي يستطيع وضع الإصبع على مواطن العظمة والسمو والإبداع والتفوق والجمال في النصوص والأعمال والأشياء التي ينظر فيها. ومن المؤسف أن مجالسنا مفعمة اليوم بذكر الكوارث والمصائب والانتكاسات والمشكلات؛ مما جعل الجيل الجديد، لا يجد في مجالسنا سوى الشكوى المغلّفة باليأس والإحباط، ولهذا فإننا في حاجة ماسة إلى جعل وعي الصغار يتفتح على الميزات والإيجابيات أكثر من تفتحه على السلبيات والأزمات، وإذا تحدثنا عن سلبية ما، فلنتحدث عنها في سياق نقدي تقويمي شامل.

قد أخفقت الجامعات والمدارس إخفاقاً ذريعاً في تمليك منسوبيها رؤية واضحة لأوضاع العالم المعاصر..

إن المدارس تستطيع تنمية مهارة إدراك المحاسن والمساوئ عبر الأنشطة (اللامنهجية) حيث يمكن عقد جلسات للإمطار الذهني، يتم فيها تحديد موضوع معين مثل الغنى أو الفقر أو الشهرة أو الفراغ أو الاجتهاد أو اللين أو الشدة..، ثم يشرع الطلاب، المشتركون في البحث عما في ذلك الموضوع من جوانب إيجابية محبوبة، وما فيه من جوانب سلبية سيئة أو منفرة، ويمكن قسم الطلاب المشاركين إلى فريقين: فريق يتحدث عن المحاسن، وفريق يتحدث عن المساوئ، ويكون الفوز من الفريق الذي يكتشف أكبر عدد ممكن من الإيجابيات أو السلبيات التي يقبلها الحَكَم. إن تعويد الأطفال هذا الأسلوب في التفكير ذو فائدة كبرى على صعيد الوعي بأحداث الحياة وبالأوضاع العامة، حيث إن كثيراً من الأطفال والمراهقين والشباب يتخذون القرارات الخاطئة نتيجة الاندفاع والتهور والذي كثيراً ما يحدث بسبب الرؤية النصفية، والتأثر ببعض الميزات أو السلبيات دون تقليب القضية على وجوهها المختلفة، ولهذا فإن الاهتمام بتنمية هذا اللون من التفكير يوفر للناس جميعاً قدراً كبيراً من التوازن في التعامل مع كل الأشياء. إن العثور على الأخطاء والعيوب ليس بالأمر العسير، وعلى مدار التاريخ كان هناك من يكتشف العيوب، كما كان هناك من يلصق التهم بأطهر الخلق - الأنبياء عليهم السلام - ويجد من يصدقه ويتفاعل مع كلامه، إذن ما العسير، وما التحدي؟ التحدي الأكبر الذي يواجهنا هو إيجاد البدائل، حيث إن هدف التفكير النقدي هو الإصلاح والارتقاء وليس التشهير أو التشويش؛ والنقد المنتج هو الذي يساعد على نحو مباشر في الانتقال من حال إلى حال أفضل، أو يساعد على تطوير عمل أو منتج على نحو إيجابي. ونحن في الحقيقة في حاجة إلى ترسيخ هذا المفهوم في عقول الصغار حتى نحميهم من اللغو، ومن النقد الذي لا يتعدى كونه نفثة مصدور أو جأراً بالشكوى أو انتقاماً من مخالف. لا

يعني كل هذا أن اكتشاف العيوب في حد ذاته ليس ذا قيمة، أو لا يدل على إبداع، إنه ذو قيمة عالية وأهمية بالغة، لكن من وجه آخر فإن من النادر أن نجد ناقداً ممتازاً، ينقد وضعية سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية معينة، ثم لا يكون لديه مقترحات وتطلعات لما ينبغي أن يكون عليه الوضع، ولهذا فإننا في حاجة إلى إرساء تقاليد ثقافية جديدة، تركز على البديل وعلى الحل والمخرج.. حين يعرف الطفل أن رفض شيء أو الاعتراض عليه، سيجعلنا نطالبه بالشيء الذي يقبله، أو بالشيء الأفضل، فإنه سيقلل من الاندفاع نحو النقد، كما أنه سيشغّل إمكاناته الذهنية للبحث عن حلول وبدائل، وهذا ينمي عقليته، ويحسّن سوية تفكيره.

إتاحة البدائل وفرص الاختيار أمام الأطفال تخفف من التوتر العصبي وضغوط الحياة..

هـ - التفكير الموضوعي:

الوقوف على الحقيقة والتعامل معها على نحو دقيق وبالشكل اللائق - يشكل هدفاً كبيراً لكل بني البشر، وهذا سهل في بعض الأحيان، وذلك حين يكون ما نتعامل معه شيئاً بسيطاً ومحدوداً، لكن الأمر يختلف كلياً حين نتعامل مع أمور معقدة أو كبيرة أو ذات أبعاد إنسانية أو معنوية غير محسوسة، وعلى سبيل المثال، فإن من غير السهل أن نعرف حقيقة التدين أو التربية أو الاقتصاد في بلد، عدد سكانه خمسون مليوناً. إن من الممكن أن نعرّف (التفكير الموضوعي) بأنه:

(نشاط عقلي منظم، يستند إلى معلومات جيدة، ويستهدف الوصول إلى الحقيقة والتعامل معها على ما هي عليه بعيداً عن الذاتية والمؤثرات الخارجية)[1]. وإليك شرحاً موجزاً لهذا النوع من التفكير عبر المفردات الآتية:

كثير من الناس يفكرون بقلوبهم ويخضعون لعواطفهم أكثر من خضوعهم لعقولهم..

أ ـ حين نريد إصدار حكم على شيء، فإن علينا أن نجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المتعلقة به، وقد أكد على هذا المعنى القرآن الكريم في غير موضع، حيث يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2] أي ولا تتبع ما لا تعلمه علم اليقين، بل كن متثبتاً في أمورك، ولا تذهب وراء الظنون والشائعات. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ ﴾[3]. إن علينا أن نشرح للأطفال هذه الحقيقة بأساليب ميسرة ومتعددة لأن لها علاقة وثيقة بالحياة الثقافية والاجتماعية لمعظم الناس. هذا طفل يدرس في المرحلة الابتدائية، يقول له زميله: إن زميلنا فلان ذكر أنك لئيم، وذمك في غيابك، فما كان منه إلا أن شرع في ذمه والتحدث عن معائبه. هذا موقف خاطئ لأن الطفل لم يبذل أي جهد في التحقق من صدق زميله مع أن هناك احتمالاً لأن يكون كاذباً أو واهماً أو قاصداً للإيقاع بين الطالبين لتحقيق مصلحة شخصية، وقد أمرنا الله

---

(1) للمؤلف كتاب بعنوان (فصول في التفكير الموضوعي) ارجع إليه شئت.
(2) سورة الإسراء: (٣٦).
(3) سورة الحجرات: (١٢).

ـ تعالى ـ بالتثبت والتبين في مثل هذه الأحوال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[1]. الأهل وكذلك المعلمون يطلعون على وقائع كثيرة من هذا النوع، وينبغي عليهم استغلالها في تنبيه الطفل وإيقاظ وعيه لهذا الخطأ. وهذا طفل ظن أن أباه موسر، فأخذ يتوسع في طلب المال واقتناء الألعاب، مع أن أباه فقير ومدين؛ وعلى الأم أن توضح ذلك للطفل، وتلقنه درساً في عدم ضرورة الجري وراء الظنون. وهذا طفل ثالث ظن أن معاملة مدرسه له بلطف دليل على نباهته ومكانته في نفسه، فصار يتصرف تصرفات تتسم بالجرأة والتمادي والاستهتار... وهكذا يتوهم الطفل وجود أشياء لا وجود لها في الحقيقة، ويتصرف بناء على ذلك الوهم، وهذه فرصة لتعليمه وتوجيهه.

حين نسرد الغرائب والعجائب على مسامع الأطفال، فإننا نشوه البنية العقلية لديهم، ونمحو في أذهانهم الفوارق بين الممكن وغير الممكن والسهل والصعب.

ب ـ التفكير الموضوعي كما يعتمد على البعد عن الظنون والأوهام والتقديرات المتعجلة، يعتمد كذلك على البعد عن الأهواء والميول الشخصية والمصالح الخاصة، والحقيقة أن البعد عن الظنون قد يكون أسهل من البعد عن الأهواء، حتى إن كثيراً من الباحثين، يرون أن التجرد من الأهواء والخصوصيات الثقافية في إصدار الأحكام وتحديد المواقف، غير ممكن في معظم الأحيان، وإن إدراك الإنسان لما يطرأ من اختلاط على آرائه بأهوائه، لا

(1) سورة الحجرات: (٦).

يتيسر له نفسه في بعض الأحيان بسبب دقة المسالك والمسارب في هذا الشأن، ومن هنا شدد القرآن الكريم على توضيح دور الهوى في البعد عن الحق وسلوك سبل الغواية، حيث قال ـ سبحانه ـ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [1]، وقال: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [2]. إذا كان التحرز عن الأهواء صعباً بالنسبة إلى الكبار، فهو بالنسبة إلى الصغار أصعب، حيث إن الطفل ، يحيد عن الحق، ويميل مع هواه دون أن يشعر بالإثم أو الحرج بسبب تأخر نمو الحاسة الأخلاقية لديه. يتجلى اتباع الأهواء لدى الأطفال في كثير من المواقف، هذا طفل حدث نزاع بينه وبين ابن الجيران، فجاء إلى أهله، يشكوه، ويجعل من نفسه الشخص المعتدى عليه، مع أنه قد يكون هو المعتدي.

إن ضرب المربي لمن يقوم على تربيته، ينافي جوهر العلاقة التي ينبغي أن تقوم بينهما..

وهذا طفل يحب مدرّسه، فيسرف في الثناء عليه، ويكيل له المدائح على نحو لا يوافقه عليه أحد. وهذا طفل يتشاجر مع أخيه، فيصفه بصفات سيئة ليست فيه وهكذا.. إن علينا أن نصغي لما يقوله الطفل باهتمام، وبعد ذلك نبدأ بمناقشته وبيان التجاوزات التي ظهرت في كلامه، ولكن لا بد حتى يكون موقفنا موضوعياً من أن نراقب أنفسنا، فلا نستخلص نتائج يقينية من مقدمات ظنية، ولا

---

(1) سورة الجاثية : (٢٣).
(2) سورة البقرة: (١٢٠).

نحيد عن الحق الصريح اتباعاً لأهوائنا أو حرصاً على تحقيق بعض المنافع الضيقة، وهذا هو التحدي الذي يواجهنا في كل المواقف التربوية.

ج ـ شيء أساسي يحتاج الأطفال إلى فهمه وتمثله، وهو أننا حين ننظر إلى أي قضية من القضايا الثقافية أو الاجتماعية أو الحضارية، فإننا ننظر إليها من خلال مبادئنا وثقافتنا وخبرتنا، وبما أن كل هذه الأمور تختلف من شخص إلى شخص، ومن مجتمع إلى آخر، فإن من الطبيعي أن يكون إدراكنا للظواهر والأحداث والتصرفات مختلفاً ومتبايناً، أعني أن الموضوعية التي يدعيها كل واحد منا لن تكون أبداً كاملة، بل ستكون نسبية ومنقوصة؛ لنشرح للأطفال كيف أن نظرتنا لـ (الفتوحات الإسلامية) ـ مثلاً ـ ستكون مختلفة عن نظرة الأوربيين أو الصينيين، وستكون نظرتهم لحجاب المرأة وتعدد الزوجات وشرب الخمر.. أيضاً مختلفة. وفي المقابل فإن نظرتنا لواقع الحياة في الغرب ولاسيما الأوضاع الأسرية والاجتماعية ـ أيضاً مختلفة ومتباينة بسبب اختلاف (النظارة) التي ينظر من خلفها كل منا. ماذا يعني هذا الكلام؟

> **يمكن للمعلومات أن تكون صماء بكماء إذا لم نقدمها ضمن إطار فلسفي واضح وفي إطار رؤية متماسكة..**

إن هذا الكلام يعني أن علينا أن نحاول فهم المنطلقات الفكرية والثقافية التي تنطلق منها الأمم ـ وكذلك الأفراد ـ من أجل تكوين رؤية واضحة للعالم. ولا يعني هذا تضييع لمعالم الحق والحقيقة، أو طمس معايير الخير والشر، فهذا لا يصح، فنحن وإن كنا نتفهم أسباب الاختلاف بين الناس، ونعرف الضرورات

التي قد تلجئهم إليه، لكننا مع هذا نتمسك بعقائدنا على نحو صارم، ونحاول دائماً أن نكون أمناء وصادقين ومناصرين للحق، وبعيدين عن اتباع الأهواء، ونحن نؤمن أن علينا أن نعامل البشر جميعاً على أسس وأخلاق وقيم واحدة وموحدة. ومن المؤسف أن كثيرين منا لا يستطيعون الجمع بين عناصر هذه الرؤية الرشيدة، فتراهم لا يتسامحون مع الاختلافات الثقافية، ويصبون كل الملل والنحل في قوالب واحدة.. على حين أن كثيرين منا يميّعون الأمور إلى درجة خلط الحق بالباطل والخير بالشر بحجة عدم وجود من يملك الحقيقة المطلقة؛ وهذا شيء خطير، فهناك حقائق كثيرة ثابتة على نحو مطلق، وهي موضع إجماع، ولا يصح أبداً وضعها موضع جدال أو نزاع.

النتيجة والخلاصة هي أن الأطفال يحتاجون إلى أن نرسخ في أذهانهم أننا مع إدراكنا لصعوبة الموضوعية وصعوبة الحياد المطلق في كثير من الأمور إلا أننا نحاول دائماً أن تكون أدلتنا وبراهيننا صحيحة وقوية، كما نحاول أن تكون مقدماتنا صحيحة، إلى جانب الإصرار على مكافحة الأهواء ومغالبة الضغوط التي تستهدف إخضاعنا لرغبات الآخرين ومصالحهم؛ والله مولانا.

نقاط للتذكر

- ✓ الأطفال في حاجة إلى تدريبهم على التفكير الإبداعي لأنهم سيواجهون مشكلات أكثر تعقيداً من المشكلات التي نواجهها اليوم.
- ✓ لا يبدع الطفل إلا إذا عاش في بيئة، تؤمن له أمرين أساسيين، هما الأمان والحرية.
- ✓ الطلاقة مكون أساسي من مكونات التفكير الإبداعي، وهي تعني القدرة على توليد الأفكار والمصطلحات والتعبيرات المحكمة.
- ✓ المبدعون حساسون تجاه المشكلات لأنهم يدركون جيداً الفارق بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون.
- ✓ المبدعون غريبون عن المجتمع، وذلك لأنهم يطرحون فروضاً، ويعرضون أفكاراً مختلفة عما هو مألوف.
- ✓ الذي يفكر على نحو إيجابي، يقوم بإدارة عواطفه، ويستخدم اللغة على نحو مشجع ومحفز، كما يحاول أن يرى الوجه المشرق للأشياء.
- ✓ الطفل في حاجة إلى من يدربه على تلمس المستقبل من أجل تجاوز شدائد الحاضر؛ لأننا لا نريد للأوضاع السيئة أن تؤثر في معنويات الصغار.
- ✓ التفكير الواقعي هو تفكير من يرى العالم على ما هو عليه من غير تجميل أو تشويه.

- ✓ يجب أن يعرف الأطفال كل شيء عن أسرهم، لكن في الوقت المناسب.
- ✓ النقد هو التقويم، أي كشف مساحات الجمال والقبح والخير والشر في الأشياء، وليس اكتشاف المعائب فحسب.
- ✓ شجع الطفل على طرح الأسئلة، وحاول أن تكون أجوبتك على أسئلته صحيحة ومنطقية.
- ✓ البحث عن الأسباب شيء أساسي في التفكير الناقد، لأن فهم كثير من الأوضاع والأحداث، يتوقف على معرفة أسبابها.
- ✓ التحدي الأكبر الذي يواجهنا، ليس اكتشاف النظم المعطوبة، وإنما إيجاد البدائل الصالحة لما نعيبه.
- ✓ التفكير الموضوعي يعني فهم الحقائق والأشياء وحسن التعامل معها بعيداً عن الظنون والأهواء والضغوطات الخارجية.
- ✓ مهما كنا حريصين على أن نكون موضوعيين، فستكون موضوعيتنا ناقصة ونسبية.

تدريبات وتطبيقات

- اضرب أمثلة للطفل من خلالها توضح الفرق بين الإيجابية والتفاؤل الخادع وأمثلة توضح الفرق بين الشجاعة والتهور.
- يقوم رب الأسرة بين الفينة والفينة بتذكير أسرته بالنعم التي أنعم الله بها عليها، ويجتهدون جميعاً بتعدادها.
- إذا شرحت للطفل بعض المشكلات التي تعاني منها الأسرة، فاختم حديثك بالتفاؤل بوجود مخرج وبتحسن الحال.
- عود الصغار أن يتحدثوا عن أسباب معاناتهم بصراحة وصدق وساعدهم على ذلك.
- يقوم المعلم بتكليف الطلاب بالكتابة حول الميزات والسلبيات التي يمكن أن تحدث إذا أغلقنا المدارس، ووكلنا التعليم إلى الآباء والأمهات.
- اشرح للطفل لماذا لا تكون كل انتقاداتنا صحيحة.
- درب الصغير على استخدام صيغة مهذبة في طرح الأسئلة.
- اطلب من الطفل أن يوضح وجهة نظره في مدى اقتناعه بأجوبتك على أسئلته.
- حين تقع حادثة غير مألوفة أو غير متوقعة، فلنشجع الأطفال على التخمين بالأسباب التي أدت إلى وقوعها.

- حين نعرض على الطفل حلاً لمشكلة ما، ثم يرفضه، فإن علينا أن نطلب منه اقتراح البديل، ثم نناقشه في نجاعة ذلك البديل.
- درب الطفل على استخدام كلمات مثل (أظن)، (يمكن)،(ربما)، (لعل)، (قليل)، (كثير)، (بعض) وغيرها من الكلمات الدالة على الاحتمال والنسبية.
- ذكّر الطفل بالمسؤولية التي نتحملها تجاه الكلمات التي نتكلم بها.
- وضح للطفل ضرر الظن السيئ وخطورة قذف الناس ووصفهم بما ليس فيهم.

٣- تكوين المفاهيم

ذكرت في مطلع هذا الكتاب أن الأفكار والمفاهيم تشكل شيئاً جوهرياً في عقلية الإنسان، وبما أننا تحدثنا عن بناء أنواع التفكير لدى الطفل، فإنني أعتقد أن علينا إكمال المشهد من خلال التحدث عن كيفية بناء المفاهيم، وهي قضية في غاية الأهمية، لأن الملاحظ هو أن (قصور المفاهيم) يشكل قاسماً مشتركاً بين كل المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمة، كما أنه يشكل معلماً بارزاً في كل مظاهر التخلف، لأننا إذا اختلفنا في التعريفات والمصطلحات والمواصفات والمعايير، فهذا يعني أننا لسنا متفقين على أي شيء، كما يعني أن الطابع الأساسي لكل منجزاتنا، سوف يكون الفوضى والارتجال، وبالتالي التصادم والتنازع، ثم الاقتتال؛ وإن الذي ينظر إلى تاريخ الحروب الداخلية التي خاضتها الشعوب والحركات والجماعات الإسلامية ضد بعضها، يجد أن لقصور المفاهيم واختلافها الدور الأكبر فيما حدث.

إن العقل البشري لا يتعامل مع الكلمات بالجدية الكافية، وكأنه يشعر أن النظام اللغوي يستطيع إلباس الخيالات أثواب الحقائق.

ومن هنا فإنني أشعر أن على كل المربين الاهتمام بمسألة تكوين المفاهيم والفنيات المطلوبة لذلك، والعمل دون كلل على وضع الأطفال على بداية الطريق في هذا الشأن حتى يتعلموا كيف يصوغون المفاهيم الجيدة بأنفسهم، وإذا تأملنا في مسألة تكوين المفاهيم وتوضيحها، فإننا سنجد أنها لقيت الإهمال شبه التام من قبل معظم المربين في البيوت والمدارس، وذلك يعود ـ غالباً ـ إلى أننا

حديثو عهد بأمية، كما أن صناعة المفاهيم هي عمل فلسفي أصيل، وهي تتطلب الكثير من الصبر والإتقان والدقة، كما تتطلب قدراً عالياً من التفتح الذهني ورحابة الأفق، وهذا كله غير متوفر عند كثير من الآباء والأمهات. وربما كنا نعتقد أن استخدامنا للغة جيد، وأن مراداتنا من المصطلحات والمفاهيم التي نستخدمها واضحة، ولهذا فإن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا التهويل. هذا طبعاً غير صحيح، فاللغة وسيلة قاصرة للتعبير؛ والاختلاف في المفاهيم، وخفاؤها من الأمور الشائعة في كل الثقافات.

تأسيس المفاهيم الجيدة، يحتاج إلى وقت طويل، فهو ليس كتشييدنا ناطحة سحاب، أو بناء مصنع عملاق..

وقد قال أحد الفلاسفة يوماً: (إن مفهوماتنا الواضحة تشبه الجزر المتناثرة فوق صفحة المحيط الغامض) فالغموض والالتباس هو الأصل في المفاهيم التي نتداولها، وليس الوضوح، وحين نفيض في طرح الأسئلة حول أي مفهوم من المفاهيم السيارة، فإننا سنجد الكثير من الاختلاف وسوء الفهم. قد يكون النقاش المفتوح مع الصغار وإلقاء الأسئلة عليهم وتلقيها منهم هو أفضل وسيلة لإنضاج المفاهيم الأساسية وترسيخها في عقولهم. الكبار يلقون على الصغار أسئلة بيانية، تستهدف إثارة أذهانهم، وتدريبهم على التفاعل ومساعدتهم على الفهم، والصغار يلقون الأسئلة على الكبار من أجل معرفة الأسباب والمدلولات والتصنيفات والتقسيمات والعلاقات والتداعيات.. المرتبطة بمفهوم من المفاهيم أو مصطلح من المصطلحات؛ وسأقدم هنا شرحاً لخمسة مفاهيم، أعتقد أن توضيحها للأطفال بطريقة جيدة، يشكل تدريباً لهم على تكوين المفاهيم من غير معلم أو مرب، كما

أن هذه المفاهيم تثري عقلية الطفل، وتحسن مستوى رؤيته للعديد من القيم والقضايا الكبرى:

١ ـ الحوار المثمر:

كلمة (حوار) من الكلمات المطروقة بكثرة في هذه الأيام، حيث ينظر كثيرون إلى الحوار على أنه أداة أساسية لحماية المجتمع من التعانف، كما أنه أداة للتفاهم وتحقيق التسويات المختلفة، كما أن الناس ينظرون إلى الحوار اليوم على أنه جزء من الحقوق الأدبية للإنسان على أخيه الإنسان، إذ من اللباقة والكياسة أن نتقبل نقاش من يريد مناقشتنا في بعض ما نراه، ونذهب إليه، ومن الكياسة والديانة أيضاً أن نناقش من يخالفنا عوضاً عن اغتيابه أو هجره، ومقاطعته. تقول العرب: تحاور فلان مع فلان: تجادلا وتراجعا الكلام، وردّ كل منهما على صاحبه. الحوار إذن يدل على الندية بين المتحاورين وعلى قبول كل المتحاورين بالاستماع لمن يحاور، كما يدل على وجود شيء غامض أو مختلف عليه. إن في إمكاننا أن نجعل من الحوار أداة للتعليم والتعلم والتفهيم والتفهم، وأن نجعله أداة للمقاتلة الكلامية وفرصة لإظهار الأحقاد وإهانة الآخرين. ولهذا فإن المفهوم الذي أود شرحه هنا ليس مفهوم الحوار المطلق، وإنما مفهوم الحوار المثمر.

التعصب للرأي واتهام المخالف، من أشد ما يصرف اهتمامات الناس عن الحوار..

إن كثيراً من الآباء والأمهات لا يملكون الخبرة، ولا يملكون الطاقة الروحية المطلوبة لشرح المفاهيم العميقة على نحو جيد، لكنهم يستطيعون تهيئة

الطفل فكرياً وروحياً للحوار في المستقبل، وذلك من خلال تعليمه أدب الحديث وأدب الاستماع، ومن خلال تشجيعه على التعبير عن آرائه بشكل قوي. إذن المسؤولية الأساسية في بناء المفاهيم الكبرى، تقع على عاتق المدارس أولاً، وعلى عاتق الإعلام ثانياً، وإن تكوين العقلية الحوارية لدى الطفل، يتطلب منا أن نثري خبراته بالمفاهيم الآتية:

- لا يهدف الحوار المثمر إلى إشعال الخصومة بين المتحاورين، ولا ينبغي لهم أن يستخدموه أداة لإظهار التفوق على الخصوم أو وسيلة لإظهار الامتياز الشخصي، وإنما يهدف إلى إضاءة النقاط المظلمة، حيث يحاول كل محاور أن يُري محاوره، ما لا يستطيع رؤيته بنفسه، ورحم الله الإمام الشافعي؛ إذ يقول: (والله ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يُظهر الله الحق على لساني أو لسانه). هنا قد يسأل الصغير، وقد يستطرد المربي دون أن يُسأل: ما المخاطر التي يمكن أن تترتب على استخدام (الحوار) وسيلة لإثبات التمكن العلمي أو التفوق الذهني؟ والجواب هو: أن المسلم يسعى من وراء كل نشاط إلى الفوز برضوان الله - تعالى -، ويحرص على ظهور الحق والوصول إلى الحقيقة، وحين يحيد عن هذا الهدف السامي، فإنه قد يكذب أثناء الحوار، وقد يستدل بأدلة يعرف ضعفها، وقد يفنّد بعض حجج محاوره، وهو يعلم أنها قوية ودامغة، وقد يحوّل الحوار إلى نوع من الجدل السفسطائي العقيم، كما أنه قد يتخذ منه أداة لاحتقار أخيه المسلم، وكل هذا مما يتنافى مع الصدق والمصداقية والأمانة العلمية، ويتنافى قبل ذلك مع الإخلاص والحرص على الخير.

الثقافة الرصينة، هي دائماً ثقافة عقلانية، تبتعد عن تأثير العواطف وأهواء الذات..

ـ إذا أردت للحوار أن يكون مثمراً، فاحرص على الشرح المفصل لوجهة نظرك، ودعم كل ما تقوله بالبراهين، وحاول أن تستفيد من فرصتك في الكلام على أحسن وجه ممكن، لكن مع هذا لا تنس أن ما تدافع عنه كثيراً ما يكون عبارة عن رأي شخصي، وليس حقيقة علمية ثابتة وقطعية، ولهذا فإنه يحتمل الصواب والخطأ؛ وإن من المهم دائماً هو الوصول إلى الحق. هنا قد يسأل المربي الطفل: إذا كان كل واحد من المتحاورين يعتقد أنه على الحق الواضح، ويعتقد أن محاوره مخطئ في وجهة نظره من غير أي ريب، فبكيف سيكون الحوار؟ الجواب هو: سيكون الحوار أشبه بحوار الطرشان! وسينتهي دون تحقيق أي مكاسب علمية، وسنرى تعكراً في القلوب وفساداً في العلاقات.

ـ المحاور الجيد يحرص على سماع محاوره، والاستفادة منه، إنه يطبق القاعدة العظيمة: (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) ولهذا فإنه كما يطلب من محاوره الإصغاء إليه، فإنه يصغي إلى محاوره، ويتابعه بجدية. يمكن للطفل هنا أن يسأل: فإذا أطال المحاور في شرح وجهة نظره أو صار يكرر كلامه من غير فائدة، فهل علي أن أسمعه إلى ما لا نهاية؟ والجواب: شيء جيد أن يكون هناك شخص ثالث يوزع الوقت بين المتحاورين، ويعطي فرصاً متساوية لكل منهما حتى يعبر عن وجهة نظره، وإذا لم يتوفر ذلك الشخص، فيمكن أن يتفق المتحاوران فيما بينهما على ذلك.

العلم لا ينمو من خلال الأجوبة المسكتة، وإنما من خلال الأجوبة التي تثير مزيداً من الأسئلة..

ـ الحوار المثمر، لا يكون حواراً حول كل شيء، كما يجري الآن في مجالس سمرنا، وإنما يكون له موضوع محدد، يلتزم المتحاوران بالبقاء في إطاره، حتى لا يضيع الوقت سدى، وحتى لا تتشتت أذهان الحضور، وحتى يمكن تقييم الحصيلة المعرفية والفكرية للحوار. هنا يسأل الطفل: وماذا لو أن محاوري خرج عن الموضوع المحدد، ماذا أفعل: الجواب: توقف عن الحوار، وقل له: هذا ليس موضوعنا، والشيء الذي تتحدث عنه، لا يثير اهتمامي، وعلينا العودة إلى ما اتفقنا عليه.

ـ إذا كان الحوار بين فريقين، فقد يحدث أن يتجاهل أحد المتحاورين أعضاء فريقه، ويستأثر بالحديث دونهم؛ وهذا شيء خطير لأنه يدل على أنانية فاعله، وقد يعكر قلوب الأعضاء الذين تم تهميشهم، كما أنه يحرم الحوار من بعض الأفكار الجيدة التي يمكن أن يقدموها. عند هذه النقطة قد يقول المربي: إذا كان بعض أعضاء الفريق يميل إلى الصمت، أو ليس لديه ما يقوله، أو يغلب عليه الحياء أو الخوف.. فما العمل؟ الجواب: نحن لا نشترط أن يتكلم الجميع على قدم المساواة، لكن نشترط أن يشعر الكل أن أمامهم فرصة للتحدث، وأن يطلبوا من بعضهم بعضاً المشاركة في الحوار.

ـ لندرب الطفل على أن يشجع محاوره على أن يقول كل ما عنده، وذلك من خلال النظر في وجهه، ومن خلال تحريك الرأس على نحو يدل على الوعي بما يقول وعلى المتابعة له، وأيضاً من خلال النطق بكلمات من نحو: (جميل)، (ممتاز)، (جيد)، (واضح)، (تمام)، (لطيف)، (طيب)... إن هذه الألفاظ إلى جانب تحفيزها للمحاور، فإنها تجعل أجواء الحوار ندية ولطيفة، وتخفف من التوتر الذي يمكن أن يخيم عليها في أي وقت.

- إذا علت نبرة محاورك، واحتد في جداله، فخذه بحلمك، وحاول استيعابه من خلال خفض صوتك وإعطائه فرصة أكبر ليدافع عن نفسه، ومن خلال الثناء على بعض أفكاره، وذكر المتفق عليه بينك وبينه. هنا قد يقول الصغير: لكن هذا قد يجعله يشعر أنه تفوق علي، وأني أحاول استرضاءه؟ الجواب هو: أن المسألة ليست مسألة هزيمة أو انتصار، فالمحاور الجيد لا يهتم بهذا، وإنما المهم عنده هو توفير جو حواري هادئ وودي ومثمر.

- علينا من خلال حواراتنا مع الطلاب في المدارس أن ندربهم على تجنب الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى والألفاظ الغامضة والفضفاضة في دلالتها، وذلك من أجل جعل الحوار، يفضي إلى نتائج محددة وواضحة، هذا طفل يقول: لا يجب عليّ أن أحاوره بصوت هادئ، هذا التعبير يفيد نفي الوجوب، مما يعني أنه يجوز له فعل ذلك، وهذا غير صحيح، وعليه أن يقول: لا ينبغي لي أولا يصح لي أن ارفع صوتي أثناء الحوار، أو يقول: يجب علي أن أحاور بصوت هادئ. وهذا طفل يقول: أنا لا أصدق فلاناً فيما يقوله. وحين سئل عن سبب ذلك قال: إنه لا يملك دليلاً على كذبه، لكنه غير مطمئن له. وهذا كلام غير ملائم في مثل هذا الموقف، إذ إن عليك أن تقبل كلام محاورك، أو ترده عبر استخدام الأدلة والبراهين الواضحة والمقنعة.

التصلب الفكري، يجعل صاحبه لا يرى إلا في اتجاه واحد، كما أنه يكون غير قادر على التخلي عن الأفكار التي امتلكها ولو كانت غير صحيحة..

وهذا طفل ثالث يقول لأعضاء الفريق الذين يحاورهم: كل ما ذكرتموه خلال هذا الحوار كلام مرفوض، وبعيد عن الصحة. وهذا كلام غير دقيق، لأن من الصعب أن نرفض على نحو كلي كلام فريق من المحاورين، وكان عليه أن يقول: إني لا أوافق على معظم ما قلتموه أو كثيرٍ مما قلتموه. والأولى من هذا وذاك الإعراض عن التقييم الإجمالي، والعمل على مناقشة الأفكار المطروحة فكرة فكرة.

- لنشرح للطفل أن الحوار هو فرصة للتعلم والتبصر وزيادة الوعي، ولهذا فإن على المحاور إذا لم يفهم كلام محاوره، أو وجد أنه فوق مستواه.. أن يستوضح منه، ويحاول استيعاب ما يسمعه على نحو جيد. قد يقول الصغير: لكن هذا يجعلني أظهر بمظهر الضعيف في إدراكه وفهمه، وهذا يفقدني الشعور بالندية لمحاوري؟ يمكن أن يكون الجواب هو : هذا غير مهم لأن الحوار ليس ساحة للمبارزة، وإنما مناسبة لزيادة الوعي وكشف الغوامض، ومهما يكن الأمر فإن الاستفهام يظل أفضل من ادعاء الفهم وإظهاره دون أن يكون له وجود.

« ألم يكن شفاء العيِّ السؤال »

حديث شريف

- على المرء أن يستعد للحوار، وذلك بأن يرتب أفكاره قبل الدخول في أي حوار، وأن يحدد الأسئلة التي سيطرحها أولاً، وكذلك أن يحدد المسائل التي سيركز عليها أثناء الحوار، بالإضافة إلى استعراض الأدلة والبراهين التي سيقدمها، واستبعاد الضعيف منها لأن البرهان الضعيف، يستخدم ضد من يقدمه. ويشمل الاستعداد للحوار كذلك التفكير في طروحات المحاور وحججه وكيفية

مناقشته فيها. وأكرر مرة أخرى أن الهدف من كل هذا ليس تحقيق الغلبة وإنما إنجاح الحوار، وجعله حياً ومثمراً والعمل على معرفة الحقيقة.

ـ من الأمور التي تسمم الكثير من حواراتنا ما نجده من تعصب المتحاورين لأفكارهم، والدفاع المستميت عنها، مما يجعل أجواء الحوار متوترة وكئيبة، ولو أن المحاور المسلم اتبَّع المقولة الأصولية المشهورة: (مذهبنا صواب، يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب) لذهب الكثير من حماستنا، ولصارت المناظرات الحامية مطارحات ثقافية هادئة. قد يقول طالب المدرسة: إن على المرء أن يكون واثقاً من أفكاره، كما أن عليه أن يطرحها بقوة وحسم، وما تذكرونه يخالف ذلك؟ والجواب على هذا هو أن رؤيتنا للحياة تتشكل من عقائد قطعية، ومن آراء ورؤى ظنية واجتهادات خاصة، وعلى المرء ألا يفاوض، أو يساوم على ما لديه من أمور يقينية، أما الأفكار الظنية والاجتهادية، فإن نتائج الحوار قد ترسخها في نفوسنا، وقد تخلصنا منها بسبب ظهور ضعفها، ونحن الكاسبون في الحالتين. إن مسيرة الحضارة، لن تتغير، ولن تنقلب الدنيا رأساً على عقب إذا وافق زيد من الناس عمراً في رأيه، أو خالفه، فالأمر أبسط من ذلك بكثير، ولكن الأنانية الخفية هي التي تدفع في اتجاه الاهتمام المبالغ فيه بنتائج الحوار.

إن ترسيخنا لمفهوم: (البدايات تدل على النهايات) جعل طلابنا، ينسحبون من المواجهة عند أول إخفاق يلاقونه!

- من المهم أن نعلّم الطفل وأن ندربه على أن يعبر عن آرائه بأدب ولطف، ويجب أن نقنعه بأن الغلبة في الحوار، ليست شيئاً نسعى إليه، وهي على كل حال لا تتم من خلال رفع الصوت والاقتطاع من حصة المحاور من الوقت، ولا بالسيطرة على المجلس، كما أن المرء يستطيع شرح أفكاره وإقناع محاوره من غير أن يستخدم الكلمات الجارحة والألفاظ القاسية؛ إنه لا يصح في أي حال أن يتحول الخلاف في الأفكار إلى خلاف شخصي بين المتحاورين، لأن ذلك سيعني الخروج عن الموضوعية وعن حدود التهذيب واللباقة.

- النقطة الأخيرة في حديثنا عن مفهوم (الحوار المثمر) تتعلق بإنهاء الحوار، حيث إن المرء حين يحاور غيره، يكون متطلعاً إلى الوصول إلى شيء نافع، فإذا وصل المتحاوران إلى طريق مسدود، فإن عليهما إنهاء الحوار، أو الانتقال إلى موضوع جديد. علامة الوصول إلى طريق مسدود واضحة، وهي كثيراً ما تتمثل في تكرار الطروحات والأدلة والردود، وحينئذ يشعر الجميع أن النقاش لا يتقدم لعدم وجود الجديد وعدم وجود النتائج، وفي هذه الحال، فإن الحكمة تكون في التوقف عن اجترار الأفكار والمقولات، لأن ذلك يوفر الجهد والوقت، ويساعد على إبقاء النفوس أقرب إلى الهدوء والوئام. لكنني أرى أن علينا في آخر كل حوار أن نحرص على أمرين:

الأول: خفض التوتر، والتعبير عن التقدير لمن نحاوره، بالإضافة إلى التأكيد بأن الخلاف في الرأي والموقف لم يؤثر في العلاقة الروحية التي ينبغي أن تسود بين الأصدقاء والزملاء. وإذا أمكن ختم الحوار بطرفة رقيقة تنعش الجميع كان ذلك شيئاً جميلاً.

مهما قرأ الأطفال عن الأخلاق الفاضلة، فإنها ستظل غامضة في أذهانهم ما لم يروا في سلوكات الكبار تجسيدات لها..

الثاني: تلخيص ما تمخض عنه الحوار، حيث سنجد أن هناك أموراً، تم الاتفاق عليها، كما سنجد أموراً أخرى ما زالت موضع نزاع، وهذا طبيعي، إذ ليس المطلوب من الحوار الاتفاق على كل شيء؛ وإن توضيح كل ذلك يحسِّن درجة وعي المتحاورين بالموضوع الذي كان محلاً للنقاش.

٢ ـ الحكم على الأشياء:

نحن ندعو إلى التربية الحرة، كما ندعو إلى تربية الطفل المستقل والمهيأ لتحمل قدر كبير من المسؤولية، ومن هنا فإن من الطبيعي أن نشجع الأطفال على أن يكون لهم حكمهم الخاص على ما يرونه، بل إن علينا أن ندربهم على ذلك لأن موقف الصغير من الأحداث والأشياء ينعكس على عقليته، فإذا كان خاطئاً، فإنه يسهم في تشويه تلك العقلية. وإذا كان من حق الطفل أن يصدر أحكامه على ما يدور في محيطه، فإن من المهم أن يعرف أن للحكم على الناس والأشياء والأحداث أصولاً وقواعد وأدبيات لا بد من الالتزام بها، وإلا فإنه يؤذي نفسه وغيره. وإليك بعض الملاحظات التي تتصل بهذا المفهوم:

ـ التريث في إصدار الأحكام خلق عظيم وعادة حميدة، لأن الإنسان مسؤول أمام الله ـ تعالى ـ عن كلامه، حيث يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾[1]. وحين سأل معاذ ﷺ رسول الله ﷺ إن كان الناس مؤاخذين بما يتكلمون به، أجابه بقوله: «**ثكلتك أمتك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**»[٢].

(1) سورة ق: (١٨).
(2) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

يمتاز المبدعون بأنهم لا يفعلون أي شيء على علاته، وإنما يحاولون تقييمه والبحث في تناقضاته وثغراته..

نحن نعرف أن الأطفال لا يعقلون هذا المعنى على الوجه الذي نريد، ولهذا كان تدريبهم على إمساك اللسان والتروي قبل النطق بأي شيء أمراً مهماً. ونحن لا نستطيع أن نفيدهم في هذه المسألة ـ ومعظم المسائل الأخرى ـ إذا لم نكن نحن أنفسنا ممن يتثبت ويتريث في إصدار الأحكام. هذا طفل يقول: إن معلمي لا يحبني، وحين يسأل عن سبب ذلك، فإنه يقول: لأنني في إحدى المرات تكلمت من غير إذنه. وطفل ثان يقول: ابن جيراننا يتجسس علي، وحين قيل له، كيف عرفت ذلك؟ قال: رأيته واقفاً أمام باب دارنا.. وإذا فتشنا في الحالتين وجدنا أن التعليل غير صحيح، وبالتالي فإن حكم الصغير أيضاً غير صحيح، ويكون علينا ـ كما يفعل كثير من الآباء ـ آنذاك أن نوضح للطفل أنه أخطأ في تفسير موقف معلمه وابن جيرانه.

ـ كثيراً ما يعتقد الطفل أن الكبار دائماً على حق، ولاسيما أباه وأعمامه وأخواله وأساتذته؛ إنهم قدوات في نظره، ومن هنا فإنه يرى أن ما يفعلونه جائز ومقبول، وكذلك ما يقبولونه، ويمدحونه، كما يرى أن ما يرفضونه، ويذمونه هو لا بد شيء مذموم، وهذا الموقف من الطفل بدهي لأنه يتعلم من الكبار كل شيء، فلماذا لا يتعلم هذا الأمر؟ القرآن الكريم بيّن للناس أن الآباء والأجداد، قد لا يكونون على حق، ومن ثم فإن متابعتهم تقود إلى الهلاك؛ وقد قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (1). وقد حذرنا القرآن الكريم من أن يغوينا الشيطان ويوقعنا في المعصية كما فعل بأبوينا آدم وحواء من قبل، حيث قال سبحانه: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ (2).

الأعمال الحضارية العظيمة لا تقوم على المنع والخوف والتوجس، وإنما تقوم على الإيمان والحب والشغف والمبادرة الذاتية والتضحية..

إن من مسؤوليتنا نحن الكبار أن نوضح للصغار أن أحكامنا التي نصدرها على الأشياء والأحداث، لا تكون دائماً صحيحة، وأن ما نفعله لا يكون دائماً صواباً أو مباحاً، كما أننا قد نتكاسل ونتقاعس عن أمور كان ينبغي علينا القيام بها. ونحن الكبار قد نبذل جهدنا كي نصل إلى الحكم السديد، ثم لا نتمكن من ذلك، كما أن أهواءنا تتغلب علينا أحياناً، فلا نقول الحق الصريح، بل قد نقول الباطل، وسكوتنا نحن الكبار عن أمر لا يدل على أنه مباح، فقد نسكت خوفاً من وقوع فتنة، وقد نسكت حياء ممن وقع في الخطأ، كما أننا قد نسكت لأننا لم ننتبه لما حدث، أو لأننا لم نكترث به مع شناعته. هذه التوضيحات في البيوت والمدارس من الأمور المهمة، وإن كنا نشعر بمشقتها وعظم مؤونتها، لكن من الذي قال إن التربية أمر سهل، ومن الذي يقول: إن تمحيض النصح للجيل الجديد شيء من غير ثمن؟ لكن هذه المعاني حتى تكون واضحة وملهمة، فإن علينا أن نجعلها جزءاً من سلوكاتنا ومواقفنا اليومية.

(1) سورة البقرة: (١٧٠) .
(2) سورة الأعراف: (٢٧).

ـ يحتاج الأطفال إلى من يرشدهم إلى نوعية الحكم الذي يصدرونه هل هو: حكم شخصي خاص؛ أو هو حكم ذوقي أو قانوني أو اجتماعي أو شرعي؟ حين يُخرج المعلم أحد الطلاب من الفصل عقوبة له، ويقول أحد الأطفال من زملائه: إن الطالب يستحق ذلك، أو يقول إن المعلم كان قاسياً حين فعل ذلك. هذا الحكم من الطفل حكم شخصي، والحكم الشخصي يظل قابلاً للصواب والخطأ، ومن هنا فينبغي أن نعبر عنه برفق؛ ويمكن أن ندرب الأطفال على ذلك. أما إذا اشترى الوالد لابنه قميصاً، ولم ينل لون ذلك الثوب إعجابه، وحين تعد الوالدة لابنها نوعاً معيناً من الطعام، ثم لا يستسيغه، فإن الحكم في هاتين الحالتين يكون ذوقياً. والحكم الذوقي لا يوصف ـ في الغالب ـ بأنه صائب أو خاطئ، إذ إن لكل واحد من الصغار ذوقه الشخصي الذي لا يحتمل أي نقاش. وهكذا فإننا نستطيع تعليم الطفل ألا يعترض على ملابس بعض إخوته أو بعض زملائه، وألا يعترض على تنظيم خالته لأثاث بيتها؛ لأن المسألة ذوقية. أحياناً يكون الحكم الذي يصدره المرء مبنياً على عرف اجتماعي، وعلى سبيل المثال فإن الناس يستقبحون في بعض المجتمعات أن يجلس ابن صاحب البيت أمام ضيوف أبيه، وإنما عليه أن يظل واقفاً متأهباً لخدمتهم، وبعض المجتمعات لا ترى أن من الملائم أن يُسأل الضيف: هل هو جائع؟ وإنما على صاحب البيت أن يبادر إلى وضع الطعام دون أن يسأله عن حاله. الحكم ذو المرجعية الاجتماعية، يتبدل، ويتغير من بلد إلى بلد ومن زمان إلى زمان، ولهذا فإن مخالفته قد تكون في بعض الأحيان شيئاً جيداً، حيث إن كثيراً من الأعراف السيئة قد تخلص الناس منها نتيجة تمرد بعض الأفراد عليها. إلى جانب هذه الأحكام، هناك حكم مصدره التنظيمات والقوانين السارية، وهناك حكم شرعي، وعلى سبيل المثال فإن الصيد في محمية طبيعية، شيء يمنعه القانون، والقانون يتغير، وقد يكون جائراً، ولهذا

فإن الأحكام القانونية تقبل النقاش والاعتراض، أما الحكم بمنع المحرم من الصيد، فإنه حكم شرعي تعبدي، والأحكام الشرعية، يتعرف عليها المسلم كي يطبقها، ويمتثل لها، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [1]. إن علينا أن نستثمر هذه النقطة في تنمية الإيمان لدى الأبناء، وفي تنمية الولاء والانتماء لهذا الدين، كما أن علينا أن نستثمرها في توضيح المرجعية الفكرية للإنسان المسلم.

إن الحرص على التماثل الشديد بين أبناء المجتمع، قد يدفعه في طريق التحلل الذاتي..

ـ يحتاج الصغار والكبار إلى أن يكونوا دقيقين في صياغة الأحكام التي يصدرونها؛ والحقيقة أن الدقة في استخدام اللغة تعبر دائماً عن تقدم في الفكر وارتقاء في المعرفة، وللتدريب تأثير كبير في هذا، لأن من المعروف أن الناس يتعودون استعمال عبارات محددة دون الوعي بمدلولها الدقيق، هناك ـ مثلاً ـ من يستخدم كلمة (حرام) للدلالة على كل ما لا يعجبه. وهناك من يستخدم كلمة (ممتاز جداً) للدلالة على ما يحوز على رضاه، مع أنه قد لا يكون على هذه الدرجة من الجودة، وإنما يكون حسناً أو مقبولاً أو جيداً وهكذا.. إن تصحيحنا المستمر لتعبيرات الطفل، سوف يحسن معرفته بمدلولاتها، ويوجد لديه عادات كلامية جديدة. شيء حسن أن نوضح للصغار أننا حين نقول: حرام، أو نقول:

(1) (النساء ٦٥).

واجب أو جائز، فإنا ـ في الغالب ـ نستخدم مصطلحاً شرعياً محدداً، وعلينا الالتزام بما ينص عليه الفقهاء في ذلك؛ فالعمل قد يكون مندوباً أو مستحباً أو مسنوناً أو واجباً، كما أنه قد يكون مكروهاً أو محرماً أو مخالفاً للأولى، ولا بد أن نصفه بما يستحقه شرعاً وفقهاً دون تجاوز أو تساهل. ومن وجه آخر فإن هناك كلمات تدل على (ذوق) مستخدمها وتهذيبه، ويحسن أن نرشد الأطفال إليها مثل (لطيف)، (لائق)، (مناسب)، (غير مناسب) ونعلمهم حيثيات استخدامها.

« لا يقل أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لَقَسَت نفسي. ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقل فتاي وفتاتي » حديث شريف

ـ علينا أن نعترف أننا كثيراً ما نبالغ في حب أنفسنا وأولادنا واقربائنا، وأننا نعتز بكثير مما يتصل بنا، فهناك من يمدح أسلوبه الشخصي في الحياة، وهناك من يمدح آباءه وأجداده، كما أن هناك من يمتدح داره وأثاث بيته والجامعة التي درس فيها.. في المقابل فإن كثيرين منا، يواجهون، أو يعبرون عن غيرتهم من الآخرين وحسدهم لهم من خلال التهوين من شأن إنجازاتهم والحط من قيمة ممتلكاتهم؛ وهذا يتصل بالظلم والحيف. القرآن الكريم يوجهنا في الحالة الأولى إلى أن نحمد الله ـ تعالى ـ على ما أفاءه علينا من نعمه، على خلاف ما يفعله بعض الناس من الأشر والبطر والمباهاة، كما أنه يوجهنا كذلك إلى أن نتهم أنفسنا بالتقصير، ونحاول محاسبتها على أخطائها عوضاً عن التحدث عن محاسنها ومناقبها. ويبدو أن غمط الناس حقوقهم والتهوين من شأنهم، مسألة قديمة قدم التاريخ، فهذا شعيب # ينهى قومه عن ذلك حين يقول: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ

وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [1] ويقول ـ سبحانه ـ في النهي عن تمجيد الذات: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [2]. ويذكر لنا القرآن الكريم في سياق آخر: أن الرفع من الشأن الشخصي هو عمل شيطاني، فهذا إبليس يفضل نفسه على آدم # حين يقول: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [3].

حين يرى الطفل أن كل ما حوله كامل فكيف يكون هو ناقصاً..

إن كثيراً من الأطفال في بيئاتنا الإسلامية يسمعون يومياً العبارات التي تحط من شأن الأعداء، وترفع من شأن الأهل والأقرباء، وهذا يشكل عقلياتهم على نحو مشوّه لأننا نعتقد أن الوعي بالذات فرع عن الوعي بالآخر، أي أن الآخرين من أعداء ومخالفين هم لنا أشبه بالمرآة، فإذا شوّهناهم، ووصفناهم بما ليس فيهم، فإننا نكون حرمنا أنفسنا من الرؤية الصحيحة لأوضاعنا وأحوالنا، وفي هذا إساءة بالغة للذات، وحرمان أكيد لها من النقد الذاتي والموضوعي. يجب أن نسمع من الأطفال ما ينطوي على قول الحق المجرد، ولو كان يمس مصالحنا، أو يخالف أهواءنا ورغباتنا، كما يجب أن ننهاهم عن قول الباطل، ولو انطوى على الثناء على الذات، وستر العيوب وتحقيق المصالح، فالمسألة مسألة قيام لله ـ تعالى ـ بالقسط والعدل، وليست مسألة ربح أو خسارة.

---

(1) سورة الأعراف: (٨٥).
(2) سورة النجم: (٣٢) .
(3) سورة الأعراف: (١٢).

٣ ـ الحرية والقاعدة:

مفهوم (الحرية) من أكثر المفاهيم التي أثارت جدلاً واسعاً على مستوى العالم، وقد يفني المرء شطراً كبيراً من عمره دون أن يتمكن من قراءة كل ما كتب فيه. ينبغي أن يشعر الطفل بأنه حر كريم، وأن يشعر بأنه ليس هناك من يسعى إلى كسر إرادته وإهانته وإذلاله، وحين يجد الطفل نفسه مقيداً ببعض القيود التي تحد من اختياراته ومن حركته، فمن المهم أن يفهم أن تلك القيود منطقية وضرورية لسلامته وسلامة أسرته ومجتمعه. وأنا هنا سأحاول تسليط الضوء على مدلول الحرية وعلى مدلولات القواعد والنظم والآداب بوصفها أموراً مضادة للحرية، وذلك على النحو الآتي:

إن الحركة دائماً ممكنة، لكنها إذا لم تؤصل وترشَّد، فقد تكون بالغة الضرر.

أ ـ فطر الله ـ سبحانه ـ النفوس على الميل إلى العيش من غير أي حدود أو قيود، ولهذا فإن الإنسان على مدار التاريخ كان يحلم بالخلود والبقاء بوصفه تجاوزاً لحدود الزمان وقيوده وأبرز ما في الجنة هو دوام نعيمها، وخلود جميع من فيها، كما أنه كان دائماً يحلم بأن يتجاوز حدود المكان، فينتقل من أرض إلى أرض، كما يفعل الطير.. هذا يعني أن التربية الجيدة، هي التي تسعى إلى تنشئة فرد، يحلم ويطمح ويتحرك ويبادر ويختار ويتفاعل في أوسع مساحة ممكنة ووفق تصوره ورؤيته للحياة، وهذا يستهدف إسعاده وإتاحة الفرصة لنمو كل ملكاته، كما يستهدف تنمية قدرته على الممانعة والمقاومة، وتنمية شعوره

بالكرامة والاستقلال. والناظر في الشريعة الغراء، يجد أنها أسست لهذا المفهوم؛ حيث إن الأصل لدينا في الأشياء هو الإباحة، وليس المنع، وإذا كانت الشريعة الغراء قد حرمت علينا نوعين أو خمسة أنواع من الشراب، فإنها لم تنص على ما يباح شربه، لأنه يفوق الحصر. وقل مثل هذا في المأكولات والملبوسات وكل أشكال التمتع. بعض المربين لم يدرك ـ مع الأسف ـ هذا المغزى، فجعل تربيته لصغاره ومن هم تحت يده تقوم على أن المنع في هذه الحياة هو الأساس، ولهذا فإن على الطفل أن يخاف من أي حركة أو خطوة أو موقف، وعليه أن يسأل ويستأذن، وإلا وقع في الغلط، وكانت النتيجة لذلك موت روح المبادرة، والتوجس من الجديد، وترسيخ التقليد. لا يكفي أن نعامل الطفل على أنه حر، بل ينبغي أن نوضح له مفهوم الحرية، وأن نحفزه على الاختيار والممارسة الحرة. لنناقش مع الأطفال ما معنى أن يكون المرء حراً؟ وما فوائد ذلك؟ وما الأضرار التي تترتب على رسوخ روح العبودية في المجتمع؟

ب ـ لا تشكل الحرية مفهوماً أو قيمة من القيم الأساسية فحسب، وإنما هي ضرورة حياتية وتربوية كبرى، إذ إننا نعرف أن كثيراً من ارتقاء الإنسان منوط بإحساسه بأن عليه مسؤوليات تجاه خالقه ـ سبحانه ـ وتجاه نفسه وأهله وبلاده، وهذا الشعور لا يتكون لدى المرء إلا إذا شعر أنه حر، يستطيع أن يقدم وأن يحجم، كما يستطيع أن يعطي، وأن يمنع. الحرية نفسها شرط أيضاً لنمو الوازع الداخلي (الضمير) لأن الرقابة الشديدة على الطفل وضغوط الأسرة، تجعل تصرفاته صدى لها. أما حين نربيه على الحياء من الله ـ تعالى ـ والاعتداد بنفسه ومراقبتها، فإن سلوكاته ستكون مرتبطة بحسِّه الأخلاقي الخاص.

إن ما نلاحظه من ازدواج في السلوك لدى كثير من الأطفال والمراهقين، يعود إلى أن أسرهم، يمارسون ضغوطاً شديدة عليهم دون شرح أو توعية أو تواصل جيد، فيستجيب الأبناء لتلك الضغوط، ويفعلون ما يريد أهلوهم، لكن إذا خرجوا من بيوتهم، أو خلوا بأنفسهم، فإنهم يرتكبون الفظائع، وكأنهم ينتقمون من أهلهم، ومن الفضائل التي أجبروا عليها. ورأينا نماذج أخرى مشرقة لأسر سادها التفاهم والتواصل والمصارحة، وأعطت أبناءها قدراً من الحرية الشخصية، وتعاملت مع اختياراتهم باحترام.. أبناء تلك الأسر، يشعرون بالقوة والانسجام مع الذات، وليس في سلوكاتهم ازدواجية ملحوظة، أو مفارقة ظاهرة، لأن ما يفعلونه صادر عن إيمان وقناعة، وليس لديهم حوافز على النفاق أو الرياء، ولهذا فإن الإنسان الحر يصنع قيوده بنفسه، ويتكيف مع تلك القيود، أما العبد، فتُصنَع قيوده على يد غيره، ولذا فإنه يحاول كسرها والتخلص منها. وأعتقد أن الحوار داخل الأسرة ينبغي أن يتناول وبصراحة ما هو متوفر داخل العائلة من حرية، وما هو موجود من قيود، وإلى أي مدى يشعر الكبار أن أبناءهم ملتزمون ذاتياً بالمبادئ والآداب الإسلامية عن قناعة ورضا، كما ينبغي أن يتحدث الأطفال عن مدى ارتياحهم لدرجة الحرية المتوفرة لهم؛ ومن المؤسف أن قليلين منا من يفعل ذلك مع أهميته!.

توحد عقول الناشئة مع البيئات التي يعيشون فيها يحوِّلهم إلى إمّعات..

ج ـ الحرية بمعناها العميق هي القدرة على الفعل والترك، أو القدرة على الاختيار، والقدرة على الاختيار تعني وجود بدائل؛ وهذه النقطة في غاية الأهمية، ويجب أن نرسخها في عقول الأطفال في سن مبكرة، وتوضيحها سهل جداً، فالطفل الذي يمارس الرياضة، وعنده قدرة جيدة على الجري، يجد نفسه

مخيراً بين الجري والمشي، أما الطفل العاجز عن الجري، فإنه لا خيار أمامه سوى المشي، والذي يذهب إلى السوق وفي جيبه مال، يجد نفسه مخيراً بين أن يشتري شيئاً وبين ألا يشتري، ولا يجد المفلس مثل هذا الخيار. والشاب حين يحصل على الدرجات التامة في شهادة الثانوية، فإنه يأمل في الحصول على منحة دراسية، ويجد كل أبواب الكليات مفتوحة أمامه، على حين أن الطالب الذي حصل على مجموع منخفض، قد لا يستطيع الدخول إلى أي كلية. هذا المفهوم يُخرج الحرية من كونها كلمة جميلة وكونها شعاراً أو مادة للمزايدة السياسية إلى معطيات ملموسة.

كلما كان الإنسان أقوى، كانت الخيارات أمامه أكثر..

القدرة على الاختيار واسعة التطبيقات إلى حدود بعيدة، حتى إن (الإرادة الصلبة) هي بمعنى من المعاني جزء من حرية صاحبها لأنها كثيراً ما تشكل جزءاً عظيماً من رأسمال الأشخاص الأقوياء. القيم السامية أيضاً تدعم قدرتنا ، فالأشخاص الأمناء الصادقون ذوو الأخلاق الحميدة، هم أشخاص أقوياء يشعر الناس بالحاجة إلى التعامل معهم، وإلى توظيفهم، ومن ثم فإنهم يختارون ما هو أنسب لهم من الوظائف. المعرفة والخبرة أيضاً تحسِّن سوية قدرتنا على الاختيار، ولهذا فإننا نجد الشركات تتخاطف أهل التفوق والخبرة الممتازة، وتتسابق على كسبهم. إذن من المهم أن يعرف أبناؤنا أن الحرية نتيجة نحصل عليها مكافأة لنا على جهدنا الذي نبذله، وعلى استقامتنا في سلوكنا. العجز وضعف القدرة على الاختيار أيضاً هو نتيجة للجهل والكسل والفوضى والكذب والخيانة وسوء الأخلاق.

د ـ قالوا قديماً: (الفضيلة وسط بين رذيلتين) وهذا ينطبق على كل الفضائل، ومنها الحرية. نحن نستطيع أن نوضح للأطفال أن المسلم هو إنسان حر بكل معنى الكلمة، بل هو المالك للحرية الحقيقية، لكنه في الوقت نفسه عبد لله ـ تعالى ـ وخاضع لمشيئته، وملزم بشريعته، كما أنه يعيش في مجتمع له أعرافه وتقاليده وحقوقه وواجباته.. وهذا كله يجعل ممارسة الفضائل مقيدة بقيود عديدة، كما أن اعتدال المرء واتزانه يفرضان عليه أن يعطي لكل ذي حق حقه. الأطفال لا يدركون مثل هذه المعاني في البداية، إنهم يظنون أن في إمكان المرء أن يفعل كل ما يحب وأن يتناول كل ما يشتهي، وهم يرفضون أي قيد من أي جهة، لكن علينا أن نجعلهم يكتشفون بالتدريج أن الحياة ستكون مستحيلة إذا فعل كل منا ما يشاء.

> **لن تشعر الشجرة بحرية أكبر حين تنعتق من رق التراب..**
>
> **حكيم**

إن الحرية المنقوصة هي نوع من العبودية، وإن الحرية غير المنضبطة تعني الفوضى، كما تعني العدوان، وتعني في بعض الأحيان تدمير الذات. اسأل الطفل: ماذا لو أن الطفل مارس حريته في النوم ولم يستيقظ إلا الساعة العاشرة صباحاً؟ إنه طبعاً إذا استمر في ذلك سيفصل من المدرسة. ماذا لو أن الإنسان مارس حريته في الطعام؟ إنه ـ في الغالب ـ سيصبح بديناً جداً، وستغزوه العلل والأسقام. ماذا لو أن سائقي السيارات مارسوا حريتهم في قيادتها، ولم يلتزموا بقواعد السير؟ إن النتيجة هي عدد هائل من الحوادث المدمرة. الأطفال في حاجة شديدة اليوم إلى التربية على احترام حقوق الآخرين وعلى التكيف معها، إنه لا

يصح لنا أن نرفع صوت المذياع ـ كما يفعل بعض المراهقين في سيارتهم الخاصة ـ بحجة أننا نحب ذلك، لأننا بهذا نعتدي على حقوق جيراننا في الهدوء والسماع. ولا يحق لنا أن نمارس حريتنا في رمي الأشياء والفضلات في الطرقات لأنها للانتفاع المشترك، ومن حق الناس أن يسيروا في شوارع نظيفة.. وهذه النقطة مهمة جداً لأنني أشعر أن مجتمعاتنا تتعرض لغزو ثقافي مخيف، وهذا الغزو يقوم على جعل الأنانية والتمتع والترفيه الشخصي، هي القاعدة الكبرى في الحياة، وهذا أدى إلى إضعاف التربية الاجتماعية والتي تقوم على التضحية والمراعاة للآخرين.

هـ ـ لا يكتمل فهم الصغار لمعنى (الحرية) إلا إذا ناقشنا معهم معنى القيود ومعنى القواعد؛ حيث إننا قررنا أن الحرية حتى تكون قيمة عظيمة فلا بد أن تكون مقيدة ببعض القيود، أو نقول بعبارة أخرى: إن الذي يمارس حريته بطريقة صحيحة يُخضع حركته للقواعد السارية والآداب والأعراف الاجتماعية الصالحة. المدرسة هي أفضل مكان لمناقشة مسائل الحرية والقيد والقاعدة، ومن هنا فإن المعلم يستطيع أن يناقش مع طلابه الآتي:

المجانين وحدهم هم الذين لا يخضعون في سلوكاتهم لأي قاعدة..

ـ ما معنى القاعدة؟

ـ لماذا نحتاج إلى وضع قواعد تحكم سلوكاتنا؟

ـ ما الأدلة الشرعية على ضرورة الالتزام بالقواعد؟

ـ هل هناك قواعد حسنة وقواعد سيئة؟

- هل نستطيع تجاهل القواعد ولماذا؟

- إذا تجاهل الناس القواعد كيف يكون حال الحياة العامة؟.

- لماذا يتجاهل بعض الناس القواعد؟

- ما أنواع القواعد السائدة في المنزل، في المدرسة، في الشارع، في اللعب الجماعي، في المؤسسات؟

- هل هناك قواعد يجب تغييرها، وما الأمثلة عليها؟

- كيف نتعامل مع القواعد الخاطئة؟

كيف نتصرف إذا وجدنا أن القواعد صيغت بشكل انتقائي أو بشكل غير عادي؟

- هل كل القواعد تتطور، ولماذا؟

- من المسؤول عن حماية القواعد من تجاوز الناس لها؟

- لماذا كان كسر القواعد مرتبطاً بالتخلف؟

- كيف يمكن لكل واحد من المتحاورين أن يسهم في المحافظة على التزام أسرته بالقواعد الجيدة؟.

هل يمكن لنا أن نرى مجتمعاً يحترم القواعد والآداب المرعية على نحو كامل، ولماذا؟.

- ما القاعدة التي تنال الحد الأقصى من تجاوز الطلاب؟

كلما كانت درجة تهذيب المرء أعلى كانت القواعد التي يخضع لها نابعة من التزامه الشخصي..

إن هذا النقاش، يستهدف زيادة بصيرة الطلاب بمعنى الحرية وبأسلوب ممارستها، كما يستهدف تنمية حساسيتهم نحو خرق النظم والقوانين المعتمدة.

٤ ـ الصداقة:

مفهوم (الصداقة) من المفاهيم التي تثير الكثير من الأسئلة عند الأطفال في وقت مبكر، وهو إلى جانب ذلك مفهوم مهم للغاية، لأن الإنسان لا يستغني عن وجود أصدقاء جيدين، والأطفال أشد حاجة إلى ذلك من الكبار؛ حيث إن من الملاحظ أن تعلق الطفل بأصدقائه تعلق كبير جداً، وهم يؤثرون فيه تأثيراً كبيراً. فمن هو الصديق؟

الصديق في لغة العرب: هو ذلك الصاحب الصادق في مودته ومحبته، إنه ذلك الذي يشتاق إليك، إذا غبت عنه، وذلك الذي يملك القدرة على أن يضحي بشيء من وقته وماله وجهده من أجلك، وإنه ذلك الذي يرجو لك الخير، فلا يحسدك على نعمة تصيبها، كما أنه لا يشمت بك إن أصابتك مصيبة. وهذه الصفات الجميلة حين تتوفر لدى شخص، فإنها تدل على نيله درجة من النبل وكرم النفس، لكن توفرها يكون دائماً متفاوتاً في أصدقائنا، لذلك يمكن أن نقول: إن الأصدقاء درجات، والأصدقاء الممتازون، لا يكونون في العادة كثيرين، وإذا ظفر أحدنا بثلاثة أو اربعة من الأصحاب الذين تتوفر فيهم الصفات التي ذكرناها، فذلك فضل كبير من الله؛ تعالى.

إن الذين يفقدون معنى الصداقة الحميمة في حياتهم، يتعرضون لأعظم الصعاب والمشاق على نحو صامت..

الآن سنحاول تخيل ما يخطر في بال الأطفال من أسئلة حول (الصداقة) وسنحاول الإجابة عنها بغية إثراء هذا المفهوم، وسيكون على المربين مناقشة هذه الأسئلة والأجوبة مع الأطفال، والعمل على الزيادة فيها، حتى تتبلور مدلولات هذه الكلمة ومعانيها في أذهانهم على أحسن وجه:

الطفل: هل كل الذين نختلط بهم يكونون أصدقاء لنا؟

المربي: طبعاً لا، فهناك الأقرباء وهناك الزملاء في العمل والدراسة، وهناك الجيران، وهناك المعارف الذين نلتقي بهم في جلسة سمر عند أحد الأقرباء... إن كل واحد من هؤلاء قد يكون صديقاً، وقد لا يكون، فابن العم - مثلاً - قد يكون صديقاً، وقد يكون قريباً فحسب، والصديق قد يكون جاراً لنا، كما أن الجار قد لا يكون صديقاً.

الطفل: هل كل من نعده صديقاً يكون موثوقاً؟

المربي: من الصعب أن نجد شخصاً نثق به في كل أمورنا، إلا إذا افترضنا أن أصدقاءنا حازوا كل صفات الكمال، وهذا الفَرَض غير صحيح، وعلى سبيل المثال، فقد يكون للواحد منا صديق عزيز فعلاً، لكنه يتكلم كثيراً، ويحب أن يظهر بمظهر من يعرف ما يخفى على غيره، فهذا الشخص مع أنه صديق، لا يستحسن أن يفضي إليه أصدقاؤه بالمهم والحساس من أسرارهم. وإذا كان لك صديق جيد، لكنه جاهل في مجال من المجالات، فهل تستشيره وتأخذ برأيه في ذلك المجال؟ الجواب لا وهكذا.. إذن هناك أصدقاء نثق بهم في أمور دون أمور.

إن أي منح للثقة، يجب أن يتم في إطار من التنظيم والترتيب المعتدل..

الطفل: هل يمكن لبعض الأشخاص أن يتحدثوا مع بعضهم دون أن يكونوا أصدقاء؟

المربي: هذا كثير جداً، فنحن نتحدث مع أشخاص لا نميل إليهم، أو لا نحترمهم، كما أننا قد نتحدث مع أشخاص، ليس لنا بهم سابق معرفة. وتجري محادثات مطولة بين كثير من الأعداء في بعض الأحيان.

الطفل: هل يظل الناس أصدقاء مع أنه لا يحادث بعضهم بعضاً إلا نادراً؟

المربي: نعم هذا ممكن، لكن من المعروف أن ندرة التحادث بين الصديقين تحدث نوعاً من التباعد بينهما، فلا يستعين أحدهما بالآخر، ولا يستشيره، ولا يعرف الكثير من أحواله وأوضاعه، وهذا يُضعف عرى الصداقة، ويوهن تبادل المشاعر الحميمة.

الطفل: هل هناك من يتشاجر مع أصدقائه؟

المربي: جوابي لك يتوقف على المراد من الشجار، فهل تقصد بالشجار الاختلاف بالرأي؟ إذا كنت تقصد هذا، فالجواب: نعم. الأصدقاء كثيراً ما يختلفون حول بعض المسائل. أما إذا كان المقصود بالخلاف رفع الصوت والسباب والسخرية فهذا لا يقع بين الأصدقاء إلا نادراً. إما إذا كان المراد من الشجار الضرب وإيقاع الأذية والضرر، فالصديق لا يضرب صديقه، ولا يؤذيه متعمداً.

الطفل: هل هناك أصدقاء، لا يتشاجرون مع بعضهم؟

المربي: ذكرنا أن من الطبيعي اختلاف وجهات نظر الأصدقاء حول بعض الأمور، ومن النادر أن نجد صديقين متفقين في كل شيء. أما الشجار العنيف فلا يقع بين الأصدقاء الحقيقيين.

حاول دائماً أن تقلل من اعتمادك على الآخرين، ولا تسرف في توقع ما يمكن أن تحصل عليه منهم..

الطفل: هل يمكن للمرء أن يصادق أعداءه؟

المربي: لا يمكن للمرء أن يكون صديقاً وعدواً لك في آن واحد، لأن الصديق يتمنى لك الخير، ويضحي من أجلك، والعدو يحاول إيقاع الضرر بك بكل وسيلة. لكن إذا غيّرنا السؤال ليصبح: هل يمكن أن يتحول إلى صديق؟ هنا نقول: نعم لأنه إذا زالت أسباب العداوة، فإن الطريق يصبح مفتوحاً لنشوء الصداقة، وقد عادى نبينا محمداً ﷺ كثير من الناس وسبّوه وقاتلوه، لكن بعد ذلك أسلموا، وصاروا يفدونه بأرواحهم. وبعض الأعداء يمكن إنهاء عداوته من خلال الإحسان والصفح والعفو، على نحو ما نجده في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

الطفل: هل يمكن اتخاذ الصداقة وسيلة للتقرب إلى الله؛ تعالى؟

المربي: لا شك في ذلك، إذا كانت الصداقة قائمة على تقوى الله، وكان البر المتبادل بين الصديقين خالصاً لله ـ تعالى ـ منزهاً عن المصالح الدنيوية،

---

(1) سورة فصلت: (٣٤).

فالإسلام يريد من أبنائه أن يكونوا متحابين متآلفين، ولهم على ذلك الأجر العظيم من الله ـ تعالى ـ على نحو ما نجده في حديث معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «**وجبت محبتي للمتحابين فيّ وللمتجالسن فيّ، وللمتزاورين فيّ، وللمتباذلين فيّ** » [1].

الطفل: هل هناك صداقة دائمة؟

المربي: الأصل في الصداقات أن تستمر، وذلك كثيراً ما يكون من خلال حرص الصديقين على رعايتها والقيام بحقوقها، لكن الواقع يشهد بأن ظروفاً كثيرة تطرأ، فتفتر بعض الصداقات كما أن كثيراً منها يتبدد بسبب سفر أحد الصديقين إلى مكان بعيد. هذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الدول فالصداقات تقوم أصلاً على أساس المصالح المشتركة، فإذا انتفت المصلحة، فإن الدول في العادة لا تتحمل أعباء الصداقة.

الطفل: كيف يمكن أن أجد صديقاً لي؟

المربي: لا أحد يبحث في الشوارع أو في المجالس عن أصدقاء، لكن ظروف الحياة اليومية، تجمعنا بالكثير من الناس، ومن هؤلاء الأشخاص الذين نلتقي بهم نختار أصدقاءنا. والحقيقة أن عملية اختيار الصديق هي عملية اكتشاف؛ والأطفال من خلال الاحتكاك مع أبناء الأقرباء والجيران، ومن خلال الزمالة في المدرسة واللعب مع أبناء الحي، يكتشفون أولئك الموافقين لهم في طباعهم وأوضاعهم، ويقومون بالتالي بمصادقتهم.

---

(1) رواه مالك بإسناد صحيح.

مهما كانت علاقتنا بالآخرين عقلانية ومقنعة، فإننا لا نستطيع عزلها عن العواطف والانفعالات..

الطفل: لماذا يخيّب بعض الأطفال ظن أصدقائهم فيهم؟

المربي: حين يختار الطفل طفلاً آخر ليكون صديقاً له، ثم يتبين له أنه لا يصلح لذلك، فهذا يعني أن عملية الاكتشاف لم تكن صحيحة، وشيء طبيعي أن لا يملك الأطفال المقدرة المطلوبة لذلك، لهذا فيجب أن نوضح أن من المألوف جداً أن يخيب ظن الطفل في بعض أصدقائه، كما أن من المألوف أن يصادق خمسة أو ستة من الأطفال، ثم لا يبقى له إلا صديق واحد، وقريب من هذا يحدث مع بعض الكبار.

الطفل: هل هناك أشخاص لا أصدقاء لهم؟

المربي: الأشخاص الذين لا أصدقاء لهم قليلون جداً، حتى المجرمون واللصوص والمنحرفون يجدون أشخاصاً على شاكلتهم، يقيمون علاقات حميمة معهم، لكن لا بد من القول: إن هناك أطفالاً محبوبين وطيبين، ولهذا فإن كثيراً من الأطفال يُظهر لهم المودة، ويحبون الاقتراب بينهم. وفي المقابل هناك أطفال مشاكسون وأطفال انطوائيون، وهؤلاء وأولئك لا يكون لهم إلا القليل من الأصدقاء، وإن على كل طفل أن يكون من الفئة المحبوبة حتى يتمتع بوجود عدد كبير من الأصدقاء الذين يبادلونه الحب.

الطفل: كيف نرعى الصداقة؟

المربي: العلاقات الاجتماعية على اختلاف أنواعها تشكل مصدراً كبيراً لإسعادنا وطمأنينتنا ، ولهذا فإن علينا أن نحرص عليها، والحرص عليها يتجلى في شيء واحد، هو (التضحية) من أجلها.

خُلُق الرحمة، يتجاوز الحقوق والواجبات والعقود إلى النبل والشهامة والمروءة..

رعاية الصداقة تتم من خلال ثلاثة أمور:

أ ـ الكرم والبذل بين الأصدقاء، هذا صديق يدعو صديقه إلى بيته، وهذا صديق يسمح لصديقه أن يركب معه في سيارة أهله يومياً إلى المدرسة، وهذا صديق لا يترك مناسبة جميلة حتى يقدم هدية إلى صديقه.

ب ـ الحرص على مصلحة الصديق، فالأطفال يحبون آباءهم وأمهاتهم لأنهم يجدون منهم حرصاً منقطع النظر على مصالحهم، وكذلك الصديق يحرص على مصلحة صديقه، ويساعده على تحقيقها، وهذه المصلحة قد تكون دينية وأخلاقية، وقد تكون مادية، ومن أهم ما يمكن للصديق أن يساعد فيه صديقه الاستقامة والبعد عن الأخلاق السيئة، والصديق الصدوق بنصح صديقه ويوضح له عيوبه، ويساعده على التخلص منها.

ج ـ تحمل أذى الصديق والصبر عليه، لأن الصديق قد يؤذي صديقه من غير قصد، وقد يضايقه نتيجة مروره بلحظة ضعف.. وحين يريد المرء للصداقة أن تستمر فلا بد من أن يغض الطرف عن أخطاء صديقه، ويتغافل عنها.

٥ ـ المعرفة:

هذا المفهوم وما يتربط به من معان فرعية من أهم المفاهيم التي يحتاج الأطفال إلى إثرائها وتوضيحها، لأن (العلم) بات يشكل اليوم مفتاح التقدم في العصر الحديث؛ وسوف نحاول تخيل كل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الصغار حول هذا المفهوم، كما نحاول الإجابة عليها ـ كما فعلنا في السابق ـ وذلك بغية تعميق رؤية المربين لمسألة تكوين المفاهيم لدى الأطفال وتوسيع مداها، وذلك على النحو الآتي:

> **كلما نضج العقل أكثر تشوّق إلى المزيد من المعرفة، وطلبه للمعرفة هو داؤه وترياقه في آن واحد..**

الطفل: ما معنى المعرفة، وما معنى العلم، وهل هما شيء واحد؟

المربي: المعرفة هي إدراك الشيء على حقيقته، وذلك مثل إدراكي أن الوقت وقت ظهيرة الآن، وكإدراكي بأن أخي فلاناً موجود في الغرفة المجاورة لأني أسمع صوته؛ فالمعرفة بالأشياء والأحداث عبارة عن إدراك يقيني لها، بعيداً عن الظنون والأوهام.

ومن المهم أن نؤكد في أذهان الأطفال هذا المعنى لأن من الناس من يعبر عن ظنونه بتعبيرات جازمة، وذلك كما يحدث لبعض الناس حين نقول له: هل فلان ذهب إلى بيته؟ فيقول: أعتقد، وهو يريد أنه يظن، وهذا غير مستحسن.

أما عن علاقة العلم بالمعرفة، فالجواب هو أن العرب تطلق (العلم) و (المعرفة) أحياناً، وتريد منهما شيئاً واحداً، وفي بعض الأحيان تطلق المعرفة

على إدراك الأشياء الجزئية والبسيطة، وذلك مثل معرفة درجة حرارة الجو نهاراً في بلد من البلدان، أو معرفة موقع متحف من المتاحف.. أما لفظ (العلم) فيستخدمونه للدلالة على إدراك الأشياء الكلية والمركبة. وهذا التفريق جيد، فنحن نستخدم كلمة (العلم) للدلالة على تلك المعلومات المنظمة والتابعة لجهة واحدة، أو التي تدور في فلك شيء واحد، كما نقول اليوم (علم الطب)، و (علم الجغرافيا) أي تلك المعلومات التي تدرس للمحافظة على صحة الإنسان، والمعلومات المتعلقة بالأرض، وما يرتبط بها من نبات وزراعة ومعادن..

الطفل: هل يكون الشيء هو ذاته من خلال اللافتة التي كتبت عليه؟

المربي: الأصل أن تكون اللافتة أو اللوحة التي كتبت على شيء ـ دالة عليه، فمثلاً إذا وجدنا في أحد معارض السيارات سيارة كتب عليها (السيارة الأسرع في العالم) أو دواء كتب عليه (الأقوى في معالجة الزكام) فإن من المتوقع والمأمول أن يكون الأمر كذلك، لكن الواقع يشهد بأن كثيراً مما يكتب لا يكون صحيحاً أو دقيقاً، ومن هنا فلا بد من التأكد من مصداقية الجهة التي كتبت ذلك، والتأكد مما إذا كانت تخضع لرقابة جهة موثوقة ومعتمدة. يجب أن يعرف الأطفال أننا نعيش في عصر الدعاية والإعلان، وأن المبالغة فيهما هي الأصل، وأن الدقة والموضوعية فيهما ضعيفة.

الطفل: ما الفارق بين ما نراه، وبين ما نسمعه؟

المربي: معرفتنا بما نراه تكون عادة أوثق من معرفتنا بما نسمع عنه، فرؤيتي لشخص يضرب شخصاً آخر، أقوى في إثبات العلم من سماعي عن ذلك من قبل أحد الأشخاص، إلا إذا كان الشيء الذي نسمع عنه مستفيضاً استفاضة

كبيرة، ولهذا فإني متيقن من وجود (الصين) كيقين من زارها مع أني لم أزورها ومتيقن بأن من ملوك المسلمين ملكاً اسمه أبو جعفر المنصور مع أني لم أكن في عصره. إن الذي يحدثنا عن واقعة من الوقائع، قد يكون صادقاً مؤتمناً، وقد لا يكون، وإذا كان صادقاً، فقد يكون دقيقاً في وصفه لما رآه، وقد لا يكون، ومن هنا فإن علينا أن نتأكد من صحة الأشياء التي نسمع عنها. وعلماء الحديث أنشأوا عدداً من العلوم: علم (مصطلح الحديث) و (علم الرجال) و (علم الجرح والتعديل) و (علم العلل) من أجل التأكد من أن الكلام المروي عن رسول الله ﷺ هو فعلاً كلامه. ومن المهم أن ينتبه جميع الأطفال إلى أمر مهم، وهو أن كثيراً من الأخبار التي تنقل مشافهة، يتعرض للتزيد والتشويه، ولهذا فإن علينا أن نتثبت قبل أن نتخذ أي موقف، وقبل أن يصدر عنا أي رد فعل على ما روي إلينا.

مهما حاولنا استيعاب الظواهر الكبرى، فإن فهمنا لها وإحاطتنا بها سيظل فهماً مناهزاً، يروم، ولا يصل، ويقترب ولا يمسك..

الطفل: ما أهمية المعرفة في حياتنا؟

المربي: عدم المعرفة يعني الجهل، والجهل أساس البلاء، وإن كثيراً من ازدهار الأمم المعاصرة، جاء من وراء التقدم المعرفي.وأهمية المعرفة تنبع من شيئين:

أ ـ تحسين علاقتنا بالله ـ سبحانه ـ والارتقاء بمستوى تديننا وأوضاعنا الاجتماعية.

ب - تحسين مستوى حياتنا العامة، وحل مشكلاتنا على صعيد المتطلبات المعيشية.

إن المعرفة التي تجعلنا نخشى الله - تعالى - ونحبه، ونطيع أمره، هي أرقى أنواع المعارف، لأنها تدفع بنا في طريق الفلاح والنجاة، وتلي هذه المعرفة في الأهمية تلك المعرفة التي تساعد على إنقاذ إنسان من الموت، فالدواء الذي يوقف تدهور صحة أحدنا ذو قيمة عظيمة وهكذا.. إن على الأطفال أن يعلموا أن المعارف المثمرة والحية هي التي تتصل بحياة الناس. أما المعارف الميتة أو العقيمة، فهي التي لم نفلح في الاستفادة منها في أمور ديننا أو أمور دنيانا.

الطفل: لماذا كانت المعرفة قوة.

المربي: إنما كانت المعرفة مصدر قوة لبني الإنسان لأن الإنسان العارف يهتدي إلى مسالك الخير، ويعرف كيف يصون نفسه من الوقوع في الأشياء السيئة، كما أن صاحب العلم يعالج مشكلاته بطريقة أنجع بكثير من معالجة الجاهل؛ والدول الغربية حين استعمرت كثيراً من بلدان العالم في القرن التاسع عشر، استطاعت ذلك بسبب استثمار المعرفة الصناعية: صناعة السلاح وصناعة الطباعة وصناعة السيارة والطيارة..

إن إعراض البشرية عن هدي الأنبياء عليهم السلام قد جعل التقدم العملي يقترن بالمزيد من انتشار الفاحشة والتحلل الاجتماعي..

الطفل: هل أحاول معرفة كل شيء أو أركز معرفتي على أشياء محددة؟

المربي: لا بد للإنسان من أن يكون حسن الاطلاع على الكثير من العلوم والمعارف؛ والمدارس بمراحلها المختلفة تؤمن الكثير مما هو مطلوب من المعارف العامة، لكن لا بد بعد ذلك من التخصص، أي تركيز جهد القراءة والبحث والتفكير والحوار في علم محدد أو مجال معرفي معين، فزماننا هو زمان الاختصاص والمعرفة الدقيقة ببعض الأمور؛ حيث لا نجاح بدون معرفة عميقة وجيدة، وهذه المعرفة لا تتوفر إلا من خلال التخصص.

الطفل: ما المقصود بتركيز الجهد في مجال معين؟

المربي: الطفل والمراهق والشاب، كل واحد من هؤلاء يحتاج إلى معرفة شرعية، تساعده على أن يكون مسلماً ملتزماً ومتمسكاً وخلوقاً، ويحتاج إلى معرفة عامة من أجل تحسين مستوى الوعي العام لديه، ويحتاج إلى جانب هذا وذاك إلى معرفة متخصصة في علم من العلوم، وذلك من أجل الإبداع والتطوير والتمكن من الإضافة إلى المعرفة الموجودة في ذلك التخصص. ويمكن على نحو عام أن نخصص (٤٠%) من مطالعتنا للثقافة الشرعية والعامة، (٦٠%) للثقافة المتخصصة.

شرح هذه المفاهيم وأشباهها للأطفال، يحتاج إلى وقت وصبر وقد يتطلب منا نحن الكبار أن نثقف أنفسنا أولاً، وفي هذا خير عظيم، فما أجمل أن نتعلم ونعلم، ونربي أنفسنا وصغارنا في آن واحد.

نقاط للتذكر

- ✓ قصور المفاهيم هو القاسم المشترك بين كل الشعوب المتخلفة.
- ✓ صناعة المفاهيم، عمل فلسفي أصيل، ويتطلب الكثير من التفتح الذهني والكثير من الدقة والاتقان.
- ✓ يُنظر إلى الحوار اليوم على أنه جزء من الحقوق الأدبية للإنسان على أخيه الإنسان.
- ✓ معظم الآباء والأمهات، لا يملكون الخبرة، ولا يملكون الطاقة الروحية المطلوبة لشرح المفاهيم العميقة.
- ✓ يهدف الحوار في الأصل إلى إضاءة النقاط المظلمة في عقول المتحاورين، وليس إلى الإقناع أو تحقيق الغلبة.
- ✓ حتى يؤتي الحوار ثماره، فينبغي أن ينظر كل محاور إلى الحوار على أنه مصدر عظيم للتعليم وتعديل الأفكار.
- ✓ علينا من خلال الحوار مع الطلاب في المدارس أن ندربهم على الدقة في التعبير والابتعاد عن الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى.
- ✓ إن للحكم على الناس والأحداث والأشياء قواعد وأصولاً ينبغي إطلاع الأطفال عليها، وتثقيفهم بها.
- ✓ سكوت الكبار على أمر، لا يدل على أنه مشروع أو صحيح، فقد يكون سكوتهم بداعي الخوف من ظالم، أو من أجل درء فتنة، أو مجاملة صديق..

- ✓ الأحكام والقوانين الوضعية تقبل النقاش والتطوير أما الأحكام الشرعية الثابتة، فلا تقابل إلا بالإيمان والتسليم.
- ✓ يبدو أن بخس الناس أشياءهم مسألة قديمة قدم الإنسان نفسه.
- ✓ فطر الله ـ تعالى ـ النفوس على حب الحرية والعيش من غير حدود ولا قيود.
- ✓ كثير من ازدواج سلوك المراهقين، يعود إلى الضغوط الشديدة التي تمارسها أسرهم عليهم.
- ✓ كلما كان الإنسان أقوى كانت الخيارات أمامه أكثر.
- ✓ الصديق هو ذلك الصاحب الصادق في مودته.
- ✓ من الصعب أن نجد الشخص الذي نثق به، ونستشيره في كل شؤوننا.
- ✓ رعاية جميع العلاقات الاجتماعية، تعتمد على نحو أساسي على التضحية والعطاء المجاني.
- ✓ ليس كل كافر عدواً، وليس كل قريب صديقاً.
- ✓ تستخدم (المعرفة) للدلالة على المعاني الجزئية والبسيطة، على حين يستخدم (العلم) للدلالة على المعاني الكلية والمركبة.
- ✓ رؤيتنا للأشياء تولّد في العادة لدينا معرفة أوثق من التي يولّدها السماع عنها.
- ✓ المعرفة قوة، والجهل ضعف.

تدريبات وتطبيقات

- عوِّد نفسك أن تسأل الطفل عن المعاني التي فهمها من كلامك وصحح له ما يقع فيه من أخطاء.
- ناقش مع الطفل الأسباب التي تحمل المتحاورين على رفع الصوت ومقاطعة بعضهم لبعض.
- عرِّف الطفل على طريقة تحدّث الشخص المتعصب لأفكاره وطريقة تحدث الشخص الباحث عن الحقيقة.
- اسأل الطفل: لماذا كان على المسلم الامتثال للأحكام الشرعية الثابتة دون نقاش.
- الأطفال في حاجة إلى من يعلمهم كيف يعبرون عن غضبهم دون تجنٍ على أحد.
- اشرح للطفل كيف يكون الضعف والعجز شكلاً من أشكال العبودية.
- اجعل الطالب يتحدث عن ثلاثٍ من المشكلات التي تترتب على تجاهل الطلاب للنظم السائدة في مدارسهم.
- اشرح للطالب من خلال الأمثلة كيف أن كثيراً من التشويه للكلام المتداول بين الناس لا يكون عن سوء نية، وإنما عن سوء تفسير وعدم اهتمام.
- ناقش مع الطفل لماذا كانت المعرفة قوة، وكان الجهل ضعيفاً.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ومن والاه إلى يوم الدين وبعد:

فإنني لا أعرف كتاباً في العربية يتناول مسألة عقلية الطفل، وهذا الأمر له وجهان مختلفان، فهو من جهة يشكل فرصة لأن أقدم شيئاً جديداً لقرائي، أما الوجه الثاني فيتمثل في صعوبة سلوك طريق قلّ من سلكه من قبل، ولست أزعم أن ما تناولته من قضايا يعد جديداً على الساحة التربوية، فهذا غير صحيح، وإنما أعني جِدّة العنوان والتنظيم الداخلي للكتاب وبعض الأفكار والمفاهيم المعروضة هنا. وسيظل تفاوت سوية القراء من الأمور التي تشكل تحدياً ظاهراً لجميع الكتّاب، فما هو معقد بالنسبة للقراء ذوي الاطلاع المحدود، يعدّ سهلاً بالنسبة إلى القراء المتخصصين في التربية، بل ربما نظر إليه بعضهم على أنه معاد من القول مكرور؛ وهذا من جملة القصور المستولي على عموم البشر، وقد كنت أشعر أثناء الكتابة أنني ربما بالغت كثيراً أو قليلاً في بيان حجم الواجبات التربوية الملقاة على كواهل الآباء والمربين، وهذا الشعور ليس بعيداً عن الصواب، ولكن من الواضح أن بين التنظير والتطبيق مفارقة أبدية، ونحن مضطرون أثناء الحديث عن الأصول والآداب إلى أن نجنح نحو شيء من المثالية حتى يجد معظم القراء أمامه ميداناً فسيحاً لتغيير ما عليهم من أداء تربوي، وتطوير سلوكاتهم في التعامل مع أبنائهم، وأظن أن هذا الهدف قد تحقق؛ بحمد الله. وإن الأمل ليحدوني إلى أن أحث الإخوة القراء على أخذ

التطبيقات والتدريبات الواردة في هذا الكتاب مأخذ الجد، وأن يحاولوا استخدامها أثناء ممارساتهم التربوية، وذلك لما أتوقعه من ثمار يانعة لهذه المحاولة.

وإني لأدعو الله - تباركت أسماؤه - أن ينفع إخواني القراء بهذا الكتاب، وأن يجعله لي ذخراً يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ إنه سميع مجيب؛ وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع مختارة

- تربية الحرية - تأليف باولو فريري - ترجمة د. أحمد عطية أحمد، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية عام ٢٠٠٤م.
- تنمية التفكير النقدي - تأليف ستيفن د.بروكفيلد - ترجمة د. سمير هوانة - الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة عام ١٩٩٣م.
- تنمية المفاهيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية في الطفولة المبكرة - تأليف د. حنان عبد الحميد العناني، عمان - دار الفكر ط أولى عام ١٤٢٦هـ.
- تعليم التفكير في المرحلة الأساسية - تأليف د. نايفة قطامي، عمّان - دار الفكر ط أولى عام ١٤٢١.
- حول التربية والتعليم - د. عبد الكريم بكار - دمشق - دار القلم الطبعة الثانية عام ٢٠٠٥م.
- خمسمئة طريقة وطريقة لتعزيز ثقة الطفل بنفسه - تأليف روبرت درامسي، الرياض - مكتبة جرير طبعة رابعة عام ٢٠٠٥.
- الطفل المتحرر- تأليف عباس المسيري، القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة أولى عام ١٩٧٣م.
- كيف ينشئ الآباء الأكفاء أبناء عظماء، تأليف - د. آلان ديفيد سون وروبرت ديفيد سون. الرياض - مكتبة جريرة طبعة ثانية، عام ٢٠٠٥م.
- كيف تنشئ طفلاً يتمتع بذكاء عاطفي، تأليف لورنس شابيرو ف.ر الرياض، مكتبة جرير طبعة ثانية عام ٢٠٠٣م.
- مداخل تعليم التفكير، تأليف حسني عبد الباري عصر، بيروت - المكتب العربي الحديث.

فهرس الموضوعات



إن هناك سناً مثالية لزراعة بعض القيم والمفاهيم في نفوس الأطفال وعقولهم، وإن إلقاء عبء التربية على المدرسة سيعني ضياع كثير من الفرص الذهبية من أيدي الأبوين. أضف إلى هذا أن كثيراً من المدرسين ليس لديهم الوقت ولا الرغبة في القيام بدور المربي الجيد، لأنهم يعتقدون أن واجبهم الأساسي هو التعليم، وليس التربية؛ ومهما يكن هذا المعتقد خاطئاً، فإنه لا بد للأسر من أن تعمل على استعادة دورها الريادي في تنشئة أبنائها.

إن الهدف من التربية هو تنشئة جيل ملتزم بتعاليم دينه، قادر على التعامل مع معطيات زمانه، منضبط ذاتياً، ومقدِّر للمسؤوليات الملقاة على عاتقه؛ وهذا لن يتم إلا من خلال وجود مربين، يملكون ثقافة تربوية جيدة، ولهم وضعية سلوكية قويمة. والحقيقة أن الطفل الجيد هو الذي يتعرض لتربية جيدة، والتربية الجيدة تحتاج إلى اهتمام وعناية ومتابعة، كما تحتاج إلى معرفة وممارسة. وفي ظني أن المربين يحتاجون اليوم إلى أمرين مهمين: ←

1 . تعلم الأساليب والممارسات الصحيحة في تربية الأبناء، وأن يسلكوا المسالك، ويقفوا المواقف التي تساعد الصغار على الاستقامة وتمثل القيم والأفكار والمفاهيم الصحيحة. والشيء الذي يجب التركيز عليه هنا، هو أن ما يجب إيصاله للأطفال عن طريق الرؤية والمشاهدة والموقف، سيكون قليل الجدوى إذا وصل إليهم عن طريق الأذن والخطاب والعتاب.. حيث إن أفضل طريقة لجعل الأبناء يحترموننا، ويحترمون أنفسهم أيضاً هي أن نعاملهم باحترام، كما أن أفضل طريقة لجعلهم عطوفين ومدركين لمشاعر الآخرين، هي أن نعاملهم بعطف وحب، وأن يرونا نتعاطف مع الضعيف والمسكين والمظلوم..

2 . معرفة عدد جيد من المفاهيم والرؤى التي تتصل بجوانب الحياة المختلفة، مما يوجه السلوك، وينظم ردود الأفعال، ويصوغ التوجهات العامة للأبناء. وربما كانت المدارس ووسائل الإعلام، وحلقات التوجيه والإرشاد المختلفة، أقدر على امتلاك هذه المفاهيم والرؤى وإيصالها على النحو المناسب، ولكن من المأمول مع انتشار التعليم وتقدم الوعي أن يصبح في إمكان الكثير من الأسر المسلمة القيام بذلك.

2007

صاحب الامتياز والوكيل الحصري في الجمهورية العربية السورية



في المملكة العربية السعودية جميع إصدارات مركز الراية المعرفية

جدة شارع التحلية - مركز التحلية التجاري - الدور الأرضي - البوابة رقم 4